

الزيرباشا ودوره في السودان
في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل



الميلة المصرية
 العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر من

الهيئة المصرية العامة للكتاب



الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٨

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب عن « الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري » ، للدكتور عز الدين إسماعيل ، وهو في الأصل رسالة علمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير . وبالتالي تتوافر فيه الشروط العلمية التي تجعل منه دراسة تاريخية جديرة بالقراءة .

وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها الدكتور عز الدين إسماعيل بمقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والإصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٣١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري .

وفي الفصل الأول ، وهو بعنوان ! « بداية ظهور الزبير رحمه في السودان » ، تحدث عن عمله بالتجارة ، وذهابه إلى بلاد النيام (النمام) ، ومقابلته للملك كريم ، ونزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها . أما الفصل الثاني ، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا ، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان ، وتعيين غوردون حاكما لبحر السودان ، والتفكير في ضم بحر الغزال ، وحملة محمد البلالي لاختضاع إقليم بحر الغزال . كما تعرض للصراع بين الزبير ومحمد البلالي حتى قتله في سنة ١٨٦٩ ، واستتباب السيطرة له على بحر الغزال ، وقيامه بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال ، ودور الزبير في فتح شكا وتأييد عرب الرزيقات . كما تعرض لتعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا في عام ١٨٧٣ .

أما الفصل الثالث ، فقد تعرض فيه للدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور ، والأسباب التى أدت لفوز سلطنة دارفور ، وأسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان إبراهيم ، وشكوى سلطان دارفور للخبير من حركات الزبير وحكمдар السودان ، وتعرض للمعارك الحربية بين الزبير والأمير حسب الله ، وهزيمته لجيش الأمير حسب الله . كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار إسماعيل باشا أيوب ، وموقعة منواشى ، ودخول العاصمة الفاشر . وتعد موازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق فى فتح دارفور . كما تعرض للخلاف بين الحكمدار والزبير ، ووقوع الزبير فى خطأ الذهاب الى القاهرة لعرض الخلاف بينه وبين الحكمدار ، حيث قضى بقية حياته كخفيف شرف لدى الخبير | .

أما الفصل الرابع ، فهو بعنوان « الزبير - جوردون » ، وقد تحدث فيه عن الدور الذى لعبه الزبير فى الحزب الروسية التركية ، وثورة سليمان الزبير ومقتله ، والأهداف التى أعقبت مقتل سليمان ابن الزبير ، ورفض الزبير الاشتراك فى حملة سواكن . كما تعرض لحوادث اخلاء السودان ، واجتماع الزبير وجوردون فى القاهرة ، واقتراح جوردون إعادة استخدام الزبير فى السودان ، وتشمل هذه الفكرة ، وما ترتب على فشلها من نتائج . وانتهى بنفى الزبير الى جبل طارق سنة ١٨٨٥ .

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته فى نهاية حياته .

والكتاب على هذا النحو يعد دراسة متممة لصفحة من صفحات الحكم المصرى فى السودان جديدة بالقراءة .

والله الموفق . .

رئيس التحرير

د. هيد العظيم ومضان

الزبير باشا

المقدمة :

اهملت المصادر التاريخية حلقة مهمة في سلسلة تاريخ أسرة الزبير ، فلم يذكر المؤرخون شيئاً عن أصولها الأولى ، أو موطنها الأصلي . بل كان الغموض هو الواجهة التي أحاطت بأصولها الأولى . وقد يكون هناك من الأسباب ما جعل المصادر التاريخية تهمل تاريخ هذه الأسرة . وهي على وجه التقريب عدم استطاعة مؤرخي العصر آنذاك التنبؤ بما سوف يكون عليه بعض أبناء هذه الأسرة من شأن في المستقبل . وقد تناول بعض المؤرخين الفترة التي عاشتها هذه الأسرة أيام الاضطرابات التي حدثت بالعراق على أيدي المغول وخاصة في بغداد وهذه المعلومات لا تفي بالغرض المطلوب لتغطية تاريخ هذه الأسرة وحتى هذا الوقت يمكن القول بأن تاريخ أسرة الزبير مازال ينقصه حلقات كثيرة .

بعد أن غادر هولاكو (١) حفيد جنكيزخان بلاد المغول في سنة ١٢٥٣ م على رأس جيش جرار بقصد القضاء على طائفة الحشاشين (٢) ، وعلى الخلافة في بغداد معا ، وهي الحملة الثانية

من حملات المغول : أرسل هولاكو الى الخليفة العباسي المستعصم بالله (١٢٤٢ - ١٢٠٨ م) (٢) يدعوه للمساعدة معه في الحملة على الحشاشين وهي طائفة من فرقة الاسماعيلية ، فلم يلب الخليفة دعوته . وفي سنة ١٢٥٦ م تم للمغول احتلال عدد كبير من قلاع الحشاشين ، فنقضت بذلك اركان هذه الفرقة من اساسها ، وبينما كان هولاكو يعبر المضيق الشهير على طريق خراسان ، وفي سبتمبر من السنة التالية ارسل انذارا الى الخليفة يطلب منه التسليم وعدم سور بغداد الخارجى ، فرد عليه الخليفة ردا مراوغا . ولم ينتظر هولاكو بعد ذلك بل هاجم اسوار بغداد في شهر يناير سنة ١٢٥٨ م ، واعمل فيها المنجنيق ، ففتح ثغرة فيها ولم يشعر الناس ببغداد الا ورايات المغول ظاعرة على سورها الداخلى من احد الابراج . وخرج الوزير ابن العلقمى للمفاوضة على الصلح ، الا ان هولاكو رفض مقابلته ولم يلتفت الى قول من كان يزعم « ان الحقت نصيب من يجرؤ على قهر مدينة السلام بغداد او النيل من خلافة آل عباس » ، فام يعبأ بشيء من هذا واستمع الى نصيحة منجه . وفي العاشر من شهر فبراير اقتحمت عساكره المدينة ، فخرج الخليفة في ثلثمائة من خاصته وقضاته خاضعين مسلمين دون قيد او شرط ، وبعد ذلك بعث سريرة ايام امر هولاكو بقتلهم جميعا .

أخذ الفاتحون بعد ذلك في القيام بالمزيد من المذابح بين اهل بغداد حتى قتلوا على اكثر سكانها ، ولم تستثن أسرة الخليفة نفسه من هذه المذبحة ، ولاول مرة في تاريخ الاسلام اضحى العالم الاسلامى دون خليفة يدعى له على المنابر في صلاة الجمعة .

تقدم هولاكو الى شمال سوريا في سنة ١٢٦٠ م ، ففتح حلب ، ونفك بخمسين ألفا من سكانها ثم دخل حماة واتم الجيش الذى تركه في الشام فتح اكثر البلاد السورة (٤) ، واعلن امراء سورية الصغار خضوعهم لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، اما المماليك في مصر ،

فكانوا أول من وقف في وجه هؤلاء الغزاة وقتة موفقة . وكان المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه على فلسطين ، وأنزل المماليك بالمغول هزيمة حاسمة عند عين جالوت في ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، واستطاع المماليك والسلطان بيبرس خاصة تخطيط سورية برمتها شيئا فشيئا من أيدي هولاء وخلفائه . وكان الانحلال قد أصاب قوة المغول ، فلم يكن في وسعهم تدارك الهزيمة التي وقعت لهم على يد المماليك (٥) .

كانت تلك الناجمة التي أصابت الخلافة الإسلامية ببغداد على أيدي المغول من المواقف العصبية المثيرة التي لفتت أنظار المسلمين كثرة ، وأثارت فيهم روح الانتقام لما أصاب خلافتهم .

وفي وسط هذه الأحداث الجسام قدر لعدد غير قليل من المسلمين من أهل العراق طلبا للنجاة بحياتهم وذويهم من المتعبة المروعة التي تمت في بغداد على يد هولاء التتار ، وكان من بين هؤلاء الفارين الشيخ جموع بن غانم الجد الأكبر لأسرة الزبير ، الذي استطاع أن يفتدي حياته بكل ثروته ، وكانت تزيد على مائة ألف دينار ثم لم يلبث أن خرج بنفسه وأولاده وحاشيته قبل أن ينكث المغول بعهدهم له تاركا وراءه بغداد المحترقة ، وولى وجهه شطر الشام فرارا من المغول ، ومن الشام مضت قافلة الشيخ جموع بن غانم نحو مصر . وفي مصر حاول الشيخ أن يستعيد ماضيه ، فيلقى من الصعاب ما يضيق به إلى شيخوخته وإلى الأحوال التي لقيها في الطريق عبثا ثقلا لا يلبث أن يسرع به إلى القبر ، يرث الابن وكان يدعى جميعا تركة أبيه المقتلة بالأهوال ويزيد عليها ما كانت تمنّيه مصر في تلك الأونة من اضطرابات ومحن ، عقب تولى الملك المعز الحكم بعد انقضاء شجرة الدر (٦) عنه، وما صاحب ذلك من صعود العرش وقسوة الحياة ، فلا يلبث الابن أن ينحدر مع أهله وعشيرته ومن أثر الانضمام إليه مع النيل نحو الجنوب (٧) .

استقر أفراد عائلة الشيخ جميع على جانبي النيل الأبيض بينما شق الآخرون طريقهم إلى دارفور ، وأقليم واداي (٨) . وبين كثير من الأسر والعشائر التي انتشرت على طول وادي النيل ، والتي كان بعضها ينحدر من سلالة القبيلة المعروفة بالجييعاب ، التي ترجع أصولها الأولى للجد الأكبر جميع كما سبق الذكر ، هؤلاء الناس وضعوا رجالهم واستقروا على النيل بين جبل جيري وجبل الشيخ الطيب (٩) وأصبحوا مشهورين في أرجاء السودان ، وذلك بسبب شجاعتهم وأخلاصهم الروحي (١٠) .

لم يكن السودان منطقة مغلقة عبر عصور التاريخ أمام هجرة القبائل العربية أو غيرها سواء عن طريق شبه جزيرة العرب من ناحية الشرق ، أو عن طريق مصر من جهة الشمال ، بل كانت المصب الذي تحط فيه تلك القبائل المهاجرة رجالها سواء في شمال الوادي أو في جنوبه . وينطبق هذا على قبيلة الجييعاب كما ينطبق على بقية القبائل . وقد وجدت قبيلة الجييعاب في بيئة السودان الجديدة ، ما نكرها بمواطنها الأولى الأمسية ، بل وجدت في مراعيها ما لم تجده في مصر من مراعي كافية . وكان في انبساط سهول السودان ، فضلا عن انتشار الدعوة الإسلامية بها ، وتسامح الإسلام ، مما ساعد على استقرارها واستقرار هذه القبائل (١١) . هذا بالإضافة إلى ما لقيته بعض القبائل من الإضطهاد في مصر أبان العصور السياسية ذات المذاهب الدينية المختلفة ، التي تنازعتها منذ الفتح العربي لها مع اتصال أسباب التجارة بين السودان وما جاوره من الممالك العربية ، وما ينجم من هذا الاتصال من الألفة والمودة التي قد تبلغ حد المصاهرة والاقامة والاستقرار في هذه الربوع (١٢) .

وللحديث من تاريخ أسرة الزبير منذ مقدمها إلى السودان حتى مولد الزبير لابد أن نتناول الأصول التي انفصلت عنها هذه

الأسيرة ، فالأصل هي قبيلة الجميعاب ، وبما يلفت النظر أن
 في السودان خمس قبائل على الأقل ، اشتقت أسماؤها من الاسم
 الأصلي جبيع الذى يعنى بالانجليزية — Gather or collect —
 وهى التى تدعى الانتساب الى المجموعة الجمعية . وهذه الأسماء
 هى الجوامعة (الفرد جمع) ، الجمعة ، الجموعية ، الجماعت ،
 الجميعاب . والصلة التى تجمع بين هذه القبائل الثلاث الأخيرة
 تمثل فى أنهم ينحدرون من أشقاء ثلاثة . أما الاقليم الذى كانوا
 يحتلونه حينئذ فهو بالنمط الاقليم الذى يمتلكونه فى الوقت الحاضر ،
 ويمتد على الشاطئ الغربى للنيل الأبيض بمسافة من ٣٠ الى ٤٠
 ميلا جنوبى ام درمان (١٣) — Omdurman ، ولأبعد من جوز نفسه
 — Goz Nefisa بالقرب من خانق سبلوكة — Shabluka ،
 وكذا أراضى جنوب كررى — Kerri على الضفة الشرقية
 للنيل . وكان لهذه القبائل دائما الفؤوز والغلبة . أما قبيلة
 الجميعاب — Gimiab ، فهى تنحدر من المجموعة الجمعية
 بالسودان كما ذكرنا والجميعاب نصف رحل وينقسمون الى :

(١) شاهيناب — Shahinab ومنها جماعة نامابات —
 Naamabets .

(ب) جوداب — Godab

(ج) شيراب — Shibrab

والى جماعة النامابات ينتسب الزبير رحبة (١٤) .

وقبيلة الجميعاب من أشهر قبائل العرب فى السودان على
 النيل الأبيض ، ويسكنون بين عقبة القرى والشيخ الطيب (١٥) .

وقد عرفت بقبيلة الجميعاب نسبة الى جميع أما نسبة الزبير
 فهو الزبير بن رحمة بن على بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر

ابن شاهين بن جبيع بن جموع بن غاتم العباسي ، التي تصدر للزبير أن ينحدر من أصلها . وهناك شيئان اشتهرت بهما هذه القبيلة من بين القبائل كلها وهي الشجاعة وحماية الدمار ، ثم المسارعة الى الترحيب بالحكم المصري عندما دخل السودان اسماعيل باشا نجل محمد علي باشا سنة ١٨٢١ م فلما ، فاستقبله اعيانها بالترحاب ، وعاهدوه على الولاء ، وكان من بينهم الشيخ رحمة والد الزبير ، واخوه حفظوا العهد ، وقاموا على هيئته الى أن وافاهم الاجل ، وحفظ الولاء لهم من بعدهم الزبير (١٦) .

جاء مولد هذا الزعيم السوداني في فترة كان فيها السودان خاضعا للحكم المصري في عهد محمد علي الذي كان قد قام بفتح هذه البلاد سنة ١٨٢١ م ، وكان من طبيعة هذا الفتح أن اُضفى على الجزء الذي تم فتحه من السودان بعض الهدوء والاستقرار .

ففي صبيحة السابيع عشر من شهر محرم سنة ١٢٤٦ هـ الموافق الثامن من يوليو سنة ١٨٣١ م في جزيرة واواسى الهادئة الخضراء ، التي تقع على أربعين ميلا شمالي الخرطوم ، ولد الزبير رحمة . وفي هذا اليوم جلس والده رحمة بن منصور يستقبل الاهل والأصدقاء الذين حضروا لتهنئته بمولد ابنه الزبير .

وفي ربوع هذه الجزيرة قضى الزبير سنى طفولته المبكرة في اللهو البريء ، والانطلاق الحر الذي لم يكن يقيدده غير صوت أمه وهي تعتب عليه كلما عاد الى منزلهم الواسع متعبا من العدو واللعب مع رفاقه من الصبية ، فيجوابها عننذ صوت أبيه الهادئ ، وهو يقف في صف ابنه مدانعا عنه امام صوت أمه المعاتب رافعا يديه الى السماء يستجديها من أجل ابنه مستقبلا حافلا سعيدا .

وقد تأثرت نشأته وطفولته المبكرة الى حد كبير بالبيئة التي ولد فيها ، وبالرفاق الذين اختلطوا به ، وبسباحة والده وحرصه الشديد على حياته ، وخاصة والدته .

وقد بدأ الزبير حياته العلمية بعد أن بلغ السابعة من عمره ، أرسله والده الى مدرسة الخرطوم لتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ لقرآن الكريم ، فأتى ذلك . وفى المدرسة تعلم الكثير (١٧) وكان منظمه للقرآن على رواية أبى عمرو البصرى ، وتلقاه على مذهب الإمام مالك (١٨) الذى لقي انتشارا واسعا فى القارة الافريقية .

وبهذا ألقدر القليل من الدراسة اختتم الزبير حياته الدراسية ، وبدأ والده يوجهه لتعلم المهارات الشائعة فى عصره ، التى كان لابد منها لكل من شب عن الطوق ، حتى يستطيع مواجهة ظروف البيئة التى يعيش فيها ، وكانت أول هذه المهارات هو تدريبه على ركوب الخيل وكلفة ألعاب الفروسية ، وقد حقق كل ذلك وأتقنه ، حتى صار له فيها شأن لا يجارى . ولما كان من عادة القبائل العربية أن يتزوج الشباب من إحدى قريباته ، فقد تزوج الزبير عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره من ابنة عمه ، وكان هذا الزواج بداية لاستقرار حياته . وأخذ يمارس التجارة لتكون موردا لمعيشته ، وخبل له أنه قد انتهى من تحديد أمر مستقبله كما يريد ويختار (١٩) .

وقد كان عمله فى التجارة ، وزواجه من ابنة عمه بداية لمرحلة جديدة فى حياته ، فقد كان الزبير يعقد على أشغاله بالتجارة آمالا كبيرة من ناحية الاستقرار والكسب المادى الذى يضمن له حياة مطمئنة بعض الشيء ، إلا أن الأقدار رسمت له طريقا آخر مخالفا للذى خطه لنفسه وكان هذا الطريق ملوئا بالمغامرة والأهوال ، ولم يكن باستطاعته أن يغيره أو يتجنبه .

وفى سنة ١٨٥٦ م وام يكن قد مر على زواج الزبير أكثر من عامين ، دفعت به الظروف الى أن يذهب الى الجنوب ، وبدأ خيوط هذه القصة عندما بلغه أن ابن عمه محمد بن عبد القادر قد

ارتحل الى الجنوب بعد أن التحق بخدمة تاجر من تجاره يدعى
 عليا أبا عموري (٢٠) ، فجزع لسباع هذا الخبر لأنه لم يكن يتصور
 في يوم من الأيام أن ابن عمه يفعل ذلك ، ومن ثم وطد العزم على
 الارتحال الى الجنوب ليلحق بابن عمه كي يثنيه من عزمه ويعود
 به من حيث أتى ولم يتردد بعد ذلك في الإسراع للحاق بهذه القافلة
 فادركها عند ود شلعي (٢١) على النيل الأبيض الى الجنوب من
 الخرطوم على مسيرة يومين منها ، وبدأ له من اللحظة الأولى
 التي التقى فيها بابن عمه أن مهمته لن تكون سهلة أبداً ، فقد أبى
 أن يستمع لنصحه أو رجائه . واقسم ألا يعود الى الخرطوم قبل
 أن يتم رحلته هذه . فلما أن يلتقى ذويه غنياً ثورياً ، وأما أن يمضي
 في مداد المهلكين ، كان عنيدا جريئاً ككل أفراد آل رحمة ، غير أن
 الزبير مع هذا لم يفقد الأمل في اقناعه .

ومضى يستعرض أمامه أخطار هذه الرحلة ، فلم يزد إلا
 تشبهاً بها ، عندئذ نثر الزبير آخر سهمه واقسم له بالطلاق أنه
 لن يعود الى الخرطوم إلا وهو معه ، وأنه إن لم يكف عن عزمه
 هذا ، فسوف يسافر معه الى بحر الغزال ، قالها الزبير ظلماً منه
 أن ابن عمه لن يرضى بسفره معه ويتضحته هذه ، فيضطر
 عندئذ للعودة الى الخرطوم ، ولكن هذا القسم الغليظ لم يجد معه
 وهكذا وجد نفسه بالرغم من كل ما بذله من جهد لاقتناعه مضطراً
 في النهاية للبر بقسمه ومشاركته في هذه الرحلة ملتحقاً هو الآخر
 بخدمة علي أبو عموري . وفي الرابع عشر من سبتمبر سنة
 ١٨٥٦ م غادرت القافلة ود شلعي ووجهتها بحر الغزال ، وكان
 هذا هو الخط الأول في القصة (٢٢) .

نرى مما سبق أنه بعد أن فشل الزبير في محاولته للتأثير
 على ابن عمه للعودة معه ، التي بآخر سهمه وهو قسمه بيمين

الطلاق أن لم يعد معه ، فسوف يتبعه في رحلته . وإذا نظرنا الى تلك الرواية نجد ان يمين الطلاق هذه هي من أشد الايمان وأغلظها عند المسلم . أما عن تأثيرها على ابن عمه فإنه لم يبال بما أقسم به لأنه كان قد وُطد هزمه على الاستمرار في رحلته مع ابن عموري ، ويتضح من القسم الذي أقسمه للزبير والذي وضع له فيه أنه لن يعود الى ذويه الا ثريا ، او يمضي في عداد الهالكين . وقد كان هذا اليقين هو الفاصل في سفر الزبير مع ابن عمه كما كان السبب في اشتغاله مع ابي عموري واتخاذة التجارة مهنته الأساسية ، يضاف الى ذلك عجل حب الزبير لابن عمه وخونه عليه من المخاطر والأهوال . ولم تكن الرحلة الى الجنوب سهلة ميسورة بل اتسمت بالقسوة والخسونة لما احاط بها من مخاطر وأهوال الطريق .

وإذا كان العناد من أبرز صفات الأسرة ، واتضح هذا العناد في موقف ابن عمه — فإن هذا العناد يتضح أيضا في موقف الزبير ، فقد أقسم بيمين الطلاق لابن عمه على ضرورة العودة معه ، وحين رفض الأخير لم يجد الزبير أمامه المتاعل بدا من أن يبر بقسمه ويتبعه في رحلته . ولم يكن الزبير يملك شيئا تجاه تطور الأحداث على هذا النحو ، لذا فقد توجه الى الله بل بالدعاء أن يحفظه وابن عمه بنفسه ورحمته ، وأن يردهم سالمين من هذه المخاطرة ، وقد استجاب الله لدعائه ، فبالرغم من كل الصعاب والأخطار التي لقيها ، فقد عادت عليه الرحلة بأكثر مما كان قد توجه به الى الله في دعائه ، فقد كانت هذه الرحلة سبب نجاحه وشهرته وما أصبح فيه من منزلة في بلاده لم يصل اليها أحد من قبل . ولم تكن هذه الرحلة الاولى مع ابي عموري سهلة ميسورة فقد دفعا ليها من النصب والاجهاد وتحمل المشاق ثلثا عسيرا منذ اللحظة الاولى التي التحقا فيها بخيمته (٢٣) .

وقد وصلت السفينة التي اتلتها الى مشرع الرق(٢٤) وبدأ عملها بعد أن التحق بجامعة أبي عموري وسرعان ما اندمج في البيئة الجديدة وكيفا نفسيهما بالوسط الذي وجد فيه ، وبعد اعوام كانت شهرة الزبير كتاجر تفوق شهرة التجار الآخرين . وقد اكتسب صداقة الزملاء ، وأهل البلاد وصاهر ملك بلاد النيام نيام ، فعلا نجمه وسما مقامه(٢٥) .



هوامش المقدمة

(١) هولوكو (١٢١٧ - ١٢٦٥ م) : وهو حفيد جنكيز خان ، وجهه أخوه منكوخان المقتول الأعظم لاضداد ثورة في مارس سنة ١٢٥٦ م ، تغير نهر جيحون ، فأعلن صفار الأبراء في فارس ولامهم له قام أبان هذه الحملة بالقضاء على ملوكه الحشاشين وقتل زعيمهم ركن الدين ، ثم واصل بعد ذلك حملاته حتى كانت هزيمته سنة ١٢٦٠ م في عين جالوت قرب بلدة الناصرة في فلسطين . أسلم هولوكو بعد هزيمته وأتجه شرقا ، وقد عبرت إبلخانيته التي شملت بلاد فارس حتى سنة ١٢٢٥ م وفي هذه السنة تسببت إلى خيبة أقصام .

(٢) الحشاشين : طائفة من فرقة الاسماعيلية دعت إلى أمية نزار ابن المستنصر . ومؤسسها الحسن بن الصباح ، الذي انضم وهو حدث للدموية الفاطمية وقد وفد على بحر في أثناء حكم الخليفة المستنصر الناطقي ، وانضم إلى مؤيدي أمية نزار ثم عاد إلى إيران ، وبعث دعوته فيها فالتفت حوله كثيرون . وفي سنة (١٠٩٠ - ١٠٩١ م) استطاع أن يستولي على قلعة الموت الجبلية الحمسينية واتخذها مقرا لدعوته ، ثم وجه أمته للاستيلاء على قلاع أخرى وإلى التخلص من أمواته . وقد تميز بتنظيم دقيق ، وانحياز الإغتيال أداة يتظلمون بها من أعدائهم ، فكان يرأسهم السيد أو شيخ الجبل وهو صاحب الأمر والنهي ، ويليه الدعاة ، ويتلقون أوامره منه ، وينفذون تعليماته ، وينقسم الباقون إلى مراتب حسب اطلاعهم على أسرار الفرقة ومن أهم هؤلاء فئة الدعاتيين الذين كانوا يفتلون الأعداء .

(٣) المستنصر بالله : (١٢١٢ - ١٢٥٨ م) آخر خلفاء الدولة البساسمية بالمراق . ولد ببغداد وولى الخلافة ١٢٢٢ م في أشد أيام شتمها ، اعتد على وزيره مؤيد الدين ابن الطلق . ثم للمفول الاستيلاء على بغداد في عهده ، ثم قطوا ساندتها وعلبها ، وأبقوا على الخليفة بها إلى أن أرشدتهم على أماكن الأبطال ، ثم قتلوه وبوته انقضت الدولة البساسمية في العراق .

(٤) غيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٤ .

(٥) كارل بروكلمان (ترجمة : آيه آين فارس وخير البعلبكي) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٦) شجرة الدر (م ١٢٥٧ م) : تلعب بعصبة الدين ملكة مصر ، وهي من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب . اشتراها أيام أبيه وولدت له ابنة خليلاً ، فاعفها وتزوجها ، ذهبت معه إلى الشام . أيلم كان متولياً عليها ، وكانت تدبر الملك أثناء غيابه في الغزوات . كان خطها يشبه خطه ، فكانت تعلم على التوقيع . أخفت خبر بومه أيام المعارك الناجية بينه وبين الأتراك بالمنصورة ، وخطب لها على المنابر ، وصكت باسمها النقود . حكمت لبائنين يوماً وخرجت انشام على طاعتها ، فتزوجت وزرعاً عز الدين ، وتنازلت له عن السلطة ملكية بالسيطرة عليه . طلق زوجته الأولى أم علي من أجلها ، ولكن لما أراد أن يتزوج عليها أمرت بماليتها فقتلوه ، ولكن زوجته المطلقة أم علي أمرت بجواريتها فقتلها .

(٧) سعد الدين الزبير : الزبير باقيا رجل السودان ص ٩ - ١٠ .

(٨) واداي : سلطنة سابقة لشرق أفريقيا الاستوائية قرب بحيرة تشاد . نشأت فرنسا واداي في القرن التاسع عشر الميلادي ، وغرقت عليها الحماية سنة ١٩٠٣ م ، وصارت منذ سنة ١٩٠٩ م جزءاً من أفريقيا الاستوائية الفرنسية . ومن عاصمتها سدا طريق القوافل إلى بنغازي ، وإلى أفريقيا الغربية . هم معانها النحاس والقصدير والرصاص .

(٩) جبل الشيخ الطيب : تجاه الثغالبات وهو مؤسس الطريقة السامانية في السودان ، وله قبعة تزار واقعة في سفح جبل صغير يعرف بجبل أم مري . الملقب بجبل السالان نسبة إليه .

Jackson, H.C. The black ivory and white P. 3. (١٠)

(١١) محمد محمود الصياد (دكتور) ، محمد عبد الغنى سعودي (دكتور) : السودان ص ١٦٠ .

(١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٧ - ٨ .

(١٣) أم ديمان : تقع تجاه الخرطوم وغرب النيل في خط عرضي ٣٨° وخط طولي ٢٩° ٢٢° ، وقد كانت قبل ذلك بلدة صغيرة قائمة في سهل سميح رملي لا شجر فيه وكانت محطاً لرحال تجار القرب قبل دخولهم الخرطوم . شهدت الحكومة بها بدء الثورة المهدية طابية استولى عليها المهديون في ٥ يناير

سنة ١٨٨٥ م ، واحتل البلدة انتصار المهدي نفسه ، وعند وفاته دفن فيها ، فبنى خليفته عبد الله التعايشي قبة فوق قبره جعلها مزارا وجعل أم درمان مخصصة لذلك وسماها بقية المهدي .

Macmichael, H.A. : A history of the Arabs in the Sudan PP. 221 — 222. (١٤)

(١٥) مير رضا كماله : معجم القبائل العرب القديمة والحديثة ج ١ ص ٢٠٦ .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٠ .

(١٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٢ — ١٣ .

(١٨) نعموم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ج ٢ ص ٦ .

(١٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٣ .

(٢٠) على أبو عبوري : من أعالي نسيج حمادي بصعيد مصر ، ومن أوائل التجار الذين أسسوا مراكز تجارتهم في غندكور وفريت ، ويكون مع غيره من التجار شكلت تلك الكثير من الزرائب في كل من بحر الخزال وأعلى النيل ، وكان يصف بأنه محدودب الظهر حديد النظرات تصير الغاية .

(٢١) ود شلمى : وهي من مدن الليل الأبيض لعلمة لمديرية الجزيرة ولقع على بعد ١٨ ميلا من القطنية وهي مرسى جيد للسفن .

(٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤ — ١٥ .

(٢٣) مشرع الرق : وهو مرفأ على بحر الخزال تستلح السفن أن تتجاوز جنوبا ، والمشرع أمكن للتجارة على شكل مربع من هروق الاتجار يقيم فيها التجار أو ويكوله ومعه بعض الحراس للعتاق ولجلب الرقيق وقد فتح الخديوي اسماعيل توميسات لأصحاب المشرع ليتخلوا عنها للحكومة .

(٢٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٦ .

(٢٥) عبد الرحمن وكى : أحلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٤ .



الفصل الأول

بداية ظهور الزبير رحمة في السودان

بداية ظهور الزبير رحمة في السودان

نهيد :

تحرك الزبير رحمة للحاق بابن عمه محمد بن عبد القادر من الجنوب خوفا عليه من مخاطر وأحوال الطريق بعد فشله أمام مناديه على الاستمرار فيها اعتزم عليه ، وكان ذلك التحرك من المواقف ذات الاهمية في تغيير مجرى حياته ، وقد كان من الجائز أن تفسد عليه هذه الحادثة حياته ، ولكن صبره وعناده واستعداده العقلي كان يدفعه الى الامام في سبيل ما ارادت له الاقدار كافة ألوان المخاطر والأحوال التي تكثف الرحلة الى الجنوب ، وكان هذا بداية لتاريخ حافل في حياة الزبير مملوء بالاثارة وحسب المفارقة ، وكان العمل في الجنوب ايا كان نوعه يعتبر في حد ذاته خطرا على من يمارسه ، ويحتاج الى الرجل الذي لا يهاب المضي قدما فيما فرضه عليه الواقع من ضرورة وجوده في هذه الاصقاع النائية . ولم يكشف الزبير في نفسه هذا الا بعد أن صمد للكثير من التحذيرات التي واجهته في رحلاته مع ابن عمه والتاجر علي أبو عموري بجنوب السودان (١) .

بدأت رحلة الزبير الاولى الى جنوب السودان في ١٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م حينما غادر ومن

معه قرية « ود شلعي » وهو يدعو الله أن يرضى عليه من حمايته ورعايته في هذه الرحلة التي توقع منها المخاطر والأهوال ، ولكنها كانت السبب الأول في تقدمه وشهرته في مجال التجارة . ومن خلال هذه الرحلة وصل الى القمة الى لم يصل اليها أحد في بلاد السودان من قبل .

كان الزبير متخوفا جدا من هذه الرحلة ، ولم يصبح أهلا لهذه المكانة التي وصل اليها الا بعد شدة وخطب عظيمين لقي خلالها الكثير من صنوف المتاعب ، وبعد أن عمل في جو مصحوب بالضيق وضنك العيش وليس غريبا أنه عندما الحق نفسه بالعمل عند علي أبي عموري ، كان في ظروف معيشية سيئة أدت بهذا الرجل الى أن يعامله بفظاظة ، ولم يكن ليعطيه من الكمك المصنوع من الدقيق الجيد ، ولا من أقذاح القهوة ، ولا حتى من شرائح اللحم شيئا يذكر ، يضاف الى ذلك أنه لم يترك له الفرصة كي يقتات ما يقيم أوده ويحفظ عليه حياته وصلة الروح بالجسد (٢) .

هكذا كانت البداية سيئة ، بل ازدادت سوءا على ما كانت عليه ولم تكن لتشجع على الاستمرار لولا أن كان هناك هدف أسعى يسعى الزبير من أجله الا وهو إخلاصه وولائه لابن عمه وخومه عليه من أن يتركه وهيدا عرضة للمخاطر ، ولذا فقد قبل من طيب خاطر أن يتحمل كل هذا دون أدنى شكوى من المعاملة القاسية التي يلقاها يوميا على يد علي أبي عموري (٣) .

ظل الحال على ما هو عليه وهم يجتازون قلب السودان حتى بدأت الغابات المحيطة بالنيل الأبيض تخفى رويدا لتفسح المكان لمستقعات بحر الغزال الشاسعة المترامية الأطراف ، وهناك أخذ أبو عموري يوزع السلاح والفخيرة على أتباعه ، ولم يحرم منه أحد سوى الزبير ، وكان هذا أكبر من أن يسكت عليه الزبير ،

واحس وقتها ان عزيه وكرامته لن تتحملا اكثر من هذا فمضى اليه ،
وفى اعماله غضب مكبوت وطالبه بسلاح يحمله فقبل في النهاية
ان يعطيه مسدسا معدئا متيقا لا يكاد يصلح لشيء ، غير أن
الزبير رضى به ، وبذل جهدا كبيرا في اصلاحه وتهيئته للعمل
حتى استطاع فعلا بعد ذلك عندما جاء وقته ان يعمل وأن يقوم
بالمعجزات (٤) .

وقد حدث في أحد الأيام أن تأمر عليهم سكان المناطق المحيطة
بهم وكان عليهم ان يلجأوا للسلاح دفاعا عن انفسهم فقسّموا
قواتهم الى معسكرين يضم كل واحد منهما حوالى مائة رجل ،
وأخذ أبو عمورى ورجاله أهبتهم للقتال ، ولم يلبث الاعداء ان
أحاطوا بهم في عدد لا حصر له ، ولم يمض لحظات حتى كان
الزبير ومن معه مشتبكين في قتال مرير مع الاعداء ، وأحدثت
المعركة ، وبدأ موقف الزبير ومن معه يتخرج ويسوء لكثرة ما خسروه
من القتلى ، وفي هذا الوقت وقع بصر الزبير على واحد من
المهاجرين ضخم الجثة كالفيل ، وكان يبدو عليه من انخفائه وطاعة
الرجال له أنه قائدهم ، عندئذ أسرع الزبير فسدد اليه ضربة
قائلة أصابته بين عينيه فخر على الأرض صريعا يتخبط في دمه ،
والقط الزبير مسدسه المحشو ، وأستأنف القتال ، ولم تمش
غير ساعة واحدة حتى كان الزبير قد صرع أحد عشر رجلا من
الاعداء ، وأسرع لمساعدة بقية الرجال الذين كان موقفهم يتخرج
من لحظة لأخرى ، وقد أوشك الاعداء على التغلب عليهم ، ولم
يمر وقت طويل حتى كان قد أباد عددا آخر من المهاجرين ، وبهذا
بدأ الموقف يتحسن الى أن بدأ الاعداء يحسون الهزيمة منهذوا ولو
الادبار وهم من خلفهم يطاردونهم ويقتلون منهم حتى تم لهم النصر
عليهم وعندما أقبل المسدس كانت المعركة قد انتهت تماما وكان

التجار قد فرغوا من بناء زريبة يقضون فيها ليلتهم ، وليلتها رأى الزبير أبو عمورى وهو يتقدم نحوه حاملا له من أطايب الطعام ما كانت تشتهي نفسه من زمن بعيد ، ثم مضى يعانقه ويقبل رأسه ويده وأمضى معه وقتا طويلا فى التودد اليه والثناء على شجاعته مشيدا بأنه كان السبب فى تخليصه من برائن موت محقق . ومن يومها تغيرت معاملته للزبير واتخذة صديقا له (٥) .

أظهرت هذه المعركة مدى قدرة الزبير وشجاعته فى مواجهة الشدائد . عندما أبلى فى قتاله مع رجال أبى عمورى بلاء حسنا فى قتاله ضد هؤلاء السكان . بل كان هو السبب الأول فى الانتصار عليهم ، مع أن هذه المعركة كانت تعتبر الأولى بالنسبة له . وقد كان لها أهميتها من حيث التغيير الذى أحدثته فى مجرى حياته مع أبى عمورى .

وفى صباح اليوم التالى استأنفوا الرحلة فى النيل الأبيض الى أن وصلوا الى مشرع الرق . فنزلوا ببضائعهم وأمتعتهم وكان فى نفس العام سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٨٥٦ م اختلفوا بلاد الجائنية (٦) الى أن وصلوا بعد مسيرة خمسة أيام الى أرض الجور (٧) — Jur حيث كان لأبى عمورى محطة هناك تسمى عاشور على اسم شيخ البلد هناك . وفى منطقة بحر الغزال كان هناك الكثير من التجار غير أبى عمورى متفرقين فى أنحاء الإقليم ولكل تاجر منهم زريبة (٨) وكانت أهم البضائع المتداولة فى تلك البلاد هى الخرز على اختلاف أنواعه وألوانه وأحجابه ثم الودع والقصدير وكله مما يتزين به النساء والرجال . وكان الأهالى يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة ، فكانوا يأخذونها من التجار ويتبايعون عليها بسن الدليل (٩) ويريش النعام (١٠) والمطاط والحديد والنحاس وغيرها من موارد البلاد (١١) .

ظل الزبير بعد ذلك مساعدا لأبى عمورى فى تجارته غير أنه لم تمض الا بضعة شهور حتى ثار أهل البلاد مرة أخرى على التجار طلبا فى أموالهم وبضائعهم وما جاءت سنة ١٢٧٤ هـ المواقى سنة ١٨٥٧ م حتى كانت قواتهم قد تجمعت من جميع أنحاء البلاد واستعدت للمعركة الفاصلة ، عندئذ بدأوا فى الهجوم على الزرائب وقتلوا بعض التجار وهم نائمون ، وسلبوا أموالهم كما هاجموا زريبة أبى عمورى ، فتصدى لهم الزبير على رأس الرجال وأحاط بهم وقاتلهم حتى أنزل بهم هزيمة ساحقة ، وسبع التجار بخبر انتصاره عليهم ، فجمعوا اليه من جميع أنحاء البلاد ودانوا له بالطاعة ، وأصبح أهل البلاد لا يجرؤون على مهاجمة زريبة أبى عمورى أو زرائب التجار الآخرين ، وعندما وجد أبو عمورى نجاته فى المرتين السابقتين بفضل شجاعة الزبير زادت ثقته فيه وجعل له قسما من أرباحه يبلغ عشر العاج . وعندما هدأت الأحوال بالبلاد ترك أبو عمورى الزبير وكيلاه عنه وسافر الى الخرطوم مغلب فيها مدة ستة أشهر وعاد بالبضائع فوجده قد جمع عنده من موارد البلاد ما لم يكن ليجمعه هو فى سنتين ، فزاد هذا من احترامه للزبير. وعرض أبو عمورى على الزبير مشاركته له فى تجارته على أن يكون الربح مناصفة بينهما ، الا أن الزبير رفض ذلك وعزم على أن يستقل بنفسه فى أعماله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه (١٢) .

تربى على المعركة السابقة عدة نتائج أولها فتح أبواب كثيرة أمام الزبير منها أن أبى عمورى قد عرض عليه مشاركته فى تجارته ومناصفته أرباحه فرفض ، وثانيها أن تجار هذه المنطقة قد لحسوا بقيمته وقدرته وإخلاصه فقدموا اليه فروض الولاء والطاعة ، كما أنها أعطته الثقة الكاملة فى أن يقوم هو بنفسه بالاتجار لحسابه الخاص .

الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير :

أولا : استطاع الزبير أن يكتشف نفسه الخليفة بالصمود أمام العقبات والتحديات ويتمثل ذلك في المعركتين اللتين خاضهما مع رجال أبي عمورى ضد سكان البلاد وظهوره بمظهر المدافع عن حقوق صاحبه أبي عمورى وبقية التجار .

ثانيا : كان لهذه الرحلة الأثر الكبير في تزويد الزبير بخبرات واسعة في مجال الاتجار والمقايضة مع سكان الاقاليم الجنوبية ، ونوعية المواد التي يجب أن يتاجر فيها ويقلض عليها ، والتي كانت محل رغبة من الأهالي .

ثالثا : تعرف الزبير على مصادر حاصلات الجنوب ، وقد استطاع أن يجمع من هذه الحاصلات مثل العاج وسمن الفين وغيرها كميات كبيرة .

رابعا : كان من نتيجة تحسن مركز الزبير لدى أبي عمورى وبقية التجار الأثر الناجع في أنه وجد أحسن الطرق وأيسرها لتحقيق أماله وبلوغ طموحه لا يمكن في مشاركته لأبي عمورى أو ناصفته أرباحه بل في استقلاله بالأعمال التجارية التي أصبح له فيها شأن كبير .

الزبير يستقل بنفسه :

قرر الزبير الاستقلال عن أبي عمورى وممارسته التجارة بحسابه الخاص ، لذلك سافر إلى الخرطوم لشراء ما يلزمه من البضائع التي تروج في البلاد التي سوف يتاجر فيها ، واستنجاها الأفراد اللذين للعجل معه ، وليبدأ جولة جديدة في حياته . بدأ الزبير رحلته إلى الخرطوم بالأبحار من بحر العرب حتى وصل

الى مكان التقاء بحر العرب ببحر الفزال ، وفى اثناء اجتيازه لهذه المنطقة وقع بصره على تطيح كبير من الفيلة ذات الانياب الغليظة التى تعتبر من أهم مصادر الحاج ، فحاول الزبير ومن معه اصطيد هذا القطيع بثنى الطرق للحصول على الحاج ولكنهم اخفقوا فى ذلك لوجود مستنقع عميق متسع حال بينهم وبين الوصول اليه .

وعندما اتى عليهم الليل صنعوا لأنفسهم مأوى من الاغصان يبيتون فيه ليلتهم ، وفى اثناء الليل خرج الزبير ومعه أحد تباعه للمغامرة بينما ترك بقية الرماق ، واثناء سيرهم خلال المناطق الموحشة والاحراش الكثيفة لفت نظرهم وجود تمساح ضخم يرقد قرب النهر فحاول الزبير اصطاده برصاص بندقيته ، ولكنه قبل أن يفعل ذلك فوجئ بأسد يتقدم فى خفة صوب التمساح ، بعدها بدأت معركة وحشية بين الاسد والتمساح انتهت بصراع التمساح - وفى صباح اليوم القالى عاد الزبير وصاحبه الى حيث كان ينتظرهم باقى الرماق واستأنفوا رحلتهم الى الخرطوم التى بلغوها فى السليح من ربيع الاول سنة ١٢٧٠ هـ الموافق الخامس عشر من اكتوبر سنة ١٨٥٨ م وكان الزبير قد جمع من تجارته مع أبى عمورى نحو الف جنيه ، فها وصل الخرطوم حتى اشترى بهذا المبلغ قارباً حمل فيه من مختلف البضائع التى تروج فى بلاد الجنوب ، كما أنه استأجر لنفسه بعض الرجال وسلاحهم بالبنادق كما كانت عادة التجار آنذاك (١٣) .

وقد كانت هذه الرحلة التى قام الزبير بها لونا من الوان المغامرة ، التى عبرت عن شكل من أشكال الحياة فى السودان لذلك نهى تعتبر صورة من الصور التى سوف تتكرر رؤيتها فى جميع رحلاته التى قام بها الى الجنوب .

الزبير فى بلاد قولو (١٤) (١٢٧٥ هـ - ١٨٥٨ م)

حمل الزبير أثناء عودته من الخرطوم من البضائع التى تروج ببلاد الجنوب . الشيء الكثير مثل الخرز بكلمة أنواعه وأشكاله وأحجامه والوانه ، والودع ، والتصدير ، والقماش المصنوع من القطن وغير ذلك من البضائع للتفايضة عليها . يريش للنعام ، وسن الفيل ، والخرتيت ، والمطاط ، والحديد ، والذهب ، وغير ذلك من موارد البلاد كما أنه اصططحب معه رجالا للقيام بأعمال الحماية وآخرين لحمل البضائع ، وغيرهم ليكونوا أدلاء ومرشدين عبر الطرق والمناطق التى يتجهون إليها .

وبدا الزبير رحلة العودة متجها نحو الجنوب فى اتجاه مشرع الرق هو ومن معه ، ولكن لم يلبث أن اعترض طريقهم أثناء أبحارهم عبر مجارى أحد الأنهار سد كبير من أم الصوف (٢٠) وكان عليهم لكى يواصلوا الرحلة أن يزيلوا هذا السد من النهر ، وظلوا أياما يحاولون إزالته ، ولكن دون جدوى ، وكاد اليأس يتسرب اليه لولا أن جاءهم فى النهاية رجل من قبيلة النوير - Nuer من العارفين بأسرار هذه البلاد فآزاله لهم بالتعاون مع بقية الرجال فى سهولة ويسر ، وقد أخبرهم بأن من عادة القبائل هناك أن تعتمد الى ربط الأعشاب الطائفة - Weeds بعضها الى بعض حتى يتكون منها جسر واحد تمر عليه الأغنام ، هذا الى أنه فى موسم الأمطار تملأ الأنهار بالمياه ، فإذا أتى فصل الصيف جفت هذه الأنهار ، فيترك الأهالى أغنامهم لرعى العشب على الشاطئ ، فكان التجار فى ذهابهم وإيابهم فى النهر يعمدون الى صيد الأغنام والانتفاع بها ، لذا كان الأهالى يعملون على تقوية هذه السدود وتكثيفها حتى تقلل حجر عثرة فى طريق التجارة فيأمنوا بذلك على أغنامهم من الهلاك .

استأنف الزبير الرحلة الى مشرع الرق ، وهناك استأجر بعضا من الرجال لحمل بضائعه برا في منطقة بحر الفزان وسار الزبير ومن معه ، فاجتازوا بلاد الجانكاه — Janket او الجانقية والجور — Jur والبنقو — Bongo (١٥) حتى وصلوا بلاد قولو — Golo فرحب بهم ملكها كواكي — Kuwaki واکرم لقياهم وتاجر الزبير في هذه البلاد بما تجلبه معه من البضائع حتى اجتمع عنده من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من موارد البلاد الشئ الكثير ، فارسلها مع ابن عنه محمد بن عبد الرحمن الى الخرطوم حيث باعها وعاد بكثير من البضائع في السابغ عشر من ربيع اول سنة ١٢٧٦ هـ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٩ م ، وقد طابت للزبير الإقامة في هذه البلاد . وأخذت تجارته في الاتساع والنمو حتى غادرها الى بلاد النيام نيام (١٦) .

وهكذا أصبح الزبير تاجرا موهوبا أقام تجارته على أسس غير أسس التجار العاديين ، واتخذ أساليب غير أساليبهم ، فلم يهاجم القرى الآمنة ولم يهاجم القرى الضعيفة بل قصد بلاد النيام نياه حيث يوجد أكلة لحوم البشر وهي كما يصفها الزبير البلاد التي ليس فيها مقابل (١٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م)

بلغ الزبير أنه توجد الى الجنوب الغربي من بلاد قولو — Golo بلاد واسعة الأطراف كثيرة الخيرات تتميز بكثرة ابتارها ويقطعان الفيلة التي لا حصر لها وأن العاج لكثرت هناك يكاد ألا تكون له قيمة بذكر . ومن ثم عزم على الرحيل الى هذه البلاد ، فما كاد يمضي على مودة ابن عمه من الخرطوم شهر حتى حزم بضائعه وحمل معه للسلطان هدية فاخرة ، وانطلق قاصدا

هذه البلاد . فبلغ عاصمتها دارتكة بعد رحلة شاقة استغرقت خمسة وعشرين يوما . وكان يحكمها سلطان يسمى تكة ويقيم في عثة كبيرة يحيط بها سياج من أنياب الفيلة يبلغ عددها ما بين ثلاثة وأربعة آلاف . في هذا المقر قابل الزبير السلطان وقدم له الهدايا التي جلبها معه ، واستأذنه في الاتجار في بلاده ، فأذن له ، وبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته بالاتجار وسط هذه القبائل من أكلة لحوم البشر (١٨) .

وعلى هذه البلاد أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى اسم « نيام نيام » وبالتحديد شعوب هذه المناطق من سكان أواسط افريقية ، وكان أولئك الكتاب لا يميزون بهذا الاسم شعبا بذاته ، بل مجموعة سكان هذا الاقليم الأوسط الذي يشمل الكونغو وأعلى النيل والذي اشتهر سكانه بهذا الاسم ، وهذه البلاد تشمل الجزء الجنوبي من حوض بحر الغزال المتاخم لأعلى روافد نهر الكونغو ، وهنا نجد مساحة واسعة جدا من السودان الجنوبي الغربي وإلى الشمال الشرقي من الكونغو ، وهي بذلك تقع في مركز متوسط بالنسبة للقارة الافريقية في هضبة متوسطة الارتفاع ، وتحيطها مجموعة من الشعوب المختلفة من أشهرها قبائل مورو ، وماضي ، ويونجو ، ومنديو ، والمكاركة ، والآزاندى ، والمجبيتو وغيرهم . هذه المساحة العظيمة من جملة الجهات الافريقية انتشر فيها ذباب « نسي نسي » المسبب لمرض النوم . وعلى الرغم من ذلك فقد احتشدت فيها في القرون الثلاثة الأخيرة جماعات مختلفة من اقاليم الكونغو وأواسط افريقية ، ودارت بينها اشتباكات ومنازعات وأخذت جماعات تتشكل في مختلف الجهات ثم تتحلل ، تظهر ثم تختفي ، تستقل ثم تندمج ولا تزال آثار هذا التشتت والتزق واضحة ، بحيث يصعب معها رسم خريطة لتوزيع ..الشعوب في هذا الاقليم الكبير .

وعلى فرض أن هناك منطقة انتشرت فيها ظاهرة النمنمة ،
 وأنها تنفذ من الكونغو الى أعالي بحر الغزال ، فإن أكبر الظن
 أنها لم تكن يوما عادة شائعة في طول الاقليم وعرضه . وكثير
 من السكان يفكرون أن أمرا كهذا يمارسه أحد ولا شك ان الاتصال
 بين الشعوب ، لابد أنه قضى على هذه العادات في الجهات البعيدة
 التي كانت تمارس فيها (١٩) .

ويقال ان أكل لحوم البشر في بلاد النمام (النيام — نيام)
 ليس غذاء عاديا لهم كما يظن البعض . بل هو طريقة اتخذوها
 لبيان معزة أحدهم عند الموت ويرونها تسمى شانا من دفن الانسان
 في القبر أو احرافه بالنار مثلا ، ويرون في ذلك راحة لهم من
 بناء انشاء المقابر واحتياطاتها الصحية (٢٠) .

وكان من العسير على سلطان النيام نيام ان يفهم لماذا اهتم
 الزبير بالعاج وسعى الى جمعه ، فلما بلغه انه يجمعه ليسحقه .
 لم يلبث عندها عادوا في العام التالي ، أن وجد الأهالي قد احرقوا
 العاج كله . وكان من الواضح أن السلطان قد عهد الى هذا خوفا
 من أن يكون الزبير ومن معه قد خدعوه عندما قالوا له اننا نجعله
 لنسحقه .

وكان الزبير ومن معه يقطنون طول فترة اقامتهم بداراتكة
 في غشقة بالقرب من مقر السلطان . وقد بنيت عشش زوجات
 السلطان بجواره في شبه نصف دائرة تحيط بأرض فضاء ممتدة .
 وتسل ذات مساء أحد الخمر التي مع الزبير من مريطه ، واخذ
 طريقته الى مقر السلطان حيث افراه بذلك مشهد الأثرة التي كان
 الأهالي قد تركوها هناك في الليلة الماضية ، ولما كانت انظار اهل
 بلاد النيام تيام لم تقع قط على صور مثل هذه الدواب كالجمال
 والخيول . فقد ذمرت زوجات السلطان لمراى هذا الحمار وولين

من أماله الألبار في دُعر وهياج ، وقد ظنوه رجلاً مسحوراً على صورة أخرى ولم يلبث السلطان أن شاركهم هو الآخر في هذا الظن ، فامر وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ بقتل الحيوان وبدق طبول الحرب لدعوة المحاربين من كل مكان لقتال الزبير ، وتخرج موقف الزبير من معه حتى بات يتهدهم خطر عظيم . ولكن الزبير ، بما عرف منه ، لم يتوان لحظة واحدة في إصلاح الأمور فأرسل إلى السلطان أحد المقربين إليه من أتباعه ومعه بنديقتان وأربعون طلقة هدية من الزبير إلى السلطان لكي يسترضيه ويتقضى غضبه . غير أنه أدار لرسول الزبير ظهره وأبى أن يتقبل الهدية فلما سمى الزبير بنفسه وتقدم منه محيياً أدار له ظهره مرة أخرى . وكانت هذه الحركة من عاداتهم في اظهار الغضب والاستياء عندئذ خاسطه نورانجره (٢١) Nur Angra قائلاً : أيها الملك العظيم ما الذي يغضبك مني وأنا الذي طالما اصطلت لك القروء المكتنزة لتكون طعاماً لك مني ولانك العامرة اللذيذة ؟ عندئذ أجاب السلطان في حدة قائلاً : « وما الذي تنتظره مني غير الغضب وقد أرسلتم أحد رجالكم بالليل إلى حى زوجاتي ينتهك حرمتهم . قتلى نورانجره Nur Angra بأن الحمار لا يعدو أن يكون حيواناً كالبق والغزال حتى هذا أخيراً وخف غضبه ، فعما زادوا له الهدية إلى ست بنادق تنازل له الزبير عنها مكرها .

وكان لسلطان تكه ما يقرب من الأربعمئة امرأة والأربعمئة من الأبناء والبنات . فقام يزوج رانبوه كبرى بناته للزبير ، وكانت على قدر كبير من الجمال . ساعد هذا الزواج الزبير على توطيد مركزه بين أهالي البلاد ، ورفعت هذه المصاهرة الملكية في أنظار الأهالي ، وزادت تجارته رواجاً وإساعاً واستطاع في وقت قصير أن يجمع الشيء الكبير من العاج وغيره من موارد الجنوب (٢٢) .

وانت كانت رحلة الزبير الى هذه البلاد ذات أهمية من حيث
أثره :

أولاً : استطاع أن يكتشف لنفسه أماكن جديدة للتجارة لم
يطرئها أحد من قبل .

ثانياً : كانت هذه البلاد تمثل مستودعاً طبيعياً بكرة لحاصلات
الجنوب من العاج وغيره ، التي لم تظلم أيدي التجار بسوء فكان
هذا فتحاً عظيماً لزيادة حجم تجارته من هذه الموارد الطبيعية .

ثالثاً : كان تقربه للسلطان وحبه له ثم تزوجه من ابنته عابلاً
مساعداً على تقوية مركزه وسط شعوب هذه البلاد واتساع مجال
تجارته فيها .

الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ - ١٨٦٢ م) :

بعد أن جمع الزبير الشيء الكثير من حاصلات بلاد النيام
نيام استأذن السلطان تكة في الرحيل عن البلاد فرحل عنها في
السابع عشر من رمضان سنة ١٢٧٨ هـ الموافق الثامن عشر من
مارس سنة ١٨٦٢ م قاصدا الخرطوم ومعه ما حمله من سلع البلاد
وفي أثناء سيره مر بصاحبه على أبي عموري فوجده متأهباً للسفر
بتجارته الى الخرطوم فالتقى على الذهاب معه . وكان لأبي عموري
زريبة قرب نهر البنتو (٢٣) الذي لم يسلكه أحد قبلهم على حد
قوله ، فقاموا باجتيازه رغبة في التخلص من مشقة نقل البضائع
بالبر ، ولهذا الغرض أنبوا بناء مركبين ووضعوا فيهما بضائعهما
ورجالهما البالغ عددهم مائتين وأربعة عشر رجلاً ، ثم سساروا
قاصدين مشرع الرق ومعهم من الزاد ما يكفيهم لمدة شهرين .

وبعد أن ساروا ثلاثة عشر يوماً بلباليها اتسع مجرى النهر
حتى صار أشبه ببخيرة واسعة منه بالنهر ، واختفى عن أعينهم

المنجى الأملى للنهر ، تفاهاوا فى هذه البحيرة الواسعة مدة خمسة وسبعين يوما قاسوا خلالها الأهوال وهم تحت رحمة السماء ، وفى تلك الفترة نفذ زادهم جميعه ، ولم يصبح لديهم ما ياكلون من الطعام ، ومقدوا كل أمل فى النجاة من الموت . الا ان الله اراد لهم النجاة ، فقد لاح لهم من بعيد دخان ، فاسرع الزبير ومعه على أبى عمورى ومعها تسعة من الرجال فى قارب صغير من كانوا قد أتوا به معهم فى المركبين الكبيرين من قاصدين جهة الدخان ، وما كادوا يبتعدون من المركبين حتى اختفى الدخان تماما ثم غاب من أنظارهم أيضا المركبان ، فاصبحوا يسرون على غير هدى وطال بهم الحال حتى اشرفوا على الهلاك .

ولم ينقذهم من ذلك غير رؤية تمساح كبير ، كان برقد تحت شجرة على تل فى وسط الماء فاصطادوه برصاص بنادقهم ، ومن هناك انطلقوا بعد ذلك يبحثون عن المركبين وسط هذه البحيرة ، وظلوا على ذلك الحال لمدة أربعة أيام ، حتى عثروا عليهما أخيرا ، وهناك شاهدوا المأساة التى حدثت ، فقد وجدوا ثمانية عشر رجلا من رجالهم قد ماتوا جوعا ، وعندما علم واحد من رجالهم بنجاتهم تولى على الدور . وقد أخبرهم الرجال أنهم كانوا يرون الدخان كل يوم فى آخر النهار ، فأيقن الزبير ومن معه بوجود بر قريب فانتقى اثنا عشر رجلا من أقوى الرجال وأنزلهم فى القارب وتوجهوا معا الى جهة الدخان ، ولم تفض بضعة ساعات على ايجارهم حتى اشرفوا على جزيرة واسعة هائلة . مأهولة بالناس وفيها من الأبقار مالا يحصى عدده ، فنزلوا الى البر . فوجدوا أن الدخان الذى كانوا يرونه هو دخان أرواث الأبقار التى كان يحرقها الأهليون فى عصر كل يوم لينتخذوا رمادها فرائسبا لهم كما دأبوا (٢٤) .

وكان يسكن تلك القرية قوم من النوير (٢٥). فلما دخلوا الجزيرة اجتمع عليهم السكان ، فاختفوا يسألونهم عن هذه الملابس ، ومن أين أتوا الى هذه الجزيرة ، وهم في كل هذا ينوون الخير بهم . ولحسن حظ الزبير كان معه شخص مترجم على علم بلغة القوم ويعرف ملكهم وأخبرهم الزبير على لسان مترجمه بأنه يعرف ملكهم « كريم » وأنه يريد مقابلة ، فلما رأوا أنه يعترف بملكهم ولغتهم رحبوا به هو وصحبه وأمنوهم على حمايتهم ، وأكرموا ضيافتهم واشترى الزبير ثمانى أبقار فبناها وأرسلها قطعاً في القارب الى بقية الرماق في المركبين وبعد أن أكلوا منها واستعادوا نشاطهم لحقوا بزملائهم في الجزيرة (٢٦) .

ذهب الزبير بعد ذلك لمقابلة الملك كريم ، ولما امثل بين يديه حياه فرد عليه التحية ثم أخذ يسأله عن أمره والسبب الذي أتى به الى هذه الجزيرة ، فأجابه على جميع أسئلته . وسرعان ما إنتشر خبر تواجدهم في الجزيرة الى جميع الاهلين ، وأخذ كبار القوم وزعمائهم ينفذون الى الملك أفواجا مطالبين بقتل الزبير والاستيلاء على أمواله ، فأذن لهم الملك في ذلك بعد تردد طويل . على أن يتم ذلك بعد خروجهم من داره ، وكان قد لفت نظرهم البضائع والأموال الكثيرة التي كانت تفص بها مراكبهم . غير أن الزبير وصحبه علموا بما كانوا يدبرون . ومن ثم اتخفوا حذرهم من ذلك وابتغوا يحرسون أنفسهم بالتناوب . وحين جاءت نوبة الزبير في الجميع الأول من الليل . شاهدا أسدا مقبلا من بعيد فرماه برصاص بندقيته ، فأراداه قتيلا ، ولما رأى الملك والسكان الأسد مقتولا فرحوا بذلك فرحا شديدا لأن ذلك الأسد كان مسلما عليهم يفرس كل من يصادفه منهم حتى لم يعد يجسر أحد على الخروج من بيته ليلا ، أما الملك بكريم فقد عظم سروره من قتل الزبير للأسد ، حتى أنه عقد له على أجسدى بناته ورغبه في الانسلاية معه في

جزيرته . فاقام عنده شهرا كاملا حتى اشترى جميع ما يلزمه من
اللون ثم احتال على الملك وخرج من جزيرته بالركبين بهما شطر
الخرطوم من جديد .

ولم تلبث الاقذار ان بدأت تلعب بحياة الزبير ومن معه مرة
أخرى ، فما كادوا يغيثون عن الجزيرة حتى ضلوا الطريق مرة
أخرى في نفس البحيرة المتسعة وتوالت الكوارث على الزبير ومن
معه ، وقد ظلوا ثلثين حتى نفذ زادهم وطعامهم ، وتوالى بعد
ذلك سقوط رجالهم ضرمى الواحد تلو الآخر بسبب الجوع والانهك
والضعف الشديد الذى اتضح على وجوه الجميع عدا ستة من
الرجال الذين اراد الله لهم النجاة مع الزبير وأبو عمورى ، فقد
شاهدوا مركبا على بعد فاطلقوا عليها عيارا ناريا قصد الاشارة
الى مكانهم لانقاذهم ، ولم يمس الا القليل من الوقت حتى اقتربت
منهم تلك المركبة وبها عبد الرحمن أبو ترون من تجار بحر الغزال .
الذى قدم لهم ما يلزمهم من الزاد والكسوة وقد كانوا على بعد
خمسة ايام من مشرع الرق ، فساروا مبحرين اليه حتى وصلوه
فى الثانى من صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع عشر من يوليو
سنة ١٨٦٢ م فاجتمع الناس حولهم يهنئونهم بسلامة العودة ويعزونهم
فيما فقدوه من رجال ومناخ . ومن مشرع الرق ألتفت المراكب
المقلة لهم الى الخرطوم مرة ثانية . فوصلوها فى السابع والعشرين
من ربيع الاول من نفس السنة الموافق الحادى عشر من سبتمبر
سنة ١٨٦٣ م وهناك مكثوا فى الخرطوم بضعة اشهر فباعوا فى
خلالها تجارتهم ، واشتروا بثمنها تجارة اخرى مما يروج فى تلك
البلاد وما يلزمهم من أسلحة وذخائر ورجال (٢٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام ثمانية (١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣ م) :

وفي ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع والعشرين من ابريل سنة ١٨٦٤ م غادر الزبير الخرطوم في طريقه الى بلاد النيام نيام ، فوصل بعد مسيرة ستة عشر يوما في ٢٠ صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق ٢٥ يولية ١٨٦٤ م الى قرية تقع على الطريق تسمى قرية شول (٢٨) ، وفي هذه القرية التقى الزبير بسيدة اوروبية مساوية او فرنسية ، لا تعرف على وجه التحديد جنسيتها ، وقد كانت ثائرة ، مغبة الحديث ، فالتقت الرءاء وتدعى بين الاهالى هناك باسم السنيورة (٢٩) .

وتد وقع الزبير عليها في هذه القرية وهي قائمة امام بيتها الكبير تلمح بعض الطيور لتتزع ريشها الامر الذي تعجب له الزبير كثيرا ، وكان يقيم في هذه القرية وتحت اُمرتها مائة وخمسون من الجنود المسلحين بالبنادق . فلم يلبث الزبير ومن معه من اصحابه ان وافقوا على سيد اثني عشر فيلا . اقتنعوا هذه السيدة ببائنة هذا الحاج كله بأسلحة رجالها .

اتقام الزبير ومن معه في هذه القرية اياما اخرى وقصدت السيدة الزبير في ان يصطاد لها خريتنا ، فلم يتردد نورانجره مرافق الزبير في هذا الطلب واصطاد لها واحدا بالفعل ، فقد كان رجالها لا يجيدون الرماية واقل مهارة في التصويب نحو الهدف ، وحدث اثناء اقامتهم هناك ان توغيت واحدة من خدمها وكلب لها فأمرت ان يحملها في تابوتين الى الخرطوم ، ثم لم تلبث هي بعد ذلك ان شحت رجالها عائدة بدورها الى الخرطوم (٣٠) .

وفي ٢٠ صفر سنة ١٢٨١ هـ الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤ م وصل الزبير الى بلاد النيام نيام وتقدم للسسلطان تكية الذي

رحب كثيرا بعودته هو وزوجته الى بلاده ، مجموعة من الهدايا الفاخرة كان من بينها سلطانية شربة موشاة بالذهب سر بها سرورا بالغا . حرص بعد ذلك أن يضمها فوق رأسه في المناسبات الهامة كأنها تاج ثمين واحتفالا بعودة الزبير أولم السلطان له وليمة فاخرة لم يكف طوال الولاية عن الفرح به ومن معه ومن ابداء اعجابه وزهوه بالتاج الجديد .

عاد الزبير بعد ذلك الى دار زوجته رانبوه وبدأ في الانجرار ، وكانت العادة قد جرت في تلك البلاد في أن يعرضوا للبيع في الأسواق اصحاب الجنائيات كاللصوص والزناة . حيث يذهبون كالنعاج ، وتباع لحومهم طعاما لمن يشتري . ولما بدأ الزبير يحس بحاجة لجمع عدد من الرجال حوله لتحقيق ما يجيش بصدوره من آمال . رأى أن ينتهز هذه الفرصة ويفتدي من الذبح من يراه أهلا لحمل السلاح من بين هؤلاء المذنبين ، ففعل حتى اجتمع عنده خمسمائة رجل انتقدهم من المصير الرهيب الذي كان ينتظرهم . ثم سلحهم بالأسلحة . بعد أن دربهم على استعمالها ، فكان هذا بداية لعهد من القتل والصعاب التي اكتوى بها . الزبير في بلاد النيام نيام .

ساء الملك تكة ان تنمو قوة الزبير الى هذا الحد وأوجس خيرا من نواياه ، وهو يراه يصنع جيشا مسلحا لحسابه قد يكون خطرا على مملكته ، فاستشار كهنته الذين اثاروا عليه بقتل الزبير . غير أن ابنته رانبوه أخبرت بذلك زوجها سرا ونصحته بالرحيل عن بلاد ابيها ، ولكن الزبير لم يكن لميل الى الرحيل ، ومن ثم نشط لعلاج الموقف بطريقة أخرى ، وهي التزلف الى الملك تكة بالهدايا الثمينة ، ولكن الموتف بعد ذلك لم يتغير . بالرغم من كل ما قدمه الزبير من هدايا . ولم يلبث أن وجد نفسه فعلا مضطرا الى الرحيل عن هذه البلاد التي لم يعد له فيها أعانة أو تجارة .

وقرر الزبير الرحيل فطلب من الملك ان يأذن له بالرحيل الى بلاد الملك دوية زاعما له انه قد بلغه كثرة الحاج في هذه البلاد ، ورغبته في ان يذهب اليها برجاله لجمع ما يمكن جمعه منه . لكن تكمه لم يكن ساذجا الى الحد الذي يسمح للزبير فيه بالخروج من بلاده ، مصطحبا معه هذا الجيش الجديد . فقد كان همه ان يجرده من هذا الجيش فسمح له فقط ان يذهب وحده وان يترك الرجال من ورائه حتى يعود ، ولكن على الرغم من ذلك لم يياسر الزبير وقرر التحايل عليه ، فزعم له ان بلاد الملك دويه غير مأمونة الجانب ويسببونها الظلم والفوضى وأنه يخاف من ان يراه اهلها ضميما فيقتلوه .

ونظرا لاصرار الزبير على السفر هو ورجاله تظاهر الملك بالموافقة ، واوعز الى جيشه ان يكن سرا في الطريق ويقتلوه هو ورجاله ، وما كاد الزبير يغادر البلاد حتى وجد كميناً من رجال تكمه يتربصون به في الطريق ، ولكنه كان مستعدا لهذه المعركة الفادرة ، فاطلق على رجال الملك تكمه نيرانا حامية لم يطيقوها ، فانهزموا امامه سريعا وهكذا فتح الطريق امام الزبير الى بلاد الملك دوية فمضى اليها هو ورجاله (٣١) .

الزبير في بلاد الملك دوية (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م) :

بعد ان انتهى الزبير من معركته مع جيش السلطان تكمه سار ومن معه الى بلاد الملك دوية . وكان هذا الأخير عدوا للملك تكمه ، فلما علم بما حدث بينه وبين الزبير خرج للالتقاء وتحيته على مسيرة أربع ساعات من عاصمته ، وانزله الى جواره ، وبقي له حملا منيعا من الخشب ، وامده بالحبوب والمؤن ما يكفي رجاله لمدة طويلة .

أما الملك تكه فلم يلبث أن أرسل جيشا جرارا بقيادة عمه مريوه (٢٢) اتساع الرعب والذعر في بلاد دوية ، فهب الأخير لملاقاته والاستعداد للمعركة الفاصلة غير أن الخوف والقلق لم يلبثا أن استوليا عليه فقبل أن تبدأ المعركة فر هو ورجاله خلسة مضطرين تحت جناح الظلام ، وترك الزبير وحيدا ، فلم أصبح الصباح تكشف له حرج موقعه الذي نجم عن هذا المأزق . غير أن القدر شاء ألا يتخلى عنه في تلك اللحظة ، قد ساق له النجاة في الساعات الأخيرة ، على صورة لم يتوقعها أبدا إذ وفد عليه من الملك تكه وفد نقل له رسالة يبلغه فيها : « أن حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنه يرغب اليك أن تخرج من جميع بلاد الملك دوية التي أصبحت تحت سسلطانه ، وتذهب الى حيث تشاء ولك الأمان » فاجابهم الزبير الى ذلك ولم يتردد الزبير في قبول هذا العرض ولعلما جمع رجاله وخرج من بلاد الملك دوية قاصدا بلادا جديدة هي بلاد قولو — Golo حيث يقوم الملك عدوه شكو بدخلها في أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م (٣٣) .

وهكذا لعبت حرمة المصاهرة دورا مهما في منع السلطان تكه من قتال الزبير كما أن الجبن والخوف منعا الملك دوية من قتال الملك تكه .

« الزبير وعدوه شكو وابنه شيجا » (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م) :

ومرة أخرى نجد الزبير في بلاد قولو — Golo ففي المرة الأولى كان قد مر بها وهو في طريقه الى بلاد النيام فيلم بقصد التجارة ، أما هذه المرة فقد دخلها هربا من أن يبطش به السلطان تكه .

على أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م دخل الزبير بلاد تولو وكان ملكها عدوه شكوى قد سبق أن قدر بمنصور أحد أخوة الزبير وقتله هو ورفاقه الذى كان الزبير قد أرسلهم معه للتجار فى بلاده كما أنه استولى على جميع أموالهم ، فكان طبيعيا أن يظن أن الزبير قد جاء للأخذ بثأر أخيه ، والا يسبح له بدخول بلاده ، وبعثنا حاول الزبير أن يتوعد إليه بالهدايا مؤكدا له أن لا قصد له من اللجوء الى بلاده سوى التجارة ، الا أنه أصر على أن يغادرها ، وهدده بالحرب ان لم يفعل .

كان الاتصال عندئذ شتاء ، والمياه تغمر البلاد وهناك استحالة فى الرحيل من بلد لآخر . فسأله الزبير أن يمهله الى أن ينقطع المطر وتفتح الطرق فرفض ، ومن ثم أخذ الزبير فى الاستعداد لحربه ، فقام ببناء قلعة حصينة على مساحة واسعة تقترب من ثلاثة أفدنة ، واحاطها بسياج من الأشجار المتشابكة التى قصد أن تكون من الضخامة والقوة بحيث لا يؤثر فيها إطلاق الرصاص ، واستغرق ذلك ثلاثة أيام ولم يلبث عدوه شكوى أن أرسل من يستفسر عن سبب انشاء الزبير لهذه التحصينات وهل هى موجهة ضده أم لا ؟ فأجابه الزبير بأن هذه القلعة قد بناها بقصد الحماية من الحيوانات الضارية التى تحوم حولهم ، فبر أن هذا الرد لم يقتنع به عدوه شكوى ، فأرسل مرة أخرى الى الزبير يأمره بالرحيل عن بلاده ، فرفض الزبير ذلك فى حزم .

وبدا الملك فى جمع رجاله استعدادا للحرب . وقد رأى قبل أن يبدأ الهجوم أن يستعمل معهم طريق الحيلة والخديعة ، فأرسل الى الزبير وصاحبه ذات صباح خمسمائة من خدمه يحملون له زناجا مليئة بالخمر عبارة على الاحتفاء بهم راجيا أن يقبلوا

عملاً بأصول الفسياسة العربية . غير أن الزبير رفض كل هذا وأدرك ما يريد هذا الملك من وراء هذه الهدية (٣٤) .

وعلى الفور أرسل الزبير إلى يونس سفيره لدى الملك عدوه شكو يستعجله في الرجوع إليه ، وفعلًا عاد يونس هذا الرجال الأربعة الذين كانوا معه ، لقد قتلوا بيد رجال عدوه شكو . وبدأ الزبير في الهجوم على قوات عدوه شكو واستمر القتال لبضعة أيام انتهت بانتصار الزبير ومصرع عدوه شكو نفسه .

غير أن ابنه شيجا أخذ مكانه وواصل القتال فلم يلبث بعد معارك قصيرة متتالية أن أثر الفرار والتجأ إلى جبل «سيراجو» (٣٥) على مدى تسعة أيام متتالية قام الزبير فيها بمهاجمة مواقع شيجا في هذا التل الحصين هجوماً شديداً واستمر القتال بين الجانبين إلى أن جرح ساق الزبير جرحاً بليغاً في المرة الثالثة ، فاضطر إلى تأجيل الهجوم حتى يشفى من أصابته . وفي تلك الفترة هب أحد رؤساء القبائل المجاورة إلى معاونة الزبير وإرشاده إلى المسالك الخفية في الجبل التي يستطيع عن طريقها تطويق قوات شيجا والانتصار عليه فتبعه هو ورفاقه لمدة ساعة ونصف في مسالك الجبل إلى أن وصلوا منطقة تكثر فيها الصخور الضخمة الناشئة التي حاولوا أن يتسلقوها ففشلوا في ذلك مرتين وكانت هناك صخرة ضخمة عالية توجه إليها الزبير ومعه خمسة عشر رجلاً وبدأوا في الصعود مع خمسة من الرجال بينما ترك الباقين أسفل التل . وبعد أن أوصاهم أن يبدأوا هجومهم في الصباح بمجرد أن يطلق النار ، وصل الزبير ومن معه إلى قمة الصخرة مع أول خيوط الصباح ، وسرعان ما بدأت المعركة وهاجم رجال الزبير قوات شيجا من كل مكان ، وأخذت النيران تنصب عليهم من كل صوب فتولاهم الذعر والاضطراب ، فولوا الأدبار ، وتم للزبير النصر عليهم في هذه المعركة (٣٦) .

وبهذا الانتصار دان له حكم هذه البلاد وجميع البلاد المجاورة حتى بحر العرب ، واتخذ بليه التي عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزبير » (٣٧) عاصمة له وبهذا أصبح ملكا ، وبدأ الناس يجتمعون حوله ويفدون عليه من جميع الجهات للانضمام في خدمته . فجلب للأسلحة وجمع جيشا قويا ومضى يحكم البلاد طبقا لأحكام الدين الاسلامي . وبذلك بدأ العبران يغزو هذه المناطق حاملا معه للأمان والأمن والرفاهية والسلام (٣٨) .

تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكمه :

بعد أن تم النصر للزبير رحمة على محمد البلالى (٣٩) في ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ الموافق إبريل سنة ١٨٧١ م وتمكن من يسيطر نفوذه على بحر الغزال وما جاورها ، وتكوينه مملكة عظيمة وجيشا قويا ، لم يرق هذا الانتصار وهذا الملك للسلطان تكمه ، وفي ذلك الوقت كانت شهرة الزبير كتاجر تفوق شهرة التجار الآخرين ، وقد اكتسب صداقة الزعماء وأهالي البلاد وكانت مصاهرته لهذا السلطان سببا في علو نجمه وسبو مقامه (٤٠) ولذلك أعلن السلطان تكمة الحرب على الزبير . وكانت رانبوه مازالت في عصمة الزبير يرسل لها والدها كل عام هدية من الحاج تبلغ الخمسين قنطارا الى جوار مائتي رزق من العسل ومائة أردب من السمسم ، فلما اشتهر ملك الزبير الى جواره بدأ يمتنع عن إرسال الهدايا الى ابنته ، ومناصبه الزبير العداء .

في أوائل سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م سير جيشا لحاربه بقيادة عمه ماريوه الذي قام بالاعارة على أطراف مملكة الزبير ، غير أن الزبير لم يتحرك لقتاله الا بعد أن تأكد له أنه يريد الاستيلاء على مملكته ويجعله يعود تاجرا كما كان . كان هذا بعد

أن يجادل الاثنان الرسل الذين أخبرهم السلطان تكمة أن الزبير يذهب ومن معه من حيث أتوا غير أن الزبير قال لهم « اذهبوا الى ملككم هذا وبلغوه باننى ما كنت لانتازل عن ملك أسسنته بسيفى لمجرد تهديد أو وعيد ، فلن كان يستصغرنى الى هذا الحد فليجرب معى قوته التى أن كان قد استطاع أن يقتصر بها على حفنة من المتوحشين وأن يلقى فى قلوبهم الرعب فانه لن يستطيع أن يفعل بقوته شيئا أمام اثنتى عشر ألفا من جنود جيش المتشوقين للقتال » (٤١) .

وهكذا بدأت الحرب بينه وبين السلطان تكمة . ولم تنته سريعا كما قرر هو بل استغرقت ثلاثة عشر شهرا بأكلها فعلى الرغم من أن اسلحة رجال تكمة لم تعد السهام والنسيوف . فانهم كانوا يتبعون فى نقل أخبارهم من قرية الى قرية طريقة الاشارة التى أرهقت قوات الزبير طويلا . وكانت طريقتهم فى هذا أن يقبض الرجال منهم فى محطات تبعد بعضها عن البعض مسيرة ساعة ونصف فإذا ما رأى الرجل منهم فى واحدة من هذه المحطات قوات الزبير! وهى تشروع فى الزحف بأجر بقرع اداة خاصة تسمى للرونج (٤٢) ، فتطلق المحطة التالية هذه الاشارة وتقوم بدورها بترحيلها الى المحطة التى تليها ، وهكذا حتى تصل الى القرية المقصودة بالهجوم ، فيتم بذلك انذارها قبل وصول القوات بوقت طويل .

واستطاع الزبير فى نهاية الامر أن يخوض مع العدو بالرغم من نظام الاشارات هذا عدة معارك حاسمة انتهت بمقتل السلطان تكمة وعنه ماريوه ، ودان له ثمانية من كبار ملوك ألتيام نيام الذين كانوا فى حروب مستمرة بعضهم ضد البعض فلما تولى أمرهم الزبير ألف بينهم ، ومسط الأمن بين ربوعهم ، فصاروا يتعاملون فيما بينهم بالبيع والشراء والمصاهرة وسسج من بجوارهم من

أسود بأخبار مدل الزبير ، وما نال الذين دخلوا تحت طامته من
راحة والأمن وسعة العيش ، فاقبلوا عليه مقدمين غرض الطاعة
ورغبتهم في أن ينصب عليهم الزبير حكاما من قبله فاجابهم الى
لك واتسع نطاق ملكه اتساعا عظيما .

وعلى الرغم من ظروف الحروب التي خاضها مع العديد من
سلاطين وملوك الجنوب ، فانه لم يهمل امر تجارته بل على
عكس من ذلك تابعها في توسيع كبير حتى انه قام برحلة طويلة
الى الجنوب والغرب من ديم الزبير استغرقت ثلاثة عشر شهرا
حفا عن العاج في تلك المناطق ، وفي هذه الرحلة وصل الى ارض
يكي تيكي وهي على مسيرة تسعة ايام الى الغرب من اقليم
ونياتو وكان يقطنها قوم من الاقزام ذوي الاجسام الغليظة واللحم
لمسترسلة ، وكانوا يقصونها بطريقة معينة حتى لا تصل الى
الارض ، وكانت جماعة الزبير في هذه الرحلة تتكون من خمسة
يسبعين رجلا وكانوا يقايضون بالخرز كل ما يلزمهم من الاقوات
يسن الفيل . وقد وصلوا في احدى جولاتهم في تلك المناطق
الى اقليم يسمى ابو دنجا (٤٣) ويقطنه هو الآخر قوم من الاقزام
يزرعون الخرز في الارض على انه حب من الحبوب ينبت بالزراعة ،
علمهم الزبير واتباعه كيف يستخدمونه ، وكانوا يحنون بالاسلام
يخرسون على الصلاة وختان الصبية (٤٤) .

واذا القينا نظرة على حياة الزبير في هذه المرحلة نجده
قد اقلت به ظروف حياته في هذه الرحلة من عمره الى ميادين
القتال والحروب فعاش فيها باجساد واثقالاتها . ويتلخص
التغيير الذي حدث في حياة الزبير في تلك الفترة في التوسعات
الاقمية :

أولاً : حقيقة يجب أن يذكرها التاريخ والمهتمون به هي أن الزبير كان ضمن أوائل التجار المغاربة الذين طرقت أبواب الجنوب وسعوا إليه مع بداية ازدهار وتجارة العاج ، وغيرها من حاصلاته طلباً للثروة والسلطان ولم يكن لأى فرد أن يقوم بذلك إلا من توافرت لديه القوة والشجاعة . لأن ما عرف من هذه البلاد بما تضمنه من قبائل هجيرة اختص بعضها بعادات دينية منها الجنوح إلى النهبية كانت بمثابة العائق المبط لهم الكثيرين والتخلى عما يرأوذهم من أنكار وذلك لعدم توافر الشجاعة والجرأة لديهم . علاوة على الكثير من المساحات الشاسعة التى تكسوها الغابات والأحراش من الأجرأش الموحشة ، وما تضمنه هذه الغابات والأحراش من مخاطر وأحوال يحسب لها الإنسان ألف حساب ، وقد كانت هذه الصفات متوافرة لدى الزبير بدرجة كبيرة .

ثانياً : ان من ينظر إلى الجنوب بقبائله وأحراشيه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفرداً خشية الوقوع ضحية الأخطار التى تكن فى تلك الأصقاع لذلك اصطحب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديد من الأتباع السود الذين استأجروهم أو اشتروهم بغرض الحماية لأنفسهم من مخاطر الطرق ، وليكونوا لهم عوناً فى نقل ما يحملونه من بضائع ، وليتخذوا منهم مرشدين وإدلاء فى رحلاتهم عبر هذه المناطق ، هكذا كان الهدف من شرائهم أو استئجارهم . ولم يكن قصد جميع التجار استئصالهم كما كان يعتقد . وهذا هو الذى فعله الزبير حينما قصد الجنوب مع رهط من هؤلاء فكانوا له خير عون ، وكان لهم نعم الأخ والصديق . لذا يجب أن ننسى بشدة ما التصق به من تهمة الاتجار فى الرقيق . لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وريش النعام وغيره كان متسعاً لأن يتجر فيه أى إنسان دون أن

يمير انتباهها لسلعة أخرى كالرقيق مثلا . وان وجد هناك من التجار من كان يتجر في الرقيق بالبيع والشراء .

ثالثا : ان من يعرف الاصلا بـ العربية العريقة التي اخبر منها الزبير يتأكد له مدى جرم هؤلاء القوم على احترام النيس البشرية . وهذا يدعنا للقول بأن القصد الذي إنتهى اليه مؤرخو الغرب من أن رحلات الزبير الى الجنوب كان القصد منها الاتجار في الرقيق (٤٥) ينتفى تماما أمام هذه الحقيقة التاريخية . لذلك فإن ما اشتراه الزبير من رجال سود أثناء اقامته ببلاد السلطان تكمه كان معظمهم من المجرمين والمنبوذين من المجتمع ، الذين كانوا ينظرهم القتل عقابا لما اقترفوا من جرائم ثم اتهم لحوم اجسادهم ، فكان القصد من شرائهم هو انتقاذ حياتهم أولا ، وفتح سبيل العيش الكريم لهم . ولأن معظمهم من أشداء القوم وأصلبهم عودا فكان أن اشتراهم الزبير لكي يكون منهم جيشا مسلحا بالبنادق يستطيع حمايته وحماية تجارته من بطش سلاطين الجنوب ، الذين ما برحوا يضطرون الخناق عليه في كل مكان غيه أمثال السلطان تكمه وعدوه شكو . وابنه شيجا ، وغيرهم ممن لم ينكرهم التاريخ .

رابعا : كان لطبيعة الزبير السحة وما اتصف به من كرم ورجاحة في العقل أثره في طبع معاملاته وتصرفاته وسلوكه مع سلاطين هذه البلاد بالطبع المحمود الذي أدى به في النهاية الى اكتساب صداقة هؤلاء الزعماء في سهولة ويسر وادت أيضا الى أن يعرض هؤلاء السلاطين على الزبير شرف تزويجه من بنتهم وانتسابهم اليه ، فقد رأيناه قد تزوج رانبوه ابنة السلطان تكمه وابنة الملك كريم . وبهذه الرابطة رابطة النسب وصلت الدم استطاع أن يكسب تأييد وصداقة هؤلاء الملوك والسلاطين ، فقد

منعت حرمة المصاهرة السلطان تكبه من قتال الزبير في المرة الأولى .

غامسا : لم يقصد الزبير عندها دخول بلاد الملك عدوه شكيم الانتقام لما حدث لأخيه ومن معه على يد هذا السلطان ، بل كان قصده التجارة ، ولكن أصرار عدوه شكيم على ضرورة مغادرة الزبير لبلاده — في وقت كانت فيه الأمطار تهطل فيه بغزارة والطرق كلها مغلقة — مما أرغم الزبير على هربه انقاذاً لنفسه ومن معه والاستيلاء على بلاد . بل كان هذا سبباً في تكوينه لمملكة عظيمة في تلك المناطق مع جيش قوى وتجارة ناجحة رابحة .

هوامش الفصل الأول

Shukry M.F. The Khedive Ismail and slavery (١)
in the Sudan (1869 — 1879) PP. 104, 147.

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير يأتنا رجل السودان ص ١٦ .

Jackson, H.C. : The black ivory and white (٣)
PP. 5 — 6.

(٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ .

(٥) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٧ — ١٨ .

(٦) الجانكاه Janket ويسكنها قبائل الجاتى وهم فرع عظيم من الدنكا
وأكثر قبائل بحر الغزال وأقدم بأسا وأطولهم قامة وسكانهم السهول الواسعة
الشمالية .

(٧) الجور : ويلادهم بين الدنكا والبنزو وهم يرجعون من أنسابهم الى الشك
ويكلمون لغتهم ولا يمتنون باقتناء الإبل كغيرهم من السود بل يهتمون بالزراعة
ويقتلون بالعديد ولهم معرفة بحفر الخشب وحمل التابل .

(٨) الزريبة : هي نفاه مسور به يسكن يودع فيها التجار السلع والأمتعة
والخيول والماشية الخلسة بهم .

(٩) سن النيل : وأكثر وروده من بحر الغزال وخط الاستواء وهي تغطي
فى الجودة بحسب كبره وسلاحته من التشقق ومن الأثنى أطرى وأجود من سن
الذكر .

(١٠) ريش النعام : وأكثره من أواسط السودان وأجود أنواعه الريش
الأبيض ثم الأسود وكلاهما ريش الذكر ثم الزيدة ولونه رمادى وهو ريش الانثى .

(١١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٨ — ١٩ .

(١٢) نعم فقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٢

ص ٦١ — ٦٢ .

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 9 — 12. (١٣) (Golo)

(١٤) الثول : وهم من غرب قبائل البنو ويشبونهم في هوانهم وأغلامهم ومسلاتهم .

(١٥) أم الصواف : وهي النسبة التي يطلقها سكان هذه المناطق على أشجار الغاب التي تنمو على سفك بحر الغزال وبحر العرب وكان يحدث فتح الرياح التي تصاحب موسم الأمطار هناك هذه الأشجار وتلقيها في النهر فتغلب مع مياهه إلى أن تصل إلى لحد منه رجانه التي تنمو فتعطيها غطف وسرعان ما تمتد جذورها إلى أسفل حتى تلتصق بقاع النهر وهكذا تثبت في مجرى وتقوم بدورها أغصان الأشجار والأغصان الطافية في المياه فتجميع هذه من حولها ويكون من الجبيع سد عريض قد يستد في النهر لعدة أميال طويلة .

(١٦) البنو Bongo ويسكنون السهول المرتفعة جنوبهم وهم أرقى قبائل بحر الغزال بل هم في رأي كونفورت الألماني أرقى عقلا من سائر قبائل السود ، ويتأخرون عنهم بالوداعة ولين الجانب وحب العمل والفرق بينهم وبين جيرانهم الدنكا في اللون خمسة الفرق بين تربة القبيلة الواحدة وتربة الأخرى تربة البنو حراء فاتية فيها من الحديد وتربة الدنكا سوداء إذ لا حديد فيها . ولذلك ترى لون الدنكا أسود حالكا ولون البنو أحمر فاتيا وهم يستخرجون الحديد ويشغفون به

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 12 — 14. (١٧)

(١٧) م . م . من جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) غردون باشا

من ٦٥ — ٦٦ .

Jackson, H.C. Op. Cit., P. 14. (١٨)

(١٩) محمد موسى محمد (دكتور) : الشعوب والسلالات الإفريقية من

١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٢ .

(٢٠) إبراهيم توري : السودان بين يدي جوردون وكشنر ج ١ من ٢٢ .

(٢١) نورانجره Nur Angra شيز بطول الغابة والسواد الذي يشرب إلى اللون الأسود النحاسي وعلى خفيه ثلاثة قطوع بلولية ، ويبرز بنظرة حادة سارمة تلم من كثرة ونشاط ولكنه عندما يتحدث يبدو كأنه إنسان مسالم طيب . وهو دنقلوي كان قد أحضر بواسطة ملك الشليقة الذي كان يعمل كسنيق ، ويذكر فورانجره أنه ينحدر من سلالة ملوك الشليقة عندما تمهتسروة وهو طفل إلى القاهرة . وقد حصل على كثير من السممة والتوصية الطيبة من الحكومة بسبب إفضله وإتقانه بكل من الزبير رحمه وأبنته من بعده .

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 14 — 17; (٢٢)

(٢٣) نهر البنق : واحد فروع بحر الخزال .

(٢٤) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢ — ٦٤ .

(٢٥) النورابين : وهم يسكنون بين بحر مست وبحر الخزال وفي بلادهم يتسع النيل وتكثر المبدود والمستنقعات حتى أن بعضهم يسكنون الجزر فيحشون على الأسماك والنباتات والطيور المائية .

(٢٦) نعوم شقير : نفس المرجع ج ٢ ص ٦٤ .

(٢٧) نعوم شقير : نفس المرجع ج ٢ ص ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢٨) شول : كانت امرأة من اقرباء قبيلة دنكاوية تسمى دنكا ومزال الاعلى حتى اليوم يحتفلون من قوتها وبطشها بل عن بشاعة خلقها أيضا .

(٢٩) السنيورة ، وهي الترجمة للكلمة الانجليزية — *Senora* ومعناها سيدة ويقابلها في اللغة الإيطالية كلمة — *Signora* ومعناها أيضا السيدة .

(٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٣١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٣٧ — ٣٩ .

(٣٢) اوسبويه كما ورد في كتاب نعوم شقير ص ٦٦ سطر رقم ٥ .

(٣٣) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٦ .

(٣٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٠ — ٤١ .

(٣٥) سيراو : وهو تل طويل يبلغ عرضه حوالي الميل ويتكون من صفور حادة نغمة تغلفها هنا وهناك مناطق من الأرض الخصبة التي تتجمع فيها الاهالي ليقوموا بالزراعة حول مياه النيلابيع المتفجرة التي كانوا يسيرون منها ويمسسون أرضهم .

(٣٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤١ — ٤٢ .

(٣٧) ديم الزبير : وقد عرفت باسم بله ابا كلمة ديم — *Duehn* نجتمعها للمنفرد دوهم — *Dehm* وهي كلمة يطلقها الخرطوميون على اسواق تجارة العبيد والساج الكبيرة التي يعيونها في الغرب . وهي تعني الزريبة ابا ديم الزبير فهي العاصمة التي انقضا ملكه وبنى لنفسه فيها زريبة تقع على ارتفاع ٢٢٨٣ قدما فوق سطح البحر او على ارتفاع ٤٦٤ قدما من زريبة بلسيلي وفطاس و ٧٣٧ قدما من ارتفاع المستعملة الرئيسية لفطاس *Ghatas* وهي اعظم ضياع او مقاطعت لجبل الرابي . وقد عرفت احيانا باسم ديم سليمان وهي مقسمة الى ثمانية اقسام كل قسم منها يرأسه ناظر .

- (٣٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤٣ .
- (٣٩) انظر تفاصيل موضوع حملة محمد البلالى الفصل الثانى .
- (٤٠) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٢ .
- (٤١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٣ - ٦٤ .
- (٤٢) الروثجا : عبارة عن قطعة كبيرة من الخشب المجوف على هيئة البقرة أو الخيل تفرغ بواسطة ثلاث شطب من المطاط ويستطاع بواسطتها أن توجه الى ابعاد شاسعة مخلفة الاشارات كالدعوة للحرب أو الحصاد أو صيد الفيلة وكان لهم فى هذا شفرة خاصة يتفهمها الاحالى فى مختلف قراهم .
- (٤٣) أبو دنجا : وهو اسم يطلق على شعب زنجى مختلف تماما على نمط شعوب الفهم نيام ويجرى بالاتظيم الذى يسكنه هؤلاء القوم نهر يطلق عليه الخرطويون اسم بحر أبودنجا على مسيرة يومين ونصف من داريندا وكان هذا النهر معروفًا جيدا للزبير وجماجمته الذين كانوا يقومون بزيارة سنوية للاتظيم الذى يسكنه هذا الشعب الذى يطلق عليه أبودنجا .
- (٤٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٦٤ - ٦٥ .
- (٤٥) انظر الفصل التالى تفاصيل موضوع تجارة الرقيق .



الفصل الثاني

الدور الذي لعبه الزبير في بحر الفزال
وبلاد شكا

الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وبلاد شكا

لم يقتصر دور الزبير على المشاركة فى الأحداث التى وقعت فى بحر الغزال فقط ، بل تحمل أعباء فتح هذه المديرية وتأمينها من الاخطار التى كانت تحيط بها من كل جانب ، والعمل على مهارتها ونشر العدل والسلام بين ربوعها ، وهو بعمله هذا أضاف الى مصر أراضى جديدة لم تكن لها من قبل .

موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان :

كان الرق موجودا فى السودان قبل فتح محمد على ، وكان السودان يصدر الرق الى مصر وبلاد العرب قبل أن تدخل الجيوش المصرية مملكة سنار ، وكان العمل فى الحقول ورعاية الماشية من عمل الرقيق ، وليس من أعمال السادة العرب ، وكان الرق يمثل نظاما اجتماعيا ، وإذا كان محمد على قد قرع بفتح السودان لتزويد الجيش المصرى بحاجته من المحاربين من السودانيين (١) فإن الحكومة المصرية توقفت بعد ذلك عن إرسال الغزوات الى السودان للحصول على الرقيق بعد ثبوت عدم امكان استخدامهم فى الجيش المصرى ، كما بدأت تغير سياستها ، فالتجته نحو

التوسع بغية محاربة هذه الفجارة ، الا ان هذه السياسة لم
لها انتجاح الكامل وكان ذلك لأسباب كثيرة منها :

أولا : فى الوقت الذى بدأت فيه مصر تنفذ هذه السيا
كانت هناك بعض حكومات فى أوروبا لاتزال تمارس
التجارة (٢) .

ثانيا : ظل عدد كبير من التجار الاوربيين يعارضون
حكوماتهم مدة ليست بالقصيرة على الرغم من وجود الأس
البريطانى فى مياه المحيطين الهندى والاطلنطى لضبط السفن
تحمل الرقيق ، وتقدم هؤلاء التجار الى المحاكمة .

ثالثا : كان الرق فى السودان جزءا من نظام اقتصادى
عليه الحياة الاقتصادية فى هذا الجزء من العالم .

رابعا : بعد مراكز تجارة الرقيق عن حكومة القاهرة
وانعدام المواصلات السريعة مما جعل اشراف القاهرة
سياسة الالفاء وامور الحكم فى السودان يكاد يكون منعذما (٣)

خامسا : استمرار الصيادين فى غزواتهم الموفقة مستخد
الاسلحة النارية وهى اسلحة متاكة ليس فى الامكان مقاومتها
جانب الرقيق ، الذين كانوا يقاومون بعض المقاومة مندما
الصيادون يستخدمون الحراب والسيوف .

لذلك لم يكتب لنجاح لسياسة الحكومة المصرية ، و
الحال على ما هو عليه بل ان الامور اخذت تسير من سيىء
اسوأ ، وفى عهد محمد على أيضا اقترح أحمد باشا المنكلى

مدة نظم لاحتكار تجارة النيل الأبيض بواسطة الحكومة فى مصر ، ولكن محمد على لم يوافق عليها منعا لاحتجاجات الأوروبيين الذين بدأوا يمارسون تجارة العاج والمواد الأخرى المصرح بها ، وفى ظل حكم عباس الأول(٥) انشئت القنصليات الأجنبية وبيع ذلك تعمق التجار الأجانب نحو الجنوب بطريق النيل الأبيض ، وزيادة عددهم ، ونشاطهم الذى امتد الى نهر السوبات ، وبحر الفزال ، وغندكرو . وفى عهد سعيد(٦) التحق فى خدمتهم عدد كبير من السودانيين الفارين من دفع الضرائب الباهظة التى لم يكن فى مقدورهم تحملها ، وخاصة سكان دنقلة . انتهز التجار المصريون الفرصة فبدأوا ينشئون الزرائب ، واستخدموا هذه العناصر الجديدة لحمايتهم وحماية تجارتهم ومحطاتهم وفى البداية كانت التجارة الشرعية فى مواد وحاصلات الجنوب هى المورد الأساسى فى عمليات الكسب ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن اصطيد الرقيق وتصديره للخارج أجدى وأنفع من التجارة المصرح بها ، وتبعاً لذلك أصبح التجار يقومون بغزواتهم بهدف اصطيد الرقيق من الزنوج مستندين فى ذلك الى زرائبهم التى اعتبروها كحصون لهم ، واستعان هؤلاء التجار سواء من العرب أو الأجانب بقبائل موالية للاغارة على قبائل أخرى معادية لها ، وأصبحت المراكب تحمل بدلا من العاج الأبيض عاجا أسود الا وهو الرقيق ، ومر الرحالة على هذه الاقاليم ، وهى خالية من سكانها الذين أفقدهم هؤلاء التجار حريتهم وأديبتهم ، وجعلوهم سلعة تباع وتشترى ، وقد وصل هؤلاء التجار الى القمة من حيث الجشع وحب جمع المال وقد ذكر الرحالة والمكتشفون كل ذلك فى مذكراتهم وتقاريرهم التى قدموها لحكوماتهم(٧) .

تولى اسماعيل باشا(٨) حكم مصر ، وحالة تجارة الرقيق كما هى بعد أن فشلت الإجراءات التى اتخذها من سبقوه فى الحكم ، فعزم على المضى قدما فى سياسة الإلغاء . وبدأ بتخذ

من الوسائل ما رآها كفيلا لتنفيذ السياسة وكان للفاعلية والجدية اللذين تميزت بهما جهود اسماعيل باشا ، لتنفيذ ما اعتزم عليه .
الفضل الأول في الحد من هذه التجارة شيئا فشيئا ، بل انها كادت تختفى في بعض المناطق بفضل هذه السياسة ، أما الاجراءات التي اتخذها اسماعيل باشا لتنفيذ سياسته فنتلخص في الآتي :

أولا : فرض موسى حمد باشا (٩) أول حكام دار في عهد اسماعيل باشا . ضريبة سهيت « بالمسوبركو » على كل بحار أو عامل على المراكب التي تسير في النيل الأبيض .

ثانيا : تشديد الرقابة على النيل بالوابورات الحكومية ، حتى لا تهرب المراكب المهربة من أنظار الحكومة .

ثالثا : كان لضرورة السيطرة على المراكب القادمة من بحر الغزال ، وبحر الجبل ، ونهر السواط . انشاء محينة بها حماية قوية في بوتع استراتيجي يكون عند ملتقى هذه الطرق الملاحية الثلاث ، فكان انشاء ناشودة كعامسة لمديرية البحر الأبيض خطوة مهمة .

رابعا : تم حظر ارسال أو توريد كافة أنواع الأسلحة والخناظر الى هذه المناطق حتى لا يقوى أصحاب الزرائب على المقاومة .

خامسا : منع قناصل الدول الأوروبية من اضاء أي نوع من أنواع الحماية على من يسئ استخدامها من التجار .

سادسا : العمل على شراء الزرائب من التجار ، وبلغ ما دفعته الحكومة في عهد جعفر باشا مظهر (١٠) ما يزيد على المائة ألف جنيه ، ولكنها لم تستطع الاستمرار في المحافظة عليها .

سابعاً : السيطرة على المائذ الرئيسية لتصدير تجارة الرقيق
بالحاق ميناءى سواكن ومصوع على البحر الأحمر بإدارة السودان ،
وبذلك أدكن ضبط الرسائل الكبيرة من الرقيق المصدر .

ولم يطق التجار الصبر على هذا الوضع ، بل أخذوا فى
التحايل للهروب من هذه الاجراءات فكان من نتيجة ذلك أن :

أولاً : استمر التجار فى السيطرة على المنابع الرئيسية لهذه
التجارة البشعة التى لم يكن لسلطة الحكومة فيها أى اثر .

ثانياً : بدأ التجار فى مراوغة الدوريات النهرية المسلحة
التى عينتها الحكومة لضبط هؤلاء التجار ورقيقهم . وينزلون
رقيقهم فى أماكن بعيدة من نقط المراقبة ، ويسوتون مسلحتهم
بعدها عبر الجزيرة الى الشرق عن طريق الموانئ الصغيرة التى
لا تخضع لإدارة الحكومة .

رابعاً : التجأ بعض تجار الرقيق الى استخدام الرشوة
لتسهيل أعمالهم ، وخضع لذلك بعض ضعاف النفوس من موظفى
الحكومة بالسودان .

خامساً : أصبح من الصعب على الحكومة فرض سيطرتها
على هذه البقاع الشاسعة التى تضم الغابات والاحراش الكثيفة
والمجارى المائية المتسعة ، يضاف الى ذلك انعدام وسائل الاتصال
والمواصلات بين هذه الأجزاء المتباعدة (١١) .

وعندما عين السير صمويل بيكر — S.S. Barker (١٢) .
حاكماً لأعالى النيل نص فى البند الثانى من عقد استخدامه ، أن
يكون القضاء على تجارة الرقيق من اختصاصه ، واستعمل السير
صمويل بيكر أقصى وسائل العنف ضد تجار الرقيق ، مما أثار
عليه ثائرة الأهالى الذين لهم مصالح فى استمرار هذه التجارة

البغيفيسة ، ولكن ما انتهت فترة عقده مع الحكومة حتى أدى ذلك الى عودة الحال الى أسوأ ما كان عليه ، وفقدت الحكومة معظم نفوذها وسلطانها في تلك الانحاء ، فرأت الحكومة أنه لابد من ايجاد خلف قوى للسير صمويل بيكر يستطيع أن يجد مخرجا لهذه المشكلة المتفاقمة في الشرق ، فكانت أن عينت جوردون — Gordon (١٣) حاكما على مديرية خط الاستواء في فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ جوردون منذ لحظة توليه زمام الأمور في هذه المنطقة في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالقضاء على هذه التجارة فكانت كالآتي :

أولا : ادخال السفن الحكومية الى بحيرتي البرت وفيكتوريا لامكان مقاومة تجارة الرقيق ، وفتح ابواب البلاد للتجارة المصرح بها .

ثانيا : اصدر تعليماته باحتكار تجارة العاج لحساب الحكومة .

ثالثا : حظر السفر الى الجنوب لاي شخص ماعدا من يحمل تصريحاً بذلك .

رابعا : قام بحل الجماعات المسلحة داخل المديرية .

خامسا : قام كذلك بانشاء عدد من النقاط والمحطات العسكرية على طول النيل الأبيض الاملى .

سادسا : أصدرت الحكومة المصرية قرارا في فبراير سنة ١٨٧٢ باحتكارها لكل أنواع التجارة في اقاليم النيل العليا وعادت مشكلة تجارة الرقيق الى ما كانت عليه ، عندما ترك جوردون وظيفته كحاكم لمديرية خط الاستواء وأصاب الجهود المبذولة للقضاء عليها بعض الجهود والفقر ، ماعدا ما قام به الزبير ،

نقد قدم ولاءه للحكومة ، وأمتنع عن ممارسة هذه التجارة واشترك مع اسماعيل بلشا أيوب(١٤) فى فتح سلطنة دارفور باعتبارها مركزا مهما من مراكز تجارة الرقيق(١٥) .

عزم الخديو اسماعيل بلشا على مواصلة جهوده من أجل حسم أمر هذه المشكلة الشائكة بجانب ما ظهر من مشاكل أخرى من السودان فى هذه الآونة ، وذلك انقادا لجهوده السابقة ، وما أنفقته من أموال طائلة فى هذا السبيل ، كما أن تراجعه عن مواصلة هذا السعى كان يعنى تنازله عن جزء كبير من نفوذه ، وكان الخديو مثله فى ذلك كمثل رجل أعمال تعدى نشاطه حدود امكانياته وأصبح مهددا بالانفلاس ، ولكنه يصر على مواصلة نشاطه على أمل أن يواتيه الحظ ، فإذا كانت تجارة الرقيق لم تؤت أى أرباح فلان هناك مصادر طبيعية أخرى يمكن أن تاتى بمائد مثل تجارة العاج ، وعلى الرغم من أن الأنيل كانت تصاد بأعداد هائلة إلا أنه كان لايزال هناك المزيد من الفيلة ، كما أن الطلب شديد على العاج من أجل صناعة كرات البلياردو ، ومفاتيح البيانو ، والتمائل، وكانت تجارة الصمغ العربى ، وريش النعام تدر ربحا وفيرا بالإضافة الى منتجات أخرى عندئذ خيل للخديو اسماعيل أنه لا منقذ للبلاد من هذه المشكلة سوى صديقه جورنون ، فأرسل اليه برقية فى السابع عشر من يناير سنة ١٨٧٧م يستدعيه لهذا الغرض ، ولم يأت عبراير من نفس العام حتى كان جورنون فى القاهرة ، كانت شروطه أن يكون حاكما على السودان كلها . مليون ميل مربع . وأن تكون له الحرية الكاملة فى القضاء على تجارة الرقيق . فوافق الخديو على شروطه فى الحال ، وكتب سير ايفلين بارنج(١٦) S. Evelyn Barin الممثل البريطانى فى القاهرة يقول حتى اذا افترضنا أن الخديو كان مخلصا فى رغبته فى القضاء على تجارة الرقيق واصلاح السودان ، فقد كان من المؤكد أنه لا يستطيع تحقيق

ذلك . وكتب الخديو لجوردون يطلب منه استخدام كل ما منحه من وسائل القوة ، واتخاذ أى إجراء يراه ضروريا ، فكان هذا ما قام به جوردون فعلا فى السودان(١٧) .

وفى للرابع من صفر سنة ١٢٩٤ هـ الموافق الثامن عشر من مبرابر سنة ١٨٧٧ م صدر فرمان بتعيين جوردون حاكما لمصر السودان(١٨) ووصل جوردون الى الخرطوم فى مايو سنة ١٨٧٧ م ، وبدأ يمارس مهام وظيفته الجديدة باتخاذ عدة إجراءات منها :

أولاً : طرد كل من شك فى إخلاصه من موظفى الحكومة بشأن تحرير الرقيق ، واستبدل بهم موظفين أوروبيين(١٩)

ثانياً : استطاع بالتعاون مع رومولوجسى(٢٠) فى مطاردة تجار الرقيق بمنطقة بحر الغزال ، إحد المراكز الرئيسية لهذه التجارة والقاء القبض على ثلاث وستين قافلة وتحرير أكثر من ألفى فرد من الرقيق .

ثالثاً : طرد حوالى أربعمائة وسبعين تاجرا للرقيق فى يوم واحد أثناء زيارته لأحد الأقاليم(٢١) .

وبينما جوردون يجتهد فى علاج مشكلة الرقيق ، كانت المفاوضات ما تزال قائمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية منذ مدة أربع سنوات ، من أجل اتخاذ قرار حاسم للقضاء على هذه التجارة ، وقد انتهت هذه المفاوضات بإبرام معاهدة الفاء الرقيق(٢٢) فى الرابع من أغسطس سنة ١٨٧٧ م(٢٣) .

ورغم كل هذه الجهود والإجراءات التى اتخذت من قبل المسئولين فى كل من القاهرة والخرطوم « للقضاء على مشكلة تجارة الرقيق »، إلا أنها لم تسفر عن نتيجة كاملة للنجاح، بل استمر الكثير من التجار يمارسون هذه التجارة وزاد على ذلك أنهم

كونوا مينا بينهم جماعات مسلحة أشبه بالعمصابات لحماية متاجريهم ،
والضرب بها على الأيدى التى تمس تجارتهم بسوء ، فكان من نتيجة
ذلك أن الحكومة رأت أنه لا حل لهذه المشكلة الا بضم هذه المناطق
واخضاعها بالقوة العسكرية لسيطرة الحكومة ، فكانت بداية ذلك
ضم منطقة بحر الغزال .

التفكير فى ضم بحر الغزال (٢٤) :

أصبح ضم منطقة بحر الغزال أمرا لا مئاض منه ، وخصوصا
عندما فشلت الجهود التى بذلتها الحكومة فى سبيل القضاء على
تجارة الرقيق فى مناطق جنوب السودان ، وخاصة منطقة بحر
الغزال باعتبارها أحد المراكز الرئيسية لهذه التجارة التى يتجمع
فيها كل من التجار والرقيق معا ، وقد ساعد على استفحال أمر
هذه التجارة بعدها من مراكز السلطة الحكومية ، وضعف السيطرة
على طرق تهريب الرقيق منها الى بقية أجزاء السودان وخراجها .

وحى سنة ١٨٦٩ م الموافق سنة ١٢٨٦ هـ لم يكن الحكام
المصريون فى السودان يميلون الى استخدام العنف فى محاربة
تجارة الرقيق الا عند الضرورة القصوى ، وكان ذلك يتم بمنتهى
المهارة والحكمة ، وذلك بدفع التجار بهاجمة بعضهم البعض ،
بحون أدنى تضحية من جانب الحكومة ، مؤكدين فى نفس الوقت
سلطانهم عليهم . ولكن منذ هذه السنة أحس تجار الرقيق فى
بحر الغزال بقوتهم ، فرفعوا فى تحدى الحكومة المصرية ، بالامتناع
عن دفع المبالغ السنوية المقررة عليهم للحكومة . وولوا أمرهم
الى الزبير رحمة ، الذى ذاعت شهرته فى جميع أرجاء السودان ،
وأصبح أكبر شخصية سودانية ظهرت فى القرن التاسع
عشر (٢٥) .

وقد توالى بعد ذلك الاتهامات الموجهة ضد الزبير على اعتبار أنه المحرك لهذا العصيان . وأنه عندما أصبح التجار تحت قيادته رفضوا دفع الضريبة السنوية ، وساد شعور في القاهرة في هذه الآونة بأن جرائم هؤلاء التجار قد استفحل أمرها لدرجة يستحقون معها القصاص . وكان للزبير احترامه وتقديره حين كان في أوج قوته وعلى رأس هذا التحالف الذي يجبر تجار الرقيق ، كان يجب أن يتباهى بهذه البطانة من الإلتباع ، كملك تهرس على السلطة في أقاليم واسعة بفضل جيش قوى . وفي أوائل سنة ١٨٦٩ م كان الزبير بالفعل الحاكم المستقل بأقليم بحر الغزال وقد صمم الخديو اسماعيل على تأكيد حقوقه في تلك الامتاع وتمنع ثورة هؤلاء التجار الذين تمردوا ورفضوا دفع الضرائب (٢٦)

وقد كان لظهور الزبير رحمة . الذي كان معروفاً بالباشا الأسود والملك والسيد لثلاثين محطة تجارية ، والذي عاش في قصر باحدى مقاطعاته عيشة فيها ثراء الملوك مع مدد كبير من الزوجات والمحظيات ، مع قيام ثورة هؤلاء التجار ، من الأسباب القوية التي أدت بالحكومة الى تغيير سياستها تجاه هذه التجارة ، وجعلها تسرع الخطى في ايجاد الوسائل الكفيلة بإظهار سطوتها ونفوذها في تلك المناطق (٢٧) يضاف الى ذلك ما كان ينقله الرحالة والمستكشفون للحكومة من اخبار سيئة عن أحوال اقليم بحر الغزال وما جلورها ، واستفحال أمر هذه التجارة بها ، لذلك صمم الخديو اسماعيل انه لابد من ضم الأراضى التى يتلاعب فيها هؤلاء التجار الى ممتلكاته ضمناً نهائياً ، وإيجاد الحماية الكافية لها ، فكان ان أرسلت الحكومة حملة تحت قيادة محمد البلالى (٢٨) لهذا الغرض (٢٩) .

حملة البسلالي :

بدأ الزبير حياته كمحتسب بسيط ولكن ذكاهه وصفاته الزعامة والقيادة التي امتاز بها على من حوله جعلته يتقدم خطوات في التجارة من ناحية ، والملك والسلطان من ناحية أخرى ، وأصبح له بالتدريج شأن يختلف عما كان عليه أقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجاري والإداري ، وعقد له التجار لواء الزعامة التي وصل إليها باجتهاده وصفاته (٣٠) .

وسرعان ما بدأت صفة الزبير كتاجر تفتنى شيئا فشيئا لتغلى المكائنه لصفته كحاكم لهذا الاقليم يبرم المعاهدات والاتفاقيات وتأتيه الوفود طمعا في عدله وطلبا للأمنينة والسلام الذي اشاعه حكمه في تلك الاقاليم التي اعتادت القسوة والظلم من قبل حكامها ، غير أن الزبير لم يكد يصبح الحاكم الحقيقي لاقليم بحر الغزال (٣١) حتى بعث الخديو بخطاب الى جعفر مظهر باشا حاكم السودان تاريخه الثامن والعشرون من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثاني عشر من ابريل سنة ١٨٦٩ م يطالبه فيه بضم هذا الاقليم ، وكان جعفر باشا مظهر سبق أن اقترح ضمه لحاكم حكومة السودان في خطابه للجناب العالي بتاريخ الخامس عشر من شوال سنة ١٢٨٥ الموافق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٩ م (٣٢) وطبقا لأوامر الخديو وضع الحكمدار الخطة لاختضاع اقليم بحر الغزال لسيطرة الحكومة وكلف بهذا العمل محمد البلالى وتدميما لمركزه عينه الخديو مديرا على هذا الاقليم لتوطيد سلطة الحكومة المصرية به (٣٣) .

تحرك محمد البلالى من الخرطوم في سنة ١٨٦٩ م قاصدا احتلال اقليم بحر الغزال ، وكان الجيش الذي وضعه الحكمدار تحت امرته يتكون من مائة وخمسين نفرا مسلحين من أتباع وأقارب

البلاى نفسه بصفة مسافر ، شاة وعليهم ثلاثة رؤساء بلوكباشية من اقربائه ، وكذا مائتا نفر من جنود البيادة من قبل الحكومة تحت ابرة مامور وضباط وتمعين كجوك على اغا (٣٤) سرريادة لقسم بحر الفزال ، وهذا ما ورد ذكره بالخطاب الذى بعث به الخديو للحكمدار بتاريخ الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثانى عشر من ابريل سنة ١٨٦٩ هـ (٣٥) الا ان سعد الدين يذكر ان هذا الجبرش كان ينكون من مائتين من الجنود السودانيين بقيادة الصماغ محمد اندى منيب وأربعمائة من العسسساكر الباشبوزق (٣٦) بقيادة اليوزباشى كوتشوك على بالاضافة الى ستمائة رجل من الخطرية (٣٧) .

والملاحظ انه لم يات اى ذكر بالوثيقة « لمحمد اندى منيب » والمرجح انه قد تعين بعد ذلك على المائتى جندى السودانيين ، كما لم يذكر بالوثيقة الاربعمائة جندى الباشبوزق الذين تعينوا تحت قيادة اليوزباشى كوتشوك على ولا للمستمائة رجل الخطرية ، والمؤكد ان السلطات التى فوضها الخديو اسماعيل للحكمدار لاتخاذ كافة التدابير اللازمة لنجاح الحملة أدت بالحكمدارية الى اضافة هذه الأعداد من الجنود للحملة وتزويدهم باللازم من السلاح والخفاثر والذين لم يرد ذكرهم بالوثيقة ، وهى التى أدت بالتالى الى هذا الفارق فى العدد والنوعية بين ما ذكرته الوثيقة وما ذكره سعد الدين فى كتابه . ولم تهمل هذه الوثيقة ذكر ما تعين لهؤلاء الجنود من المرتبات والمؤن اللازمة ، وقد سر الخديو اسماعيل من اجراءات التنفيذ هذه ، غير انه حذر حكمدار السودان من التساهل فى قوة هذه الحملة ، حتى تستطيع رد اى هجوم قد يقوم به سلطان دارفور (٣٨) .

أبرق الخديو اسماعيل فى السادس عشر من جمادى الاول سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثالث والعشرين من اغسطس ١٨٦٩ هـ

يستفسر من الحكمدار عما تم بخصوص ارسال القوة العسكرية المعينة لضم اقليم بحر الغزال (٣٩) . ثم بعث ببرقيتين الى حكمدار السودان في ٢٣ جمادى الثاني سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثاني عشر من اكتوبر سنة ١٨٩٦ م يستعجل فيها ارسال الموظفين والجنود والحكام المقرر ارسالهم الى اقليم بحر الغزال (٤٠) كما صدرت ارادة سنية في التاسع والعشرين من جمادى الآخر سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثلاثين من اغسطس سنة ١٨٦٩ م الى حكمدار السودان بعدم التراخي أو الاهمال في تنفيذ الاوامر الخديوية ، وضرورة اعطاء الاوامر والتعليمات للحكام المرسلين الى جهة بحر الغزال لمعاملة الاهالى بالرفق واللين وعدم فرض الضرائب الباهظة التي تثقل كاهل السكان ، والعمل على استمالة السكان وجلب محبتهم نحو الحكومة (٤١) .

وقد تايل محمد البلالى أثناء وجوده في القاهرة الخديوية اسماعيل ، وقدم نفسه على أنه الملك الوحيد لمناجم النحاس الموجودة في جنوب دارفور في المنطقة المعروفة باسم حفرة النحاس (٤٢) ، وأنه قد حصل على تلك الأرض من طريق الهبة من سلطان دارفور ، وزين للحكومة وجوب احتلال اقليم بحر الغزال ووافقت الحكومة المصرية على ذلك الرأي ، ووضعت تحت امرته القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف (٤٣) .

وكانت حملة محمد البلالى اول عتبة حقيقية تواجه الزبير ، كما كانت اول اختبار لدهائه السياسى بعد ان استطاع البلالى تضليل الحكومة المصرية عن حقيقة الموقف في اقليم بحر الغزال ، واقناعها بأن تطلق يده في هذه المناطق ، فكان من الطبيعي أن يصطدم البلالى بقوة الزبير وسلطانه وحقه في البلاد التي فتحها بسيفه (٤٤) .

ولم تلبث الحكومة المصرية أن تبينت أن كل أقوال البلالى لا تعدو أن تكون مجرد ادعاءات كاذبة لرجل مخادع ، فهو لا يمتلك أرضاً فى هذه المنطقة ، كما أن سلطان دارفور لم يهبه أى قطعة من الأرض ، ولقد تسبب البلالى بادعاءاته الكاذبة هذه فى كراهية جميع الأعالى هناك له ، وذلك أنه ألقى الشك فى صحة ملكيتهم للأرض التى بنوا عليها مساكنهم وزرائهم(٤٥) .

وبوصول البلالى أسرع الزبير لاستقباله وتحيته ، فالتقى عند مشرع الرق ، ولم يترح إليه الزبير منذ اللحظة الأولى ، وكان اللقاء بينهما مائتراً مملاً ، وقد استطاع الزبير من خلال الفترة التى قضاها فى معسكره أن يدرك أن العلاقة بين البلالى وعجوك على أفا ليست على مايرام ، وأن الخلاف بينهما قائم ومتجدد على الدوام . ولم يلبث الزبير أن زود محمد البلالى بكل ما يحتاج إليه من الطعام والشراب ، ثم قفل عائداً الى الغرب لى يهد الطريق أمامه ، فغير أن البلالى عاد بعد ذلك فتوقف عند زريبة على أبو عمورى(٤٦) وهناك تولى البيوزباشى كجوك على أفا ، فاستولى على أسلحته وأمواله بمجرد وفاته معلناً بمصادرتها باسم الحكومة(٤٧) .

وفى البرقية التى أرسلها الحكيدار للخديو فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٨٧ هـ الموافق اثنى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٠ م تؤكد أن وفاة كجوك على أفا كانت طبيعية فقد ذكر « سريادة كجوك على أفا الذى . . تولى هناك بأجله الموعود »(٤٨) .

وهذا ينفى ما جاء فى كتاب سعد الدين من أن كجوك على أفا مات مسموماً بيد البلالى ، رغم ما ذكر من أنه كان بينهما

خلال ذات حادة . وقد ساهمت الكراهية التي نشأت بين الاثنين اللذين وجدا للتعاون من أجل نجاح الحملة في غسلها وعدم تحقيقها للأهداف التي أرسلت من أجلها .

أهداف حملة البلالى :

— كانت حملة البلالى تهدف الى :

أولا : القضاء على النفوذ الفعلى لتجار الرقيق بمنطقة بحر الغزال ، وتأكيد سلطة الحكومة المزعومة بها بضم هذه المنطقة الى الممتلكات المصرية ضما نهائيا .

ثانيا : القضاء على الزبير بما له من نفوذ في منطقة بحر الغزال ، ومصادرة أمواله وأملاكه باسم الحكومة التي رأت في وجوده خطرا على مصالحها في هذه المنطقة ، لأنه كان يمثل الزعيم السياسى والإدارى لبقية التجار في هذه المنطقة ، فبخلصها منه يكون من السهل التخلص من بقية التجار الا أنها عادت بعد ذلك وسلكت اتجاها عكسيا بعدما وجدت أن بقاء مصالحها في هذه المنطقة يعتمد أساسا على وجود الزبير ونفوذه وخاصة بعد فشل حملة البلالى .

ثالثا : تمكين محمد البلالى من مناجم النحاس الواتعة بمنطقة حفرة النحاس والتي ادعى ملكيتها عندها حظى بمقابلة الخديو في القاهرة .

والحقيقة أن هدف الحملة الرئيسى كان القضاء على الزبير أما بقية الاهداف فقد كانت تمثل أهدافا ثانوية لعدم إبراز الهدف الحقيقى ، والذي يؤكد ذلك هو الاهتمام الكبير الذى أولاه كل من الخديو والحكمدار في اعدادها وتجهيزها لمواجهة قوة الزبير

العسكرية التي لم يكن هناك غيرها ، فقد بلغت جملة ما صرف على الحملة قبل ترحيلها من الخرطوم في شهر صفر سنة ١٢٨٦ هـ الموافق مايو سنة ١٨٦٩ م ما يزيد على ثلاثة آلاف كيسة وكسور هذا غير ما تقرر لها من مصروفات سنوية تزيد على ألفين وأربعمائة كيسة وكسور (٤٩) .

بداية الصراع بين الزبير والبلالي :

استمرت حملة محمد البلالي في تقدمها ، ولكنه تلكأ في طريقه وعمل على الاجتماع بالتجار قبل أن يلتقى بالزبير وذلك للاستيلاء على أمتعتهم وأموالهم والبطش بهم ، ولم يكد يصل محمد البلالي إلى الزبيرة التي بناها له الزبير خارج « ديم الزبير » حتى يثبت للحكومة صدق إخلاصه وولائه وأنه ليس متربدا ولا ثائرا ضدها . حتى أمر باستدعاء رؤساء الزرائب المجاورة له ، وطلب اليهم أن يقوموا بتسليمه ممتلكاتهم جميعها باسم الحكومة المصرية ، فرفضوا ذلك حتى يستشيروا شركاءهم أو أصحاب الزرائب المقيمين في الخرطوم ، إلا أن بعضهم قد قبل في نهاية الأمر أن يتنازل للبلالي الذي كان يتحدث باسم الحكومة عن بضائعه . وطلبوا منه أن يستدعي الزبير إلى مجلسهم مظهرين أنهم سوف يرضون بما يرضى به الزبير ، وقبل أن يحضر الزبير لمقابلة البلالي اجتمع بالتجار وأخبرهم أن البلالي لم ترسله الحكومة إلا ليستغل مناجم النحاس ، وأنه لا سلطان له عليهم ، ولا شأن له بأمور بحر الغزال ، وفي هذا الاجتماع اتسم جميع التجار على اطاعة أوامر الزبير ، وعدم اطاعة أوامر البلالي ما لم يبرز لهم التعليمات المكتوبة التي زودته بها حكومة الخرطوم . وقد دفع الزبير إلى عمل ذلك أن الحكمدار كتب إليه يبلغه ثقته فيه ، ويترك له حرية الموافقة على

ما يشير به البلالى أو رفضه ، وكانها أدرك الحكمدار بعد أن سير البلالى فى قوة من الجيش النظامى ، أن السلطان الفعلى بمديرية بحر الغزال هو الزبير ومن حوله من التجار ، فإراد الحكمدار برسالته (٥٠) هذه استرضاء الزبير التى حاول فيها أن يقسم شئون هذه المنطقة بين الرجلين ، وأن يعهد الى البلالى بمهمة استغلال مناجم منطقة « حفرة النحاس » والقضاء على تجارة الرقيق (٥١) ، ومن المؤكد أنه لم يحدث خطأ من جانب الحكمدار عندما قام بتقسيم شئون المنطقة بين الرجلين والدلائل التى تثبت صحة ذلك هى :

أولاً : أن الحكمدار أدرك بعد فترة من وصول الحملة أن البلالى لن يستطيع انجاز المهمة الرئيسية الموكولة للحملة ، وهى القضاء على تجار الرقيق بهذه المنطقة وعلى رأسهم الزبير ، بجانب تأسيس مديرية بهذه المنطقة واستغلال مناجم النحاس ، فقسم شئون هذه المنطقة بينه وبين الزبير كى يكسب جانب الزبير وقوانه للحملة محققا بذلك أهدافا ثلاثة هى :

الأول : عدم تعرض الزبير للحملة .

الثانى : الاستعانة به فى القضاء على بقية تجار الرقيق .

الثالث : قيام البلالى باستغلال مناجم النحاس لصالح الحكومة .

ثانياً : أن الحكمدار بعدما وصلته الأخبار السيئة عن أحوال الحملة وخاصة وفاة كجوك على أغا ، والخلافات التى نشبت بينه وبين البلالى ، وقيام البلالى بالابتلاء على أموال وبضائع التجار دون وجه حق ومناصبتهم العداء ، والوقوف فى وجه الزبير رغم مساعدته له مخالفا بتعليمات الحكومة الخاصة باسترضاء

الاهالى وجلب محبتهم لها . رأى من الصواب تقسيم شئون المنطقة بين الرجلين .

ثالثا : لم يكن بمستطاع الخديو ولا الحكمдар ولا البلاى انكار قوة ونفوذ الزبير على بقية التجار فى هذه المنطقة لذا رأى الحكمдар أن من مصلحة الحكومة عمل ذلك .

رابعا : لم يخالف الحكمдар أوامر الخديو عندما فعل ذلك لأن الخديو حملة مسئولية فشل هذه الحملة وفوضه فى اتخاذ ما يراه مناسبا من اجراءات لنجاحها .

خامسا : لم يكن الحكمдар يتصرف بمفرده بل كان يبلغ الخديو أولا بأول بأخبار الحملة والاجراءات التى يتخذها حيالها ثم تأتية بعد ذلك التعليمات .

سادسا : ان هذا الاجراء الذى اتخذه الحكمдар لم يكن ليتناهى مع أوامر الخديو ولا الاهداف التى أرسلت من أجلها الحملة بل سيكون عاملا مساعدا على نجاح الحملة فى تحقيق هذه الاهداف لو ان البلاى التزم بتنفيذه .

دعى الاجتماع الذى عقده البلاى . طلب من الزبير تسليم أسلحتهم متعللا بأنها أوامر جعفر باشا مظهر (٥٢) الذى عينه حاكما على بحر الغزال ، ولكن الزبير رفض ذلك ما لم يظهر لهم مرسوم تعيينه هذا ، فراوح فى الاجابة ، فأبرز الزبير له خطاب الحكمدارية اليه ، وعرفه أنه بالرقم من انه ضلل الحكومة بعلوماته الكاذبة فإنه لن يتوانى فى تنفيذ أوامر الحكمдар بتقديم كل مساعدة ممكنة له فيما يختص باستغلاله لمناجم النحاس فقط ، وأبلغه بأنه لن يسمح له بمخاطبة رؤساء التجار الخاضعين لحكمه رأسا ما لم يسمح هو لهم بذلك . بعد ذلك أراد البلاى أن يبيع بضائع كجوك

على افنا التي صادرها باسم الحكومة ، وتوزيع ثمنها على جنوده
 الا أن الزبير ومن معه أجبروه على حفظ ثمن هذه البضاعة التي
 بلغت سبعة وأربعين قنطارا لابنه في حجرة خاصة حتى يصل
 من الخرطوم لاستلامها ، وأثارت تصرفات الزبير ضيق
 البلالي وحنته الشديد ، غير أنه لم يجد أماله من وسيلة
 سوى التسليم بالأمر الواقع ، ورحل عائدا معه الى ديم
 الزبير وقد أضمر في نفسه البطش به عن طريق الحيلة
 والدهاء ، فلم يبال الزبير بذلك وبنى له زريبة خاصة ، وأمر
 أن توزع على رجاله الملابس والأقوات ، كما سلم البلالي الفا
 وخمسمائة كيس من الذهب ، ومثلها من النحاس المستخرج من
 مناجم حفرة النحاس (٥٣) .

في هذا الوقت كان الزبير يحتفظ لنفسه وتحت يده بجيش
 قوى وافر العدد والعدة يمكنه من مواجهة البلالي وتحدياته ،
 وكان يتكون من الأفراد الذين اقتادهم الزبير وانتقذهم من أحكام
 الموت الصادرة ضدهم أثناء وجوده في بلاد النيام نيام ، وهم
 الذين نبذهم المجتمع نتيجة الجرائم التي ارتكبوها ، فكان منهم
 الزبير جيشا لحمايته وحماية تجارتهم . أما الفئة الثانية التي
 ضمها جيشه فكانوا من العبيد الذين التقى بهم أثناء زيارته
 الأولى للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال ، وهم الذين آثروا
 الفرار من أسبيادهم ، واقبلوا عليه يطلبون الانضمام اليه ،
 ولكن أسبيادهم لم يرضوا عن ذلك وعملوا على حرب
 الزبير ، فطلب الزبير من العبيد العودة الى أسبيادهم فأبوا ذلك
 وصمموا على قتل ساداتهم أن هم عادوا ، فاضطر الزبير
 لمرضاة الجماعتين بأن يبادل على هؤلاء العبيد بعدد مائل من أتباعه
 وبذلك تم حل المشكلة . وسلح الزبير حوالي ستمائة منهم
 وجعل قيادتهم لرابع (٥٤) وبهم أحرز الكثير من الانتصارات ، وأم

يلبث أقارب هؤلاء واصدقاؤهم ان انضموا لجيش الزبير بعد ان ذاع حسن معاملته لرجاله في جميع الجهات ، وهكذا تجمع للزبير جيش كبير بلغ تعداده حوالى أربعة آلاف رجل تحت قيادة قوادهم وزعمائهم ، والجميع يخضعون للقيادة العليا التي وضعها الزبير في يد رابع ، وحين حدث الخلاف الذي تقدم ذكره بين البلالى والزبير ، عمد البلالى الى اغراء جنود الزبير بتركه والتبرؤ عليه واعدا اياهم بمنحهم الكثير من الامتيازات في مقابل هذا ، ورغم كل ما قدمه لهم الزبير فقد خدع الكثير منهم بوعود البلالى ، ولما كان الزبير غير مستعد للتضحية بجنوده هؤلاء ، فقد بذل كل ما في وسعه لملاينة البلالى بالهدايا والقول الطيب ليعيد اليه رجاله فرفض ، عندئذ عرف انه لا مفر من استخدام القوة والحيلة لاجباره على ذلك .. فانطلق بجواده ، ومعه اثنان من اخلص رجاله هما جاك ودوليپ نحو زريبة البلالى . وفي الطريق اطلع صاحبه على خطئه ، وما بلغ زريبة البلالى حتى اقتحم الزبير عليه غرفته وهو جالس . وخيره بين ان يرد له رجاله او ان تصعد روحه الى بارئها مصوبا مسدسه الى راسه وهو واقف الى جواره ، غير ان البلالى كان قد اشار بيده الى خافيه ، فهدده الزبير بان يأمر خافيه بالانصراف وان يعيد اليه رجاله ، والا قتله بمسدسه ، فخضع البلالى لطلب الزبير . ولم يترك الزبير البلالى حتى اتبل واحد من رجاله عليه يبلغه نبأ اطلاق سراحهم ، عندئذ أسرع الزبير بمغادرة معسكر البلالى عائدا الى زريبته ، وفي أثناء عودته علم ان رجاله مشتبكون مع رجال البلالى ، فاتجه نحو ساحة المعركة ، ففوجيء برجال البلالى وهم عائدون من المعركة التي انتهت بهزيمتهم يطلقون عليه الرصاص ، فاشتبك معهم الزبير بمن معه من الرجال الذين بلغوا حوالى ثلاثين رجلا بينما كان رجال البلالى اكثر عددا وعدة . ولم تلبث الامدادات ان وصلت لنجدة الزبير ،

فاستطاع بعد جهد يسير أن يوقع بالاعداء هزيمة ثانية . انتهت بمصرع تسعة عشر رجلا من رجال البلالي مقابل تسعة من رجال الزبير . وبعد هذه الهزيمة حرص البلالي على مهادنة الزبير ولكى يأن جانبه قام بتوقيع معاهدة سلام معه ، وأرسل يطلب من الحكمدار سسرا بعض الفجذات فجاءت بعد حوالى العام من يوم حدوث المعركة (٥٥) .

وعندما وردت أخبار هذه المعركة الى الخرطوم أرسل الحكمدار معاوننا من الحكمدارية وكاتباً مع بلوك من المساكين الجهادية واسلحة وذخائر وطائم مدفع بذخيرته لأجل تحقيق النصر فى هذه المعركة (٥٦) .

ولم تكد تصل البلالي الامدادية التى طلبها وهى عبارة عن فرقتين من الجنود معها مدفع واحد حتى بدأوا فى اطلاقته فى الهواء ، فرأى الأهالى الذين لم يشاهدوا المدفع من قبل واقتنعوا تماماً بأن البلالي هو ممثل الحكومة الفعلى برغم أنه لم ي تلق أمراً بتعيينه حاكماً على بحر الفزال ، ثم لم يلبث البلالي أن دعا الزبير للاجتماع به لتوقيع معاهدة السلام التى بينهما ، وبعد انتهاء الاجتماع أعلن البلالي عن عزبه على الارتحال لمحاربة تجار الرقيق وانفضاء على هذه التجارة البغيضة تنفيذا لأوامر الحكومة التى أبلغ بها أخيراً ، فعرض الزبير عليه كل مساعدة ممكنة واتفق الاثنان على أن يقوم الزبير بتوذيعة وحماية مؤخرة قواته ، بعد أن يعلنه بموعد قيامه . وكانت الخطة أن يرسل البلالي رجاله قبله ثم يلحق هو بهم بعد ذلك ، ولكنه أخل باتفاقه ورحل بعد عدة ساعات من رحيل رجاله . خبا ذلك عن الزبير . وكان النبأ قد وصل الى علم الزبير قبل أن يقارب اليوم على الانتهاء فلم يمنعه هذا من ضرورة توبيعه واللاحق به قبل

حلول الظلام ، ولكن الزبير فوجيء بهرض جواده ، وكان سريعا
 فتبدد بذلك كل أمل فى اللحاق به ولكن الاقدار كانت تدخر له
 مفاجأة كبرى ، فقد كان البلالى واقفا من ان الزبير سوف يتبعه
 لتوديعه ، لذلك خلف وراءه فى الطريق الذى قمر له انه سوف
 يسلكه كميناً من أربعين رجلاً أوصاهم بقتله واللاحاق به (٥٧) ولكن
 كتب للزبير النجاة من مكيدة البلالى . وكان البلالى قد وصل
 الى قرية موجومنجى - **Mugmngi** واخذ فى مهاجمة التجار
 الا ان رجاله اشاروا عليه بمهاجمة الزبير أولا والقبض عليه ناذاً
 ما تم له ذلك فان جميع الزرائب الأخرى سوف تستسلم له (٥٨) ،
 وهكذا تنكر البلالى لمعاهدة السلام التى وقعها مع الزبير لا بل
 زاد على ذلك انه حاول اغتياله بفتة مما لوث صفحته فى هذه
 المنطقة .

المعركة الناصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالى

وقته فى (سنة ١٢٨٦ هـ - سنة ١٨٦٩ م) :

بدأ كل من الزبير والبلالى باعداد نفسه وقواته للمعركة
 الفاصلة ، فوضع البلالى الخطة لمهاجمة الزبير فى أكثر من مكان
 لتضليله من اتجاه الهجوم الرئيسى له ، وفى نفس الوقت لكي
 يتجنب المواجهة المباشرة معه حتى لا يتعرض لخسائر أكثر سواء
 فى الأفراد أو المعدات ، وكانت خطة البلالى ترمى الى مهاجمة
 مخازن ومستودعات الزبير التى يحتفظ فيها بأسلحته وتخزينه
 ومؤنه حتى يمكن له احدث أكبر خسائر ممكنة بها دون أن يتعرض
 له الزبير ، حينئذ يمكنه اجبار الزبير على الاستسلام اذا ما فكر
 فى مهاجمته لانه لن يكون لديه من المون أو الاسلحة والذخائر ما
 يكفى لصموده امام البلالى كثيراً . وطبقا لهذه الخطة عهد البلالى
 ل أحد تجار الرقيق وهو جلباوى بمهاجمة مخزن من مخازن الزبير

كان قد تركه في هراسمة عشرين رجلا ، وكان الهدف من ذلك هو العمل على شغل الزبير ربثا يتم البلالي هجومه الرئيسي على عاصمة الزبير بعد اخراجها ، الا ان هذا الجرس على قتلته استطاع ان يصد هذا الهجوم ، ونجحت الخطة فما علم الزبير بنبا هذا الهجوم على مخزنه ومصرع ابن عمه عبد الله بن الزبير ، حتى اسرع بالتوجه على رأس مائة رجل الى هناك لتأديب جلاوى ، وما كاد الزبير يعيد الأمور الى نصابها ويؤمن مخزنه ، حتى بلغه عن طريق عيونه ورجاله أن البلالي يستعد لمهاجمة عاصمته منتهزا فرصة انشغاله في الهجوم الذي شنّه جلاوى فأسرع الزبير على رأس قوة من جيشه الى عاصمته فرأى النار مشتعلة فيها والحرائق التي نجح رجال البلالي في اشعالها هنا وهناك تلتهم كل مخازنه وتأتي عليها ، وعلى الرغم من أن الحرائق ملأت المدينة كلها فانها لم تصل الى مخازن السلاح والخيرة ، التي كانت موجودة تحت سطح الأرض (٥٩) ونجت بذلك من الحريق وبقيت كما هي ، ولو كان قد توصل الى علم البلالي وجودها في هذا المكان ، لكانت النتيجة قد تغيرت لصالحه وقد دلت هذه العملية التي تشبه عمليات قوات الكوماندوز في الجيوش الحديثة على مدى ضعف المعلومات التي استقاها او جمعها جواسيس البلالي من عاصمة الزبير ، فكانت هذه بمثابة ضربة قاصمة للخطة التي رسمها البلالي للقضاء على الزبير وشل فعالية قواته معنويا .

استطاع الزبير بعدما رأى الحرائق التي ائتمسعلها رجال البلالي في المدينة ، والهجوم الذي قام به جلاوى على أحد مخزنه ، أن يدري تفاصيل الخطة التي رسمها البلالي التي كانت تهدف الى مهاجمة المدينة بقواته بعد أن تكون الحرائق قد أفت على جميع ما بها من مخازن وقلاع لا تستطيع قوات الزبير

ولا اى قوات اخرى الاحتماء فيها او المدافعة عنها ، ولكن الزبير
وطد العزم على الانتقام لما أصابه على يد البلالى ورجاله ،
ورغم قلة قواته التى لم تكن تتجاوز القلثائة رجل ، فإنه لم
يسسلم لليأس والفتاؤم ، بل أسرع فى تقسيم قواته الى خمسة
أقسام بثها فى كل جانب من المدينة خشى ينخدع العدو بقواته ،
وقد دلت هذه الامكار على أن الزبير كان يتمتع بفكر عسكري
متقدم اكتسبه بخبرته الطويلة فى المعارك والحروب التى مرت به
دون دراسة .

ارسل الزبير عيونه يستطلعون له الاخبار ، فعادوا وأخبروه
بأن البلالى قد قرر مهاجمته خلال منامات الفجر مستترا فى
الظلام ، وفى مساء ذلك اليوم ظهرت قوات البلالى التى تدر
الزبير عددها من وثيقة وقعت فى يده بحوالى أربعة آلاف رجل
مزودين بالعتاد والذخيرة تحت قيادته ، حينئذ وقع الرعب فى
قلوب رجال الزبير ، وساءه أن يحدث هذا لرجاله . فى وقت
اقتربت فيه المعركة . فحشد للمرور عليهم فى مراكزهم وتشجيعهم ،
وتقوية عزائهم للقتال ، ثم أمر باعدام ما تبقى لديه من العماج
خشية أن يقع غنيمه فى يد البلالى ، وكان يقدر بحوالى سبعة
قناطير . والحقيقة أن الزبير نفسه كان متخوفا من هذه المعركة
نظرا لعدم تساوى القوتين سواء من حيث العدد أو التسليح ،
خشى الزبير على مصير رجاله ، وكيف فكر البلالى فى مهاجمته
رغم أن الاوامر الصادرة له من جعفر باشا مظهر واضحة
ومحددة . بعد أن وصلته النجدة الأخيرة . وتقضى بهاجمة
تجار الرقيق فقط ، وقام الزبير بتقديم كل مساعدة ممكنة له
لتنفيذ ما أمر به ، وبهذا يكون البلالى هو المخالف لأوامر الحكومة .
ولو أن رجال الزبير كانوا ينظرون الى البلالى بعد وصول
النجدة اليه على أنه الممثل الفعلى للحكومة ، التى لم يكونوا يرغبون

فى تحديها او التمرد عليها حتى لا يتهموا بالعمسسيان او الثورة على قوات الخديو واستقر رأى الزبير على تسليم نفسه ، ثم سار بعد ذلك فى اتجاه قوات البلالى لتنفيذ ما عزم عليه ، ولكنه ما كاد يقترب حتى وجد نفسه امام مينة قواته ، وبمجرد أن رآوه ظنوا انه قد أتى لمهاجمتهم ، فاطلقوا الرصاص عليه . فأسرع رجاله لنجدة من كل مكان ، وهاجم موسى ود الحاجى أحد قواد الزبير جيش البلالى فذهب الذعر فى صفوفه ، وعمت الفوضى ، وفقد البلالى كل سيطرة على قواته ، لأن أوامره لم تصل اليهم . وبعد أن أيقن من هزيمته فر هاربا الى دارموفيو ، وفى اليوم التالى أقبل حامد ابن عم الزبير على رأس ثمانمائة رجل ، وبعده أقبل رابع وكان فى مهمة فارسله الزبير فى أثر البلالى ، فأدركه عند ديم جوجو بالقرب من دارموفيو وهناك دارت معركة بين الاثنين انتهت بمصرع البلالى والتخلص منه نهائيا ، وبذا طويت صفحة البلالى فى بحر الغزال الى الأبد (٦٠) .

وبهذا الانتصار الذى حققه الزبير على حملة البلالى ، أكد دون تردد أنه الرجل الاول بمنطقة بحر الغزال الذى له السيطرة الادارية والعسكرية ، كما عكس مقتل البلالى وهزيمة الحملة اثره السيئ فى دوائر الحكومة بكل من القاهرة والخرطوم نتيجة ما يأتى :

أولا : فشل الحملة فى تحقيق الاهداف التى أرسلت من أجلها ورغم الاهتمام الواضح الذى أولته الحكومة فى اعدادها وتجهيزها من حيث العدد والسلاح والذخائر .

ثانيا : فشل قادة الحملة فى توجيهها التوجيه السديد الذى يحقق أهدافها التى ترمى أساسا الى تأكيد سلطة الحكومة وسيطرتها السياسية والادارية والعسكرية فى هذه المنطقة نتيجة

سيطرة روح العداء والجناء بين البلالى وكجوك على أفا واختلاف
الرأى وعدم الانسجام الكامل بينهما .

ثالثا : حرص البلالى على تحقيق مصالحه الذاتية ، التى
كانت هدفا من أهداف الحملة ، وهى العمل على الاستيلاء على
الأراضى التى ادعى ملكيتها فى المنطقة المسماة بحفرة النحاس
جنوبى دارفور واستغلالها لمصلحه دون الاهتمام بتحقيق الأهداف
الجوهرية للحملة .

رابعا : أكدت هذه الهزيمة سيطرة الزبير العسكرية والادارية
فى هذه المنطقة ، وأنه الرجل الذى يجب أن تحرص الحكومة على
اكتساب تأييده لها واستشارته فيها يجب أن تتغله مستقبلا حتى
لا تتعرض لمصلحتها للانهيار فى هذه المنطقة .

التحقيق فى مقتل البلالى :

وصلت أبناء انتصار جيش الزبير ، ومقتل البلالى ، وهزيمة
جيشه الى حكمدار السودان بالخرطوم فأسرع الى مكان الحادث
معاونين الحكمدارية ، ومعه بلوك من المساكين لاجراء التحقيق
فى أمر مقتل البلالى وعصيان الزبير ، وعندما وصل الى منطقة
بحر الغزال كان التجار هم سادة الموقف ، فقام بما نذب من أجنه
من تحقيقات وأرسل تحرياته الى الخرطوم (٦١) .

وفى الوقت الذى ابلغت فيه الخرطوم بنتائج المعارك الناشبة
بين الزبير والبلالى ، بعث الزبير نبأ انتصاره على البلالى الى
الحكمدار شارحا تفاصيل ما دار بينه وبين هذا الرجل مبينا تعديه
ومحاربتة له دون وجه حق . وكان الحكمدار قد سبق أن نصح
الحكومة المصرية بضرورة عدم اظهار العداء للزبير الذى شاع

خبر انتصاره في أرجاء السودان كلها مما أدى الى زيادة عدد أتباعه وبالتالي زيادة عدد جيشه حتى أنه بلغ في نهاية سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م اثني عشر ألف رجل ، وأصبح أعظم بحر الفزال كله يدين له بالولاء (٦٢) .

وصلت التحقيقات التي أجراها المعاون الى الخرطوم (٦٣) وقد ورد للمعية من آدم باشا (٦٤) القائم بعمل مدير عموم قبلى السودان في السابع عشر من جمادى الآخر سنة ١٢٨٩ هـ الموافق عشرين من أغسطس سنة ١٨٧٢ م بطلب الفقيه الى مديرية كردفان بإرسال عسكري ، وفخيرة ، ومدافع الى مزارع الزبير لضبطه بها معه في مزارعه ، وإرساله لأجل التحقيق معه فيما نسب اليه لأن المسافة من الخرطوم بعيدة كالمسافة مدير عموم قبلى السودان في كتابه والى المعية السنسية بتاريخ الخامس والعشرين سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٢ م الذي شرح فيه تفصيلا قصة البلالى منذ توجيهه الى بحر الفزال حتى مصرعه على يد جيش الزبير ، كما أشاد بقوة الزبير العسكرية ونفوذه الواسع في منطقة بحر الفزال ، وأوضح كذلك مدى التعب والمشقات التي سوف يتحملها الجنود اذا ما أرسسوا للقضاء على الزبير هذا غير ما يحتاجون اليه من المصاريف ، فضلا عما يترتب على ذهابهم الى خراب هذه المناطق نتيجة المعارك التي قد تنشب بينهم وبين قوات الزبير ، وقد أوصى المدير أخيرا بالكتابة للزبير للحضور للخرطوم للنظر في أسباب حدوث تلك الواقعة والتحقيق معه في ذلك (٦٥) وقد كان هذا الخطاب بمثابة وثيقة تشرح تفصيلا ما حدث منذ مجيء البلالى وحصلته حتى مصرعه .

وجد الزبير أن هذه التحقيقات اذا ما سسارت في طريقها الرسمي فسوف تعده الحكومة ثائرا ، ولا تستطيع أن تدرك الظروف التي تحت ضغطها دافع عن نفسه وأمواله ، فرأى أن يوسط

« حسين بك خليفة العيادي » مدير بربر ودنقلة آنذاك لدى الحكومة ، فشرح له الحالة شرحا وافيا ، وأظهر الخفسوسع والامثال لسلطان الحكومة ، فها كان الزبير يريد أن تنسب اليه الثورة او العصيان(٦٦) .

ونتيجة هذه الوساطة ، رأى الخديو أن يعفو عنه ، وأصدر أوامره الى مدير قبلى السودان باعطاء الزبير الأمان ، اذا ما حضر للخرطوم ، ولاداعى لحضوره مصر(٦٧) وذلك بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٧٢ م .

وفى نفس الوقت وصلت برقية من خيرى باشا(٦٨) مهردار الخديو الى مدير عموم قبلى السودان بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٧٢ م يبلغه فيها بالموافقة على ما جاء فى برقيته الى المعية بتاريخ الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٨٧٢ م فيما يتعلق بمأمرية بحر الفزال(٦٩) .

أطمان الزبير الى جنائب الحكومة بفصوص مسئوليته عن مصرع البلالى ، الا أنه حتى هذه اللحظة لم يضمن جانب اقارب البلالى نفسه ، ففى السابع عشر من ربيع أول سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السادس عشر من سنة ١٨٧٣ م أبلغت المعية السنية مديرية عموم قبلى السودان بأن جماعة من اقارب البلالى قد حضروا الى مصر للشكوى فى مقتل البلالى ، وأنه بعد عرض الموضوع تم ابلادهم بانتهاء التحقيق فيه وأنه لم تكن هناك أى مسئولية على شخص معين لذلك فلاداعى لوجودهم بمصر بل العودة الى بلادهم(٧٠) .

لم يكتفى الخديو بالعفو عن الزبير بل رأى فيه الرجل القوي الملم بأحوال وشئون منطقة بحر الغزال ، وأنه يمكن للحكومة أن تستعين به في توطيد سسلطانتها وسيطرتها المزعزعة في هذه المنطقة ، ولذلك صدرت الاوامر من القاهرة لاسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيين الزبير مديرا عليها وبحث أمور هذه المديرية الجديدة وما يلزمها من المستخدمين من الجنود والموظفين مع الزبير لحين حضوره الى الخرطوم وقد ارسل الحكمدار هذه التعليمات الى الزبير مع رسول خاص بطريق كردفان - دارفور ، ولكن الرسول تأخر في الطريق لأن عربان الرزيقات تصدوا له أثناء توجهه الى الزبير ، وفي هذه الاثناء كان الزبير قد صمم على الذهاب بنفسه الى الخرطوم ، لإعلان ولائه واخلاصه حسب ما اتفق عليه مع الحكومة ، فسير قبل قبائمه بعض مرافقه تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعدادده هو للسفر . وقبل أن يفادر مقره علم أن عربان الرزيقات (٧١) قد أغاروا على حدود منطقة نفوذهم ، وقطعوا الطريق الذي بينه وبين دارفور ، فرأى أن يقوم بتأديبهم أولا ، ثم يواصل سيره شمالا الى كردفان ومنها الى الخرطوم ، إلا أن الأمور سارت على غير ما أراد ، بل قادت الى حرب الرزيقات (٧٢) .

وفي غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م بعث مدير عموم قبلى السودان بمكاتبة الى المعبة السنية اوضح فيها تعذر حضور الزبير للخرطوم لبحث مسألة تنصيبه على مديرية بحر الغزال اذا وافق على شروط الحكومة ، وبحث مسألة المبالغ التي صرفها على العساكر الطوبجية بجهة بحر الغزال بسبب قطع عربان الرزيقات الطريق عليه وقيامهم بارتكاب الحوادث وبعض الأمور غير اللائقة (٧٣) .

أرسل الزبير مندوباً عنه إلى الخرطوم يحمل بعض الهدايا ويبلغ ثلاثة آلاف جنيه إلى مدير عموم قبلى السودان على سبيل الهدية ، وعندما وصلت هذه الهدايا والمبلغ المذكور مع الرسول إلى الخرطوم قام الحكمدار بإبلاغ القاهرة بها وأرسله الزبير يستفسرها عن كيفية التصرف ، فجاءه رد القاهرة بإعادة الهدايا والمبلغ المذكور إلى الزبير وشكره باسم الجنب العلى الخديو ورغاه عنه وبإبلاغه باستغلال هذا المبلغ فى إنشاء مكتبة ومسجد باسمه فى منطقة بحر الغزال كى يستفيد منها الناس هناك (٧٤) .

قيام الزبير بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال :

بدأ الخديو يغير من طريقة معاملته للزبير فترك سياسة العنف التى تمثلت فى حملة البلالى التى سبق الإشارة إليها . وبدأ يسلك فى معاملته سياسة اللين والهداء ، فعفا عنه وعينه مديراً على بحر الغزال ، فشرع الزبير فى إعادة تنظيم الأمور للمديرية الجديدة ، وبحث وسائل العمل على تهيئتها وتأسيسها ، ولم يلبث أن وفد عليه الناس من جميع جهات المديرية يطلبون الانتظام فى جيشه أو الاتجار فى بلاده . فكان لهم ما أرادوا . وساد البلاد الهدوء والسكينة (٧٥) .

رأى الزبير أنه لا ضرورة للابقاء على هذه القوة الكبيرة من جيشه متجمعة فى مكان واحد ، بل أنه فى سبيل نشر السلام والأمن فى روع وانحاء البلاد لابد من العمل على توزيعها فى أنحاء الاقليم فاقبى على ثمانية آلاف رجل فى « سايونجا — Sabunga بينما قام بتوزيع باقى الجيش على بقية المناطق ، فى مجموعات يتراوح عددها ما بين خمسين ، ومائة ، ومائة وخمسين رجلاً ، فوضع مجموعات منهم فى باية (٧٦) — Baia وبونت . . . Bunet وابودنجا (٧٧) — Abu Dinga

وقد أحاط الزبير نفسه ببلاط لا يقل فى روعته عن بلاط الملوك، وكان سكنه الخالص يتألف من عدة ابنية ضخمة مريمه الشكل متينة البناء يحيطها سور مرتفع ويقف على ابوابها الحراس على تمام الالهة ليلا ونهارا ، وكانت هناك حجرات خاصة مزودة بأعلى الطنافس والرياش ، معدة لاستقبال ضيوف الزبير يقودهم اليها عبيده وغلمانهم وقد ارتدوا ابهى الحل ، وخلف ستار ضخم فى احدى الحجرات الداخلية كان يوجد عرش الزبير حيث يجلس وقد حف به عدد من الاتباع على استعداد لطبية اشارته فى أى وقت بينما يجلس جماعة من الفقهاء على ديوان خارج الستار (٧٧) .

دور الزبير فى فتح شككا (٧٨) وتاديب عرب الرزيقات :

بعد ان تم للزبير الانتصار على ملوك وسلاطين بلاد النيام « وما جاورها وخضوع تلك البلاد حتى بحر العرب لحكمه » واتخاذها باية التى عرفت فيها بعد باسم ديم الزبير عاصمة له ساد السلام والأمن فى البلاد ، وبدأ يتجه الى الاهتمام بشئون التجارة بالاقليم ، التى كانت قد توقفت حركتها بسبب الحروب المتوالية التى خاضها . واتجه اهتمامه فى هذه الفترة الى فتح طريق جديد للتجارة بدلا من طريق النيل . الذى كانت الرحلة فيه تعترضها الكثير من الصعاب ، كان الطريق الجديد الذى سعى الزبير الى فتحه هو الطريق البرى الواصل بين بحر الفزال وكردفان والمار ببلاد شككا موطن عرب الرزيقات ، وكان لهذا أهمية كبيرة نظرا لبعدها عن طريق النيل وكثرة أخطاره ومشاقه فى مارس سنة ١٨٦٦ م الموافق شوال سنة ١٢٨٢ هـ بدأ الزبير فى الاتصال بمشايخ عرب الرزيقات المقيمين على طريق التجارة ، وذلك من أجل عقد معاهدة معهم لفتح هذا الطريق وحمايته حتى تستطيع توافل التجارة أن تعبر فى امان ، وذلك فى مقابل رسوم

محدودة يدفعونها الزبير ولعرب الرزيقات ، فأوغد الزبير لهم رسلا بالهدايا ، فجاء اليه مشايخهم وأقسموا له على القرآن بالمحافظة على هذه المعاهدة ، ولم يلبث هذا الطريق لقصره وسهولته وأمنه أن جذب اليه العديد من قوافل التجارة من كل مكان حاملين معهم الكثير من البضائع التي تروج في المناطق التي خضعت لحكم الزبير ، فازدهرت التجارة في البلاد وانتعشت الأسواق وتجمع الناس حول الزبير . وظلت هذه المعاهدة سرية المفعول بين مشايخ عرب الرزيقات والزبير لمدة طويلة . الى أن نقضوا هذه المعاهدة بعد انتصاره على البلالى ، وفي أثناء حربه مع الملك « تكه » وهى الحرب الثانية . قطعوا الطريق وقتلوا بعض التجار فأرسل لهم الزبير رسلا يسألهم تنسيرا لما حدث ، ولكنهم لم يجيبوا بشيء عليه سوى السباب والشتم ، وأقسموا ألا يدعوا مسافرا واحدا يمر الى بلاده عن طريق بلادهم الا قتلوه وسلبوه أمواله (٧٩) .

وإمعانا في تقديم قطعوا الطريق على رسول حكومة الخرطوم ، الذى أوغده الى الزبير حاملا معه التعليمات الجديدة الخاصة بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيينه هو مديرا عليها . في هذا الوقت كان الزبير نفسه يستعد للسفر للخرطوم لتقديم ولاءه للحكومة ، الا أنه علم قبل ان يغادر مقره أن عرب الرزيقات أثاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق ما بينه وبين دارفور حينئذ رأى الزبير أن من الصواب أن يقوم بتأديبهم أولا ثم يكمل مسيرته الى كردفان ومنها الى الخرطوم (٨٠) .

وقد تعهد عرب الرزيقات نقض معاهدتهم مع الزبير عقب انتصاره على البلالى وفي أثناء حربه الثانية مع الملك « تكه » للأسباب الآتية :

أولاً : كان معنى انتصار الزبير على حملة البلال هو تأكيداً لسيطرته ونفوذه السياسى والإدارى على منطقة بحر الغزال دون غيره وهو الشيء الذى لم يكن عرب الرزيقات يستحسنونه مخافة أن تمتد سيطرته على بلادهم .

ثانياً : أنه فى سيطرة الزبير السياسية والإدارية على منطقة بحر الغزال وإمكان سيطرته على جميع المنافذ التجارية والاقتصادية الواردة أو الصادرة للأقليم ، فى ذلك تقليم أنشطاتهم ونفوذهم التجارى فى هذه المنطقة التى كان لهم تماملاتهم التجارية معها منذ مدة طويلة .

ثالثاً : رأى عرب الرزيقات أن نصيبهم من الضرائب المفروضة على قوافل التجارة والتجار طبقاً للمعاهدة التى عقدها مع الزبير لم تعد مناسبة نظراً لزيادة عدد هذه القوافل نتيجة الاستقرار والهدوء الذى ساد منطقة بحر الغزال وما جاورها ، فكان هدفهم هو الانفراد بالسيطرة على طرق التجارة بنقض المعاهدة .

رابعاً : كان التوقيت الذى اختاروه لنقض المعاهدة فيه حرج لموقف الزبير وخاصة أنه كان فى حرب مع الملك تكبه ، فكانوا يريدون له الهزيمة حتى لا تتسع مناطق سيطرته ونفوذه السياسى والتجارى على حساب مصالحهم التجارية فى هذه المناطق .

خامساً : كان من المؤكد أنهم يريدون التوقيع بين الزبير وسلطان دارفور لكى يتخلصوا من الزبير إذا ما مكر فى فزو بلادهم التى كان السلطان يعتبرها جزءاً من مملكة دارفور .

رأى الزبير أن يستعين بالسلطان إبراهيم سلطان دارفور فى تأديب هؤلاء العرب حتى يثوبوا الى رشدهم ، فأرسل الى

السلطان خطابا في أول جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ يخبره فيهم بنقضهم للماهدة التي عقدها معهم ، وقيامهم بقطع الطريق على قوافل التجارة لبعض التجار. وطلب منه امداده بسرية من جيشه كي يستعين بها في تأديب هؤلاء العرب أو أن يتحمل مصاريف الحملة الذي يعمدها هو لتأديب هؤلاء العرب ، وقد خاطب الزبير السلطان قبل أن يفعل أى شئ لسببين هما :

أولا : حرص الزبير على مشاعر السلطان الذي كان يعتبر بلاد الرزاقات جزءا من مملكته .

وثانيهما : تعريف السلطان بالدور الذي يجب أن يؤديه تجاه هؤلاء العرب بتأديبهم أو تقديم المعونة إن يستطيع ذلك ، لأن الزبير كان يخشى أن يقوم بتأديب هؤلاء العرب دون علم السلطان ، فيعتبر ذلك السلطان تهديا وتمديا على سلطته (٨١) .

ولكن السلطان لم يجب على هذا الخطاب ، فلم يلبث الزبير أن وجه خطابا آخر للسلطان في غرة جمادى الآخر سنة ١٢٩٥ هـ الموافق السادس والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ م مذكرا آباء بأنه ليس له اطباع شخصية في هذه البلاد وانما الهدف من ذلك تأمين حياة الاهلين فيها بما يوفر لهم القيام بنشاطهم التجارى ، وتوفير جو السلام هناك بالقضاء على الخارجين وقطاع الطرق من عرب الرزاقات ومن على شاكلتهم ، ويكرر طلبه الأول بخصوص امداده بالمساعدات العسكرية اللازمة من جنود واسلحة وفخائر للاستعانة بها في تأديب هؤلاء العرب . وقد حمل الزبير السلطان مسؤولية ما يسفك من دماء المسلمين على يد عرب الرزاقات ، اذا لم يؤد واجبه نحو قتالهم والقضاء على صلفهم وغرورهم وتوثير جو الأمن والسلام في هذه البقاع (٨٢) .

وينبغي الا انفصل بين تـمرد عرب الرزيقات على الزبير ، وضرورة تدخل السلطان ابراهيم للقضاء على هذا التمرد أو الأعمال الاجرامية التي كانوا يقومون بها ضد التجار والتجارة وذلك للأسباب الآتية:

أولاً : كان السلطان يعتبر بلاد الرزيقات (شكا) جزءاً من سلطنة دارفور وان لم تكن تحت حكمه أو سلطته وان كان التاريخ قد شهد فترات انضمام وانفصال لهذه البلاد مع سلطنة دارفور ، لذلك فقد اعتبر الزبير السلطان مسئولاً عن كبح جماح هؤلاء العرب وكسر شوكتهم .

ثانياً : كان الزبير يريد من قيام السلطان بتأديب هؤلاء العرب اختبار مدى صلة أو عدم صلة السلطان بهذه الأعمال التي يقوم بها عرب الرزيقات وقد ثبت للزبير مدى الكراهية التي يكنها السلطان له وصلته بهذه الأعمال عندها وجه إليه أكثر من خطاب ولم يجب السلطان عليها .

ثالثاً : كان الزبير يريد من وراء مطالبة السلطان بتأديب هؤلاء العرب أو تقديم ما يمكنه من مساعدات لتأديبهم ، وقطع خط الرجعة عليهم حتى لا يتحالفوا مع السلطان ضده كذلك ، فقد رأى الزبير أن المصالح التجارية لمديرية بحر الغزال وسلطنة دارفور مصلحة مشتركة ينبغي أن يعمل هو والسلطان معاً كيد واحدة للقضاء على الأخطار التي تهدق بهما .

اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات :

أخذ الزبير في استكمال استعداداته الحربية تمهيداً لغزو بلاد الرزيقات ، مجهز ما يقرب من أربعة آلاف رجل وتقدم شمالاً تلصداً لشكا مقر عرب الرزيقات . وكان مقرراً أن تقطع الحملة

هذه المسافة في خمسة عشر يوما ، ولكن نظرا لطول الامطار ،
مقد أدى ذلك الى ابطاء سير الرحلة ، فاستغرقت أربعين يوما
حتى وصلت جنوبي شكا بعد أن استنزفت معظم مؤناتها ، ومات
من رجال الزبير مالا يقل عن الستمائة رجل ، عندما اقتربت قوات
الزبير من عرب الرزيقات شنوا عليهم هجوما بقوات كثيرة
العدد (٨٣) .

ورغم تفوق الزبير في العدد ، فإن تقدمهم كان بطيئا .
وذلك لأن عرب الرزيقات كانوا يستعملون الخيل في قتالهم ، ولم
يكن رجال الزبير قد اعتادوا هذا النوع من الحرب السريعة
الخاطفة واستمرت الممارك بين الجانبين ابتداء من المشرق من
يوليو حتى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م وهو
اليوم الذي استطاعت فيه قوات الزبير أن تضع حدا لهذا الصراع
بانزال الهزيمة الساحقة بعرب الرزيقات . وقد ساعدتهم في ذلك
طبيعة بلادهم التي كانت تخلو من الأنهار ، مما يضطرمهم الى
الالتجاء الى بحر الغزال طلبا للقاء ، وعندما فطن الزبير الى هذا
الامر رأى أن يمكن لهم بقواته عند شاطئ هذا النهر واخذهم
على غرة بعد أن اعياء قتالهم ، وتمكن الزبير بذلك من انزال
الهزيمة بهم وقتل الكثير منهم ، والاستيلاء على الكثير من الغنائم
من سلاح وفخائر ومؤن ، والواقع أن جيش الزبير لم يستطع
الغلب على عرب الرزيقات ، الا بعد أن بلغت خسائره أكثر من
سبعماية رجل بسبب مهارتهم في استخدام الجياد السريعة وفنون
الحرب ، بالإضافة الى تمعدهم الانتفاض على قوات الزبير
ومهاجمتها على حين غرة من جهة لا يتوقعون أن يهاجمهم منها .
وهكذا كان الأمر منذ بداية الحرب الى أن استطاع الزبير الانتصار
عليهم ودخول بلادهم وادخالهم تحت طاعته وحكمه (٨٤) .

بعد هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير شكاً في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م ، فر عدد من مشايخهم والتجأوا الى السلطان ابراهيم سلطان دارفور . بثوا له شكواهم من احتلال الزبير وجيشه لبلادهم وعاهدوه على الخضوع له ، بعد أن كانت بلادهم مستقلة عن دارفور منذ ثلاثين عاماً فرحب السلطان بهذا الذي رد الى مملكته ما فقدته منذ مدة ، وكأمر طبيعي أن يحى السلطان جارا التجأ اليه ، واحتفى فيه (٨٥) .

أبرق الزبير في الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م غداة انتصاره على عرب الرزيقات الى مدير عموم قبلى السودان يشـرح له تفاصيل المعارك التى دارت بينه وبين عرب الرزيقات ونبا انتصاره عليهم ويطلب منه ارسال اورطتين عساكر واوردى باشـبوزق للاقامة بمرکز شكاً على أن يرسل بدلا منهم أربع اورطات من العساكر المستجدين . وقد صدق پوزباشى لبلوك ووكيل الاوردى الباشـبوزق على ما رواه الزبير ، للحفاظه على الامن بها ، وقد قام الحكمدار في غاية شعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م بعرض ما ذكر على خيرى باشا مقترحا ضرورة التاكيد من صدق رواية الزبير قبل ارساله للنجدة التى طلبها . كما أوضح الحكمدار انه أمر الزبير بالابقاء على العساكر ومن معهم بجهة مؤمنة وتنصيب وكيل على جهة شكاً من طرفه ممن يراه صالحا لذلك (٨٦) .

وفي الثانى من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م، أبلغ خيرى باشا مدير عموم قبلى السودان بالموافقة على مطالب الزبير وارسال اورطة عساكر

جهادية وأوردى باشيوزقى وسدفعين وتبلغه مبنونية الحضسرة
الخدوية والانعام عليه برتبة قائمقام (٨٧) مكافأة له مع البقاء بجهة
شكا لقمع العصاة والعمل على تأمين تلك الجهات ثم الحضسور
للخرطوم بعد ذلك للمداولة فى أمر تلك الجهات (٨٨) .

وقد وجد الحكمدار بعض الصعوبة فى توفير ما يحتاج اليه
الزبير من العساكر والمدافع رغم موافقة الحضرة الخديوية من
الخرطوم ، فأرسل الى خيرى باشا فى الرابع من رمضان سنة
١٢٩٠ هـ الموافق السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م
يقترح إرسال القوة المطلوبة من مديرية كردفان وذلك لقرىها من
شكا وتوافر أدوات ووسائل ترحيل العساكر بها أو الانتظار ريثما
يحضر الزبير الى الخرطوم للمداولة معه فى أمر هذه العساكر
وتسليمها له (٨٩) ، فجاءت الموافقة على اقتراحات الحكمدار فى
السادس من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن والعشرين من
أكتوبر سنة ١٨٧٣ م (٩٠) .

وفى الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من
نوفمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق خيرى باشا الى مدير عموم السودان
يطلب منه تعريفه باسماء أصحاب المصارع ببحر
الغزال الذين لم يقدموا المساعدة للزبير فى حربه ضد عرب
الرزىقات . وذلك تهيدا لتكليف الزبير بطردهم من هذه المناطق
بعد حضوره للخرطوم (٩١) . وفى العاشر من شوال سنة ١٢٩٠ هـ
الموافق الثانى من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق مدير عموم قبلى
السودان لخيرى باشا موضحا له اسماء أصحاب المصارع
الذين لم يقدموا مساعدتهم للزبير أثناء حربه مع الرزىقات (٩٢) .

وكان خيرى باشا قبل ان يصله هذا الخطاب الأخير قد أبرق لمدير عموم قبلى السودان فى الثامن من جنوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بتعليمات تقضى بضرورة اجابة الزبير لجميع مطالبه ومحاولة استئمانه بكل الطرق ، وتشويقه وترغيبه من جهة الحكومة عند حضوره للخرطوم للتشاور والتباحث بشأن المناطق الجديدة (٩٣) .

وفى الثانى من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق خيرى باشا الى حاكم السودان يؤكد له ما سبق بخصوص استعمال الحزم والاحتياط باجراء كافة الوسائل والوسائط اللازمة لاستئمان الزبير لجانب الحكومة وتجنب ما يغيره من جهتها والاحسان عليه برتبة القائم مقام وتقليده مديراً على جهة بحر الغزال ، وارسل مقدار من العساكر والجبجينة لامانته فى ذلك (٩٤) . وفى السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر ١٨٧٣ م أبرق حاكم السودان الى خيرى باشا يعلمه بأنه كتب الى مدير مديرية كردفان بارسل اريضة بلوكات جهادية ومائة خيل باشبوزق ، ومنفع بجبجينة كافية للزبير بجهة شكا هذا بخلاف ما عنده من بلوك جهادية ومنفع ومائة نفر باشبوزق بالاضافة الى ما تحت يده من قوات اخرى ، وأنه سوف يرسل للزبير الفرمان العالى بالرتبة التى منح اياها . كما ان التعليمات اللازمة لادارة المديرية وتنظيمها ارسلت اليه (٩٥) .

الزبير وعبد الله القعايشى :

كل من بين الاسرى الذين وقعوا فى يد الزبير بحلة السروج (٩٧) رجل يدعى عبد الله ود محمد آدم توشين لم يتردد الزبير فى الامر باعدامه اول الامر ، ولكن العلماء المرافقين للزبير

اعترضوا حين أمر الزبير باعدام عبد الله بحجة أن الشرع لا يجوز له قتل أسير من أسرى الحرب ، فضلا عن أن السياسة تنكر عليه اعدام رجل يعتقد الناس في صلاحه ويؤدي إلى اعتقاد الناس أن الزبير رجل طاغية . وأسلم هذه الأسباب عنها عنه الزبير . وعند فتح دار نور طلب عبد الله من الزبير أن يقطعه قطعة من الأرض ، فأقطعه الزبير . أياها على أن يكف عما فيه من الدجل والشعوذة ولم يعض سوى القليل حتى بعث للزبير بكتاب وهو في دارا يقول له فيه : « رأيت في الحلم أنك أنت المهدي المنتظر واني أحد أتباعك فأخبرني أن كنت مهدي الزمان لاتبعك » فرد عليه الزبير بالرد التالي « استقم كما أمرتك والا أعملت السيف في رقبتك انني لست بالمهدي المنتظر ، وانا أنا واحد من جنود الله يحارب من طغي وتمرد » ورغم ذلك لم يكف عبد الله عن الدجل والشعوذة حتى اشتهر أمره مع محمد أحمد المهدي في جزيرة آبا (٩٨) .

هذا ما كان من أمر رجل احترف الشعوذة والاتجار بدين الله وعليه لينال قوت يومه ، وكاد أن يفتنى اسمه من الوجود عندما أمر باعدامه بعد أن أسره وأودعه السجن في شكا جنوبي دارفور سنة ١٨٧٤ م لولا أن منعه العلماء من ذلك باسم الدين والسياسة (٩٩) .

الزبير والشيخان منزل وعليان :

بعد أن دخل الزبير بلاد الرزيقات فلتحا منتصرا في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م فر هذان الشيخان ، والتجأ إلى السلطان ابراهيم في الفاشر عاصمة دارفور للاحتباء به وكان الشيخ عليان هذا واحدا من عبيد الزبير ، اثنى بعد ذلك ثراء فاحشا بسبب اشتغاله

بالتجارة مع الزبير . وقد عبدا هذان الشيخان الى اثاره ثائرة
من تبقى حيا من مشايخ عرب الرزيقات . على الزبير للتمرد عليه
قبل التجاها للسلطان ابراهيم سلطان دارفور (١٠٠) .

وحين بلغ مسامح الزبير ذلك . ارسل الى السلطان ابراهيم
خطابا في الخامس عشر من رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن
من سبتمبر سنة ١٨٧٣ م يشرح له فيه :

اولا : موقف عرب الرزيقات قبل نشوب الحرب بينهم وبينه
وتعمدهم نهب اموال التجار وقتل البعض الآخر ومنعهم من المرور
الى منطقة بحر الخزال ، وعدم استجابتهم للانذارات المختلفة التي
وجهها اليهم الزبير حتى يكفوا عما يفعلوا بالمسلمين .

ثانيا : تفاخر هؤلاء العرب بما يملكون من فرسان وجياد
سريعة واسلحة لا قبل للزبير بها . قبل ان يعمل على حربهم .
ثالثا : تفاصيل المعارك التي دارت بين قواته وعرب الرزيقات
والتي انتهت بهزيمتهم .

رابعا : المعلومات التي وصلتته عن التجاء الشيوخين منزل
وعليان له وتحريضهما له على الدخول في حرب مع الزبير لاستعادة
بلادهم .

خامسا : مدى الخطر الذي سوف يلحق به وببلاده ، اذا
ما اخذ بكلام هذين الشيوخين ودخل في حرب معه فانه بذلك سوف
يتبع في حرب مع الدولة المصرية ذات القوة الغالبة والمدد غير
المتقطع وان الهزيمة سوف تلحق به .

سادسا : ضرورة تسليم الشيوخين منزل وعليان له وارسلاتها
تحت حراسة مشددة كي يستطيع ان يستخلص منها حقوق
المسلمين التي اهدراها .

سابعاً : أوضح له في خاتمة الخطاب ما كان من عظيم المودة وحسن العلاقة بين كل من خديو مصر ووالده السلطان حسين ، وطلبه بضرورة استمراره في نفس العلاقة ، وألا يعمل على انساها (١٠١) .

وعلى الرغم مما ورد في هذا الخطاب من جملة نصائح وتحذيرات . فان السلطان ابراهيم ظل حاقداً على الزبير لدخونه بلاد عرب الرزيقات التي كان يعتبرها جزءاً من مملكته ، فلم يرد على خطاب الزبير . بل ارسل الى الشيخ مادبو بن علي (١٠٢) وغيره من مشايخ عرب الرزيقات خطاباً مشحوناً بالسباب والشتم في الزبير يقول لهم فيه : « لا تظنوا أنني أترك البلاد لهذا الطاغية الجلابي ، وها أنذا أمد الجيوش للزحف عليه وطرده من البلاد بالفزى والخسران » (١٠٣) .

وقد وقع هذا الخطاب في يد الزبير . وبعد اطلاعه عليه أرسل للسلطان خطاباً مؤرخ في الواحد والعشرين من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثاني عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م يطلب منه فيه :

أولاً : ابداء الأسباب التي دعت الى الاكثار من الفاظ الشتم والسباب ضد في خطابه للشيخ مادبو بن علي حيث اتهمه بأنه طاغ وجلابي أي ظالم وتاجر رقيق ، وأوضح له أن دخوله بلاد عرب الرزيقات كان من أجل تأديبهم نتيجة الأعمال التي اقترفوها ضد توافل التجارة والتجار .

ثانياً : تسليم الشيوخ منزل وعليان ، سببي الفتنة والوقعة كما سبق أن طلب ذلك في خطابه السابق .

ثالثا : عدم المخاطرة بدخول حرب ضده والا فمستلحقته الهزيمة .

رابعا : عدم توقع خروجه (أى الزبير) من بلاد الرزيقات بالقوة أو الحرب ، بل أن أراد السلطان ذلك فيكون بالتراضي والاتفاق بينه وبين السلطان وجناب الخديو ، على شرط دفع نفقات الحملة ، فإذا فعل ذلك وأمره الخديو برفع يده عن البلاد .
فحينذاك سوف يخرج منها (١٠٤) .

وقد ذكر عبد الرحمن زكى أن الزبير أراد بهذه الحملة فى المراسلات السياسية أن يضع السلطان أمام الأمر الواقع ، وأن ينقل عليه بالمطالب فلا يستطيع تنفيذها . حينئذ يجد الزبير سببا فى قتاله وفزو دارفور (١٠٥) .

من المؤكد أن الزبير لم يكن يريد ذلك . بل نهادى عرب الرزيقات فى أمالهم الاستفزازية واحترامه لسيادة السلطان على الأراضى التى كان يدعى ملكيتها وهى شكا . . هى التى دفعته الى الكتابة الى السلطان لكى يقوم بتأديبهم أو يقدم ما يمكنه من المساعدة للزبير لكى يقوم بتأديبهم . ولكن السلطان لم يأبه بكل هذا ، فكان من الزبير أن قام بهذا العمل منفردا حتى أمكن الأمن والسلام أن يعودا لهذه البلاد . وأن تستمر حركة التجار دون توقف وهى عصب الحياة وشرائنها فى هذا الوقت . وقد كان الدافع لقيام الزبير بمراسلة السلطان فى المرة التالية هو الفتنة التى بثها للسلطان كل من الشسييفين منزل وعليان ، والتى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير والسلطان كما سيجيء فى الفصل التالى .

تميين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا :

(سنة ١٢٩٠ هـ - سنة ١٨٧٣ م) :

اراد الزبير أن يستوثق من معاونة الحكومة له ، وأنها لن تسدد له طعنة من الخلف ، وهو يقاقل عرب الرزيقات ، فأرسل إلى حاكم السودان الجديد اسماعيل باشا أيوب يبلغه بتفاصيل ما حدث ، ويطلب منه أن يرسل حاكما بقولى حكم البلاد التى فتحها فى بحر الغزال وتخدم دارفور (شكا) بالنيابة عن خديو مصر (١٠٦) وختم رسالته « فإذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد غدت أنا إلى تجارتى تاركا كل ما انفقت من الأموال فى الفتح هدية لحكومتي السنية ، وانتظرت مكافئتها الادبية حسبها تقتضيه عدالتها وكرمها » (١٠٧) . وقد قام الحاكم ببلاغ القاهرة برغبة الزبير ، فلم تلبث الحكومة المصرية أن بعثت إلى الحاكم ببرقية من الحادى عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق السابع والعشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ م تمنح فيها الزبير الرتبة الثانية مع لقب بك مع التوصية ببلاغه هذه الرتبة واعتباره بها اعتبارا من تاريخ صدورها (١٠٨) . وقام الحاكم ببلاغه بما جاء ببرقية الحكومة بعد توجيه شكر جناب الخديو له على حسن ولائه ورغبته فى وضع البلاد التى فتحها بين يديه ليولى عليها من يشاء . مانحا اياه الرتبة الثانية مع لقب بك ويقولى أمر مديرية بحر الغزال وشكا نظير جزية يدفعها لخزانة الحكومة المصرية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه سنويا . فقبل الزبير دفع هذه الجزية وتولى أمر البلاد رسميا وشرعيا ، وشرع فى تنظيمها وعملتها والعمل على اشاعة العدل بها يتناسب مع منحة الحكم المصرى فى هذه البقاع ، ولكن السلطان ابراهيم لم يطلق صبرا على بقائه فى شكا فلم يلبث أن أصدر أوامره الى أحمد شمس طه قائده فى دارا التى تقع على الحدود الجنوبية لمملكته ، وسعد النور قائده فى الشرق ، فأخذا

فى حشد الجيوش وامداد العدة لاجراج الزبير من شكا . ولكن حركات هذين القائدين لم تغب عن عيون رجال الزبير فكان رجاله يبلغونه أولا بأول بهذه التحركات ، فيقوم بإبلاغها بالتالى الى الحكمدار فى الخرطوم ، فيرغمها الى الخديو اسماعيل فى القاهرة (١٠٩) .

ومما يذكر ان حكمدار السودان كان قد بعث الى خيرى باشا ببرقية فى السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م يستأذنه فى الكتابة الى سلطان دارفور لتبليغه بان الزبير قد صار تعيينه بصفة رسمية مديرا على جهات بحر الغزال وبحر العرب والقبائل التابعة لها حتى لا يظن السلطان بان الزبير يقيم بجهة شكا من تلقاء نفسه ، كما ابلغ الحكمدار خير باشا بأنه قد تكد على الزبير بعدم التمردى على حدود دارفور حتى يكون هناك مودة وحسن جوار ولا تنقطع التجارة بين البلاد . وقد جاء رد خيرى باشا فى التاسع من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م بعدم الكتابة للسلطان فى هذا الخصوص وذلك حسب ما تقتضيه الإرادة السنية (١١٠) .

هذه هى قصة الزبير منذ غادر مقره فى بحر الغزال لتأديب عرب الرزيقات ، وفتح الطريق بين مديريته ومديرية كردفان ليحضر بعدها الى الخرطوم ، حيث يتفق مع الحكمدار على ادارة مديريته الجديدة ، ولكن الظروف سلبته من حرب عرب الرزيقات الى حرب مع سلطنة دارفور .



هوامش الفصل الثانى

- (١) مكى شبكة (دكتور) : السودان عبر القرون ص ١٦٤ .
- (٢) بلل الحكومة البلجيكية والبرتغالية .
- (٣) زاهر رياض (دكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ص ٨٥ - ٨٦ .
- (٤) أحمد باشا المنكلى : تولى بمصب الحكمدارية فى السودان فى عهد محمد على من سنة ١٨٤٣ م الى سنة ١٨٤٥ م الموافق سنة (١٢٥٩ هـ - ١٢٦١ هـ) .
- (٥) عباس الاول : حكم مصر بعد محمد على ابتداء من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٢ م ، وفى عهده الذى احتكر الحكومة لتجارة النسيج ، وضعت سلطة الحكومة على السودان التى لم تتمتع جنوب الخرطوم حتى زالت نهائيا فى الاجزاء البعيدة حين ظهرت الجماعات المسلحة وانتشرت الزرائب والمخلفات التى انشأها التجار الأوربيون وغيرهم .
- (٦) سعيد باشا : حكم مصر ابتداء من سنة ١٨٥٤ حتى ١٨٦٣ م وحاول سعيد باشا اصلاح الحالة التى انهارت حتى كادت تعود الى ما كانت عليه قبل محمد على وذلك بسبب ضعف الدولة المثمانية .
- (٧) مكى شبكة : (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
- (٨) اسماعيل باشا : وهو ثاقى انجال ابراهيم باشا ، تولى الحكم بعد وفاة محمد باشا من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ م وقد اختلفت سياسته عن كل من سبقوه ، فاتجه نحو انخراط مصر ضمن نطاق الدول الأوربية ، فأدخل الحضارة الأوروبية اليها ، فغيرتها المدنية والتقدم وخاصة بعد ان حصل على غرضان الوراثة المدنية على مصر وجنوب بلقانها فى سنة ١٨٦٦ م .
- (٩) موسى حدى باشا : تولى الحكمدارية سنة ١٨٦٢ م ولدة ثلاث سنوات انتهت بوفاة فى ٦ مارس سنة ١٨٦٥ وقد سر الخديو اسماعيل باشا من أعماله وفى عهده صارت السودان فى أحسن حال .

(١٠) جعفر باشا مظهر : تولى حكداية السودان من ١٨٦٦ الى ١٨٧١ م
الموافق ١٢٨٢ - ١٢٨٧ هـ فى عهد الخديو اسماعيل باشا انضم عليه الخديو برهبة
اللواء وبالنشيان المجهدى .الغالى ومسمى جعفر باشا مظهر حاكما مابا للسودان .
(١١) مكى شيبكة (دكتور) السودان فى قرن ص ص ٨٠ - ٨٢ .

(١٢) السير صمويل بيكر : S.S. Baker ولد سير صمويل هوايت
بيكر فى ٨ يونيو سنة ١٨١١ ونشأ فى مزرعة ابيه وأتم علومه فى فرانكسورت
بالمانيا حيث هوى الصيد واستخدام السلاح الناري الى درجة الاجادة ثم سافر
الى جزيرة سيلان حيث قضى زهرة شبابه (١٨٢٥ - ١٨٥٥ م) وبدأ فى عام
١٨٦١ رحلته الكشفية من القاهرة للبحث عن منابع النيل وكشف بحيرة الجبرت
فى ١٨٦٤ م ، ويعودته الى لندن احتككت به الجمعية الجغرافية وبلغته ميدالياتها
الذهبية كما منحت الحكومة لقب فارس . وقام بهيئة الفصحيرة فى اعلى
النيل ١٨٦٦ - ١٨٧٣ م ثم خدم الابراطورية البريطانية كمستشار لها فى قبرص ،
وتوفى فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩٣ م .

(١٣) ولد شارلس جورج جوردون فى مينة ولويس بانجلترا سنة ١٨٢٢ م ،
وانظم فى سلك العسكرية بعد ان درس علومها فى المدارس الحربية سنة ١٨٥٢ ،
واشترك فى حصار باستجول سنة ١٨٥٥ م وفى ١٨٦٠ سافر الى حرب الصين
وبقى هناك الى سنة ١٨٦٥ م ، ثم عاد الى انجلترا وقد رقى الى رتبة الكولونيل
فى الجيش ، وفى ١٨٧١ اتى عليه ولى عهد انجلترا عند مروره من مصر ذاهبا
الى الهند امام الخديو اسماعيل . واقام بقرنقه وسمينه مكان صمويل بيكر حاكما
بخيرية خط الاستواء تصدرت الاوامر بتمينه .

(١٤) اسماعيل باشا ايوب : تولى حكداية السودان ١٢٨٩ -
١٢٩٣ هـ « ١٨٧٣ - ١٨٧٧ م » قسمت البلاد فى عهده الى محيريات وجعل كل
مدير مسئولا عن محيرته ومستقلا عن باقى الحكداية وفى عهده تم فتح سلطنة
دارفور بفعل مساعدة الزبير باشا رحمة للحكومة .

(١٥) زاهر رياضى (دكتور) : المرجع السابق ص ص ٨٦ - ٨٧ .

(١٦) ايفلين بانرج : وهو القنصل العلم لانجلترا فى مصر وقد عرف عينا
بعد باسم اللورد كرومر .

(١٧) Moorehead, Alan : The White Nile PP. 183 - 185 .

(١٨) شوتى الجبل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى
البحر الاحمر من ٢٢١ انظر الوثيقة رقم (١٠) بلحق وثائق نفس الكتاب .
(١٩) زاهر رياضى (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢٠) رومولو جيسى Romolo Gessi وهو ايطالى الجنسية ولد فى سنة ١٨٢٢ م فى القسطنطينية لام امريكية واب ايطالى وكان قصير القامة ، قوى البنية ، هادئا ، مليا ، عبقريا بطرته فى.. أعمال الميكانيكا ، شغل كثيرا من الوظائف السياسية البسيطة ، وكان يتوجها للقوات الملكية فى كريبا ، وكان يخدم فى المدفعية الملكية وبينه وبين جوردون شبه كبير فكلاهما رجل حرب وكان جيسى قد التحق بخدمة الحكومة المصرية فى السودان ومكث فى منطقة بحر الغزال علما او اكثر بعد رحيل جوردون ، وفى أثناء عودته الى الخرطوم وبريقلته ٢.٠٠٠ شخص تعرفت الرحلة لمدة ثلاثة شهور مخفية فى منطقة السنود مات أثناءها أغلب رجاله ، اما هو فقد مات غور ووصله مصر . وكان جيسى قد دخل السودان براس مال قدره عشرة جنيهات فقط وخرج منها ومعه ٥٠.٠٠٠ الف جنيه وعشرة آلاف اوقية من الذهب هذا الاشياء الفضية الا ان رفاقه اقتصبوها عندما غاض روحه عند وصوله السويس فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ م الموافق ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢١) جاكسون هـ . س : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) ، جوردون بلقا من ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢٢) معاهدة الغاء تجارة الرقيق : واهم ما جاء بها :

- ١ - منع تصدير الرقيق
- ٢ - ازالة العقوبة بالتجريد وتسليم الأجانب منهم الى قناصلهم من أجل محاكمتهم .
- ٣ - تزويد الرقيق المحرر بأوراق العتق .
- ٤ - استخدام الوثيق المحرر فى أعمال مناسبة .
- ٥ - اعطاء الحكومة بقرية أولادهم .
- ٦ - اعطاء الطرادات البريطانية حق تفقش سفن مصر فى البحر الاحمر وظليج عدن .
- ٧ - تحريم بيع الرقيق فى مدى سبعة أعوام .
- (٢٣) زاهر رهاش (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢٤) منطقة بحر الغزال : وهى من بحيريات السودان ومن أهم مائها وائ التى تقع على نحو ١١٢ ميلا من مشرع الزيك وهى عاصمة البلاد بعد الفتح الأخير وكذلك ديم الزبير وهى عاصمة البلاد فى الفتح الأول وبها حجرة النحاس .

(٢٥) محمد مبرى (دكتور) : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢١ .

Churchill, W. : The River war P. 16. (٢٦)

Sparrow, G. : Gordon Mandarin and Pasha P. 94. (٢٧)

(٢٨) ورد ذكره في بعض الوثائق على أنه « محمد البلالى » ولى اليمص
الأخر فكر أنه محمد الهالى .

Puncan, J.S.R. : A Record of a Chievement P. 12. (٢٩)

(٣٠) مكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق من ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣١) سعد الدين الزبير : الزبير باقا رجل السودان من ١٥٤ .

(٣٢) انظر الوثيقة رقم (١) دفتر رقم (٥٧٧) عابدين صادر محبة سنوية

مكتبات تركى من ص ١٦٨ ، ١٨٤ مكتبة رقم (٤) .

(٣٣) مكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق من ص ٨٣ .

(٣٤) كجوك على اما او كوفجوك على : كما ورد ذكره في بعض الوثائق .

(٣٥) انظر الوثيقة رقم (١) .

(٣٦) المسامر الباشوزنى اى الجنود غير النظاميين .

(٣٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٣٨) مكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق من ص ١٦٤ .

(٣٩) انظر الوثيقة رقم (٢) دفتر رقم (٧) عابدين صادر تلفزيونات شفرة

تركى من (٢٢/٢٤) تلفزيونات رقم (٤٣٠) .

(٤٠) انظر الوثيقة رقم (٢) دفتر رقم (٨) عابدين صادر تلفزيونات عيسى

شفرة من (١٣/٢٥) تلفزيونات رقم ١٥٢ .

(٤١) انظر الوثيقة رقم (٤) دفتر رقم (٥٨٣) صادر محبة سنوية مكتبات

تركى من (١٤) مكتبة رقم (١) .

(٤٢) حجرة النحاس : تقع على مسيرة سعة ايام الى الشمال من منطقة

منجة . وعلى الحدود الجنوبية لدارفور وكان النحاس ينقل منها الى الاسواق

على صورة حلقات رديئة الصنع متعددة الزوايا يراوح وزنها ما بين خمسة

وخمسين رطلا او ما يزيد ، او صورة اشكال بهشوية الشكل غير متقنة الطرق .

وكانت المائة رطل من النحاس يساوى لنا وخمسمائة قرش أى ما يوازي خمسة

عشر جنيهها انجليزيا وكان بالغ النقاء حتى انه يفوق ذلك المستورد من أوروبا ،

وكان بالامكان استخراج تسعة وخمسين قطارا من النحاس من الملة قطارا من

النحاس الخام ، ولم يكن هذا العمل شاقا ، فقد كان من بين اتباع الزبير من اعداد

العمل في هذه المناجم وكان الزبير قد ارسل هيئة من النحاس المسفوح الى

العامة لخصها عندها مين مديرا لبحر الغزال موجودوا أن النحاس المستخرج
بنا نقي ومعالج للاستغلال ، وكان ينفذ الأقاليم ويستخرجونه بالطرق البدائية
ويستعملونه بعد ذلك في عمليات المصهنة .

(٤٣) شوق الجبل (دكتور) : تاريخ السودان وادي النيل ج ٢ ص ١٧٠ .

(٤٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٤٥) Schweinfurth, G. : The heart of Africa PP. 195 — 197

(٤٦) قطع على مسيرة خمسة أيام من ديم الزبير .

(٤٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤٨) انظر الوثيقة رقم (٥) دفتر رقم (١٢) وارد عبيدين لطفرات مري

ص (١٨/٣٦) طفرات رقم (٢٨٠) .

(٤٩) انظر الوثيقة رقم (٦) دفتر رقم (١٨٥) وارد عبيدين محبة سبية

مكتبات ص (٤٢) مكتبة رقم (٨) .

(٥٠) لم يتم العثور على هذه الرسالة ضمن الوثائق المحفوظة بدار الوثائق

التاريخية أو في مراجع السودان .

(٥١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٧ — ٤٨ ، ١٥٥ .

(٥٢) جعفر باشا يظهر : (١٢٨٢ — ١٢٨٧ هـ الموافق ١٨٦٦ — ١٨٧١ م)

انتم عليه اسماعيل باشا برتبة اللواء والنيشان المجدي الثاني وسى جعفر باشا

مظهر حاكما عاما للسودان بمقتضى الخرطوم في ٧ شوال ١٢٨٢ هـ الموافق ٥ مارس

١٨٦٦ م وحدث في عهده فلاء فلاحين بالخرطوم حتى هاج النمل ، وفي ١٨٦٦ م

ذهب الى منار غازي وكوردان غامططع أحوالها ومك الى الخرطوم وطلب

رد المصاكر السودانية الى مصر وفي ١٨٦٧ م أرسله اسماعيل باشا في مهمة

الى البحر الأحمر نعد منها في سنة ١٨٦٨ م وفي عهده كانت حملة البلالى

المشورة واكتشاف سير صوبيل بيكر لبحيرة البرك .

(٥٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٨ — ٤٩ .

(٥٤) رابع فضل الله : ولد في سلالة باشا بالخرطوم سنة ١٨٤٦ م

متحدر من قبيلة الهب ، وكان والده فضل الله يعمل في الجيش المصري ، وعلى

يدى المصريين من موظفي الحكومة بالخرطوم تعلم رابع القراءة والعلوم الأولية كما

حفظ القرآن ، وحين اشهد ساعده عمل في الشركات حتى وصل الى وكيل شركة

وهي الشركات التي كونها تجار الرقيق ، وقد لح اسم رابع محترقا بلسم الزبير

لانه كان سيئه المنصر في هويته في كل من بحر الغزال ودارفور وحين حضور

الزبير الى مصر نراه يخلص لآين زعيمه سليمان في حروبه ضد السيطرة الاجنبية في السودان ، ولكن حين اغيد سليمان سيفه واستكان لوعود رومولو جسي بالعتو منه فغالبه وذكره بوالده المعتقل في مصر ثم لوى زمام نمرسه الى غرب السودان ومعه اربعمائة واثم فارسي .

(٥٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥٢ .

(٥٦) انظر ملحق الوثائق الوثيقة رقم (٦) .

(٥٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٥٢ - ٥٣ .

(٥٨) Jackson, H.C : the black ivory and white PP. 43 — 44 .

(٥٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٦٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٥٤ - ٦٠ .

(٦١) مكى شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٢) شوتى الجبل (دكتور) : المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٦٣) مكى شبكة : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٤) آدم باشا : كان من اعظم شباط الجيش المصري المنظم وقد تولى امر مصر ورائق ابراهيم باشا الى بلاد الشام فاشتهر بالبسالة والالام ونسب لفساد لاضاد ثورة بها وهو عربى الجنسية وابوه محمد شو البيت شيخ عريان دار حامد بكردنان .

(٦٥) انظر الوثيقة رقم (٧) دفتر رقم (١٨٦٤) وارد معية سنية مكاتبات ص (٢٨) مكتبة رقم (٤) .

(٦٦) مكى شبكة (دكتور) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٧) انظر الوثيقة رقم (٨) دفتر رقم (١٨٧٢) وارد معية سنية مكاتبات عربى (١٧) مكتبة رقم (٧٨) .

(٦٨) خبرى باشا : كان يشغل وظيفة مبردار الخديو اسماعيل باشا .

(٦٩) انظر الوثيقة رقم (٩) دفتر رقم (١٤) صادر مابدين طفرانك ص (٢٣/٤٥) لفراف رقم (٣١٩) .

(٧٠) انظر الوثيقة رقم (١٠) دفتر رقم (١٨٦١) صادر معية سنية عربى مكاتبات ص (٧١) مكتبة رقم (١٧) .

(٧١) عرب الرزيقات : اذا اخبرتنا حدود كردنان الجنوبية دار العرب الى دافور . بخلفا بلاد الرزيقات نجد عرب الرزيقات الذين يظنون انهم قبائل دارفور ثروة واغواهم نفوذا ، واوطانهم تقع في أقصى الجنوب الشرقى لدارفور ، هي

الحجر شرقا ، وقبال الهبتة غربا ، والدنكا جنوبا ، وينقسم الرزيقات الى ثلاثة اقسام هم الماهية والمجايد والنوابنة ، وهناك ثلاثة قبائل بهذا الاسم في شمال دارفور كلها تعمل برعى الإبل ، وبعضها يهوى على حدود دار وإدائى ، وهذا ما يحمل على الفلن من أن شمعية من كل من هذه القبائل الثلاث قد هاجرت الى الجنوب وعاشت في أوطانهم متجاورة ، ثم اتحدت فكونت قبيلة الرزيقات التي أصبحت من أعظم وأشهر قبائل القارة .

(٧٢) مكى شببكة (لكتور) : المرجع السابق من ص ٨٤ - ٨٥ .
(٧٣) انظر الوثيقة رقم (١١) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنوية مكاتبات من (٣) مكاتبة رقم (٦٤) .

(٧٤) انظر الوثيقة رقم (١٢) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين ظفرانات شقرة تركى من ص (٥/١٠ ، ٦/١١ ، ٦/١٢ ، ٧/١٣ ، ٧/١٤) ظفراف رقم (٧) .
(٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٧٦) باية : وهي التي اتخذها الزبير عاصمة له في بحر القزال وعرفت فيما بعد باسم نيم الزبير ثم يدعى سليمان الزبير الفصل الأول .
Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 51. (٧٧)

(٧٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق السابق من ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
(٧٩) شكا : عاصمة بلاد الرزيقات واحد مراكز تجارة الرقيق المهمة .
(٨٠) نعم شقير : المرجع السابق من ص ٦٦ - ٦٩ .

(٨١) مكى شببكة (لكتور) : المرجع السابق من ص ٨٥ .
(٨٢) نعم شقير : المرجع السابق ج ٣ ، ص ٦٩ .

(٨٣) الزبير رحبة : (جمعة ياسين عبد محمد) : الاجوبة السديدة في تهديد وانذار اهل المكدة من ص ٢ - ٤ .

(٨٤) مكى شببكة (لكتور) : المرجع السابق من ص ٨٦ .
(٨٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٦٧ - ٦٨ .
(٨٥) مكى شببكة (لكتور) : المرجع السابق من ص ٨٦ - ٨٧ .
(٨٦) انظر الوثيقة رقم (١٣) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين ظفرانات شقرة مرسى من ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦) .

(٨٧) علقانم : وهي تعامل رعية العهد في الربيع الجديدة .
(٨٨) انظر الوثيقة رقم (١٤) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين ظفرانات شقرة عيسى من ص (١٧/٣٢ ، ٧/٢٤) ظفراف رقم (٢٠٠) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (١٥) دفتر رقم (٢١) وارد عبيدين تلغرافات شفرة
 عربى من ص (٣٠/٥٩ ، ٣٠/٦٠) تلغراف رقم (٢٥٨) .
 (٩٠) انظر الوثيقة رقم (١٦) دفتر رقم (١٦) صادر عبيدين تلغرافات شفرة
 من ص (١٧/٣٤ ، ١٨/٣٥) تلغراف رقم (٢٠٧) .
 (٩١) انظر الوثيقة رقم (١٧) دفتر رقم (١٦) صادر عبيدين تلغرافات شفرة
 عربى من (٢٧/٥٣) تلغراف رقم (٣٤٨) .
 (٩٢) انظر الوثيقة رقم (١٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عبيدين تلغرافات شفرة
 عربى من (١٧/٢) تلغراف رقم (٨) .
 (٩٣) انظر الوثيقة رقم (١٩) دفتر رقم (١٦) صادر عبيدين تلغرافات شفرة
 عربى من ص (٢٦/٥٣ ، ٢٧/٥٣) تلغراف رقم (٣٤٦) .
 (٩٤) انظر الوثيقة رقم (٢٠) دفتر رقم (١٦) صادر عبيدين تلغرافات شفرة
 عربى من ص (٤٢/٨٣ ، ٤٢/٨٤) تلغراف رقم (٥٠٦) .
 (٩٥) انظر الوثيقة رقم (٢١) دفتر رقم (٢٢) وارد عبيدين تلغرافات شفرة
 عربى من ص (٢٦/٥١ ، ٢٦/٥٢) تلغراف رقم (٢٧٤) .
 (٩٦) عبد الله النخيلسى : وهو من قبيلة التعيشة من فرع الجباراب من
 بطن يقال له أبو صرة وجده يدعى أحمد تمايشى ، وقد فتن جده هذا فى هيجلجة
 من أعمال شكا لما تولى الخلافة فى عهد المهديّة أبر أصحابه بحمل هبة قوى شريجه
 ودعا الناس لزيارته . وكان عبد الله يعرف بعلى الكرار من بلاد النجدي الذى تقع
 بين وادى ولروج بكتر بن ابراة منون ارملة ولدت له عبد الله سنة ١٢٦٦ هـ
 الموافق ١٨٥٠ م كان والده يؤمّه المرضى وذوو الاستقام يلتصقون عنده الضفاء
 بما يطوه من القرآن فلما تقدم به السن قام عبد الله مقامه فى هذه الصناعة الى
 أن دعاه عرب الرزيقات عند نشوب الحرب بينهم وبين الزبير لقراءة الاسماء لهم
 لعلها تنفض على سلاح الزبير ورجاله فلا يطلق النار فى ساحة الحرب وتعاودوا له
 فى مقابل هذا بهرة طوب وقد نشأ عبد الله هذا ولم تكن له رغبة فى التعليم ولم
 يحفظ القرآن الا بعد جهد شديد .

(٩٧) حلة السروج : تقع بين مركز شكا ودارا ببلاد دارفور .

(٩٨) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ من ص ٧٠ — ٧٢ .

(٩٩) Henderson, K.D.D. : The Sudan Republic P. 35.

(١٠٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ من ص ٧٢ .

(١٠١) الزبير رحمة (جمعة ياسين حمد محمد) : المرجع السابق من ص

- (١٠٢) نعوم شعير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٢ .
- (١٠٣) ملاهو بن علي : شيخ مشايخ قبيلة حرب الزيديات
- ١٠٤ - (١٠٤) - الزبير - رغبة (جمعة ياسين - حمد محمد) : المرجع السابق ص ١٠ - ٦
- (١٠٥) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر ، أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٢ .
- (١٠٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٢ .
- (١٠٧) نعوم شعير : المرجع السابق ج ٣ ص ٧٤ .
- (١٠٨) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ .
- (١٠٩) نعوم شعير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٤ .
- (١١٠) انظر الوثيقة رقم (٢٢) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين لقرائنات شجرة عيسى ص (٢٦/٥٢) . لفراف رقم (٢٧٠) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٣) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين لقرائنات شجرة عيسى ص (٤٤/٨٨) لفراف رقم (٥٣٦) .



الفصل الثالث

الدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور

الدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور

اولا : الاسباب التى أدت لغزو سلطنة دارفور :

اتسمت العلاقات بين مصر ودارفور(١) لفترة غير قصيرة تمتد الى ما قبل تولى محمد على الحكم فى مصر بالطابع العدائى ، وكان من اسباب ذلك هو طموح محمد على نفسه ومن تولى من بعده الحكم فى مصر — حتى قدوم الخديو اسماعيل باشا — فى ضم هذه السلطنة الى الممتلكات المصرية فى السودان(٢) وظلت فكرة غزو سلطنة دارفور ، واخضاعها لسلطة الحكومة المصرية هدفا وللايرادان كل من تولى حكم مصر ، الا ان الجهود التى كانت تبذل فى هذا السبيل كانت تتعثر فى اغلب الاحيان لاسباب كثيرة منها سياسة الحذر التى اتبعها كل من تولى حكم دارفور من السلاطين فى اقامة اى نوع من العلاقات مع حكام مصر خشية اتاحة الفرصة امام هؤلاء للتدخل فى الشؤون الخاصة بالسلطنة .

وفى اواخر القرن التاسع عشر تجتمعت الاسباب القوية التى جسدت فكرة غزو دارفور ، وضرورة اخراجها الى مجال التنفيذ الفعلى . وفى سنة ١٨٧٤ م ساعدت عدة عوامل وعجلت بسقوط هذه السلطنة فكانت فترة حكم الخديو اسماعيل هى الفترة

التي شهدت نهاية الماضي الطويل لسلطنة دارفور ، ويمكن أيجازاً
هذه الأسباب في النقاط الآتية :

أولاً : الحاجة الى إلغاء تجارة الرقيق في السودان الغربي
(دارفور وما جاورها)

ثانياً : الخوف من أن تصبح دارفور بمسرعة مركزاً لتجميع
تجار الرقيق — وهم غير المرغوب فيهم والمتنكبون — مما يهدد
سلطة حكومة الخديو في السودان .

ثالثاً : قوة الزبير رحمة كتاجر الآخذة في النمو والازدياد (٣) .

رابعاً : قبائل الرمسة التي تعيش بكردفان لم تكن لتكثر
بالحُدود السياسية ، بل تهرب خارج تلك الحدود عند مطالبتها بدفع
الضرائب ، أو عند اقتراحها أعبالاً تستحق العقاب .

خامساً : كانت حكومة دارفور قد بلغت درجة كبيرة من
الضعف ، وكان النزاع على السلطة فيها قد بلغ درجة خطيرة (٤) .

وفي سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م كانت السلطات في
القاهرة متسكة بالرأى القائل بأن غزو دارفور سوف يفسد
النهاية السريعة لتجارة الرقيق . وكان يشارك في هذا الرأى
من كان على دراسة تامة بحجم وإبعاد مشكلة الرق وتجار الرقيق
في هذا الجزء من إفريقيا . وكانت الرقابة المحكمة على النبال
الابيض هي التي أغلقت هذا الأمر الرئيسى في وجه تجار الرقيق .
وتحت إدارة كل من سير سمويل بيكر S.S. Baker وجوردون
Gordon أمكن طرد تجار الرقيق من أعالي النيل والنتج
عدد كبير من هؤلاء التجار الى دارفور حيث شجعهم هناك
على الاستمرار في تجارتهم سسلطان الفور وبين حسيين بن

الفضل (٥) . الذى كان معظم دخله يعتمد على تجارة الرقيق بعد ذلك أصبحت دارفور هى الملجأ الأمين لتجارة الرقيق فى غرب السودان ، وكانت عمليات تهريب الرقيق الى السودان ومصر مستترة . لذلك كان القصد الرئيسى هو وقف عمليات التهريب هذه فعمد جوردون الى اقامة بعض النقاط العسكرية على طول نهر السوبات مع اتخاذ بعض الاجراءات العسكرية ضد هؤلاء التجار . وبالرغم من ذلك فان التجار كانوا يقومون بتهريب رقيقهم خلال كردفان الى النيل الأبيض أو عبر صحراء مصر ، وقد تأكد وثبت فى الاذهان ان اخضاع تجارة الرقيق لن يكون ذا فاعلية ، الا اذا تم غزو سلطنة دارفور وفتحها اطم التجارة المشروعة وبهذا العمل سوف تقوم مصر باداء خدمة مظهرية للإنسانية . وقد كانت سلطنة دارفور لمدة طويلة تحوطها الكراهية من جانب العالم الخارجى نظرا لكونها مركزا لهذه التجارة الممقوتة . وبعد اتمام فتحها والقضاء على هذه التجارة سوف تكون محطاً للتأثيرات الحضارية الوافدة والمفيدة من جميع أرجاء العالم الخارجى .

وفى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م أصبح جزء من دارفور مكانا يجتمع فيه اغلب تجار الرقيق الذين استاموا من الاجراءات التى اتخذها ضدهم . الخديو اسماعيل باشا . وكان الخوف من أن يقوم هؤلاء التجار والمؤيدون لسلطان دارفور بمحاولة الثورة ضد الحكومة اذا دعت الضرورة الى ذلك . ولم يكن هناك شك فى أن سياسة حكومة الخرطوم فى القضاء على تجارة الرقيق سوف تؤثر على ايرادات سلطان دارفور حسين بن الفضل وبالتالي على التحالف القائم بينه وبين تجار الرقيق . لذلك كان هذا الفزو ضروريا للاعتبارات السابقة ، وأيضا لمواجهة قوة الزبير التى استفحلت فى اقليم بحر الغزال ، وخصوصا بعد فشل البلاى نى حملته التى انتهت بمصرعه فى سنة ١٨٦٩ م الموافق ١٢٨٦ هـ

والتي أصبح للزبير بعدها مكانة وسلطة واسعة بين اتباعه وتجار الرقيق في بحر الغزال . فكان اسقاط الزبير وضم ملكة دارفور الى مصر هما عين ما تريده حكومة الخديو في القاهرة .

وبرغم أن ضم دارفور لم يكن من بين أهداف حملة البلالي بل كان الهدف كما سبق من هذه الحملة هو اسقاط الزبير ، والقضاء على ما لتجار الرقيق من نفوذ في بحر الغزال . ورغم ذلك كان السلطان حسين على علم بهذه المغامرة التي سوف تقدم عليها الحكومة . فاستعد للموقف وأخذ حذره للدفاع عن نفسه وبلاده إذا ما حاول البلالي غزوها . وقد وصلت الى القاهرة أنباء هزيمة البلالي مما جعل الادارة في مصر تتور . ومع ذلك لم يتخذ جعفر باشا مظهر حكامدار السودان من جانبه أية إجراءات ضد الزبير . وفي سنة ١٨٧١ م عين اسماعيل باشا أيوب حاكما عاما للسودان وظهر أن هناك استعدادات تتخذ لارسال حملة ضد الزبير . وقد خاف الزبير انتقام الخديو منه لذا فقد عمل على تهدئة سلطات الخرطوم بكل وسيلة ، واعتذر عن أعماله السابقة ، وتوسل بكل تواضع طالبا العفو والسماح لحادثة البلالي ، ووعد في مقابل ذلك بهزيمة حدود دارفور ولما رأى اسماعيل باشا أيوب منه ذلك تخلى عن استعداداته العسكرية ، وكتب الى القاهرة في افضليا حضور الزبير اليها للتشاور ، وكانت الادارة في كل من القاهرة والخرطوم تنتظر تطور الأحداث في بحر الغزال قبل القيام بأي عمل مخادع ضد الزبير (٦) .

وقد ظهر أن الحكومة في القاهرة كانت تخطط سياستها في السودان لهدفين :

أولا : غزو سلطنة دارفور وضمها الى الممتلكات المصرية في السودان ، وبذا يمكنها القضاء على أهم مراكز التجارة غير الشرعية (تجارة الرقيق) .

ثانيا : القضاء على الزبير رحبة وما له من نفوذ وسيطرة في منطقة بحر الغزال ، وبذلك يمكنها أن تحكمها دون أدنى ازعاج من أى جانب .

استطلاع أحوال دارفور الداخلية :

فحتى هذا الوقت لم يكن يعرف عن دارفور سوى القليل من المعلومات الغامضة المستقاة من أصحاب القوافل التجارية وغير ذلك من المصادر المختلفة . لذا فقد رأت الحكومة المصرية أنه لابد من العمل على استكشاف أحوالها الداخلية بكل الطرق المتيسرة ممهيدا لغزوها . فطلبت من جعفر باشا مظهر أثناء حاكميته على السودان بحث مسألة مدى صعوبة أو سهولة الطريق المؤدية الى دارفور مع بحث أحوال هذه السلطنة ذاتها . فاطلع جعفر باشا مظهر على رحلة القونسي باللغة الفرنسية التي أرسلت للقاهرة لترجمتها . ولكن القاهرة أجابت بأنها مترجمة ، والمعلومات التي وردت بها قديمة وغير موثوق بها . لذلك أرسلت بعثة برئاسة القائم محمد نادى باشا الى دارفور . في التقرير الذى قدمه عن هذه الرحلة - ويقع في اثنتى عشرة صفحة - وصفنا لما شاهدته من ابتداء قيامه من جهة أبو حراز حتى وصوله الى الفاشر مركز حكومة دارفور ، وما جرى أثناء اقامته بظك الجهات من محادثات ونحوه وما سمعه من الاخبار والروايات كما هو مشروح تفصيلا بالأصل . كذلك كيفية معاملته هو ومن معه أثناء اقامتهم لدى السلطان ، وتضمن التقرير أيضا وصفا للطرق والدروب وحالاتها ، والبلدان التي مر بها ، والمسافات التي قطعها بساعات السير . وأشار نادى باشا في تقريره أيضا لظاهرة تجمع مياه الأمطار في اشد جوار التبلدى المحفورة الوسط (٧) .

وعن قوة وزير السلطان العسكرية ، وعن جيش دارفور ومدى بدائيته وأسلحته التي لا تخرج عن مجرد سيوف ورمح وجانب ضئيل من الأسلحة النارية . كما تكلم من الاحتياطات المشددة التي اتخذت معه وعدم السماح له بحرية الانتقال أو التجول . ونظام التشريفات السلطانية ، كما أشار إلى استفسارات السلطان عن مصر وعن نواياها تجاه دارفور فأجابها بأنها طيبة . وقد قدر نادى باشا أن حملة من ألفي رجل يمكنها فتح دارفور ، ويستنتج من التقرير بصحة عملة بأن غزو دارفور ممكن لعدم غرض السلطان لسلطته على جميع بقاع دارفور وكذلك لضعف جيشه (٨) . وقد اعتبرت المعلومات التي وردت بتقرير نادى باشا يمكن الأخذ بصحتها إلى حد بعيد . إلا أنها لم تكن الصورة المنشودة التي تريدها حكومة القاهرة عن أحوال دارفور .

ثانيا : اسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان ابراهيم :

١ - الدوافع السياسية والعسكرية :

كان هناك ما يشبه الاتفاق بين الزبير رحمة ومشايخ عرب الرزيقات استمر منذ مارس ١٨٦٠ م الموافق سنة ١٢٧٧ م وذلك من أجل فتح طريق للقوافل خلال أراضي الرزيقات من بحر الغزال إلى شكا ، وكان فتح هذا الطريق من الأهمية بمكان بالنسبة للزبير باعتباره التاجر الأول في بحر الغزال ، وخلصته بعد اغلاق طريق النيل الأبيض أمام التجارة غير المشروعة (الرقيق) بعد المحاولات التي قام بها جوردون خلال فترة إدارته للسودان في الاتهام الاستوائية . ومع ذلك فعندما نشبت الحرب بين الزبير والسلطان تكه في سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م (٩) نقض مشايخ عرب الرزيقات عهدهم مع الزبير فسلبوا ونهبوا واغتصبوا حراس الطرق حتى مدينة شكا . وبعد انتهاء هذه الحرب في

سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ حاول الزبير إعادة فتح الطريق الى شكا ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، حينئذ استغاث الزبير بسلطان دارفور (١٠) - الذى كان قد بسط نفوذه حديثا فى بلاد الرزيقات فى سنة ١٨٧٣ م الموافقة سنة ١٢٩٠ هـ - من تصرفات عرب الرزيقات وطلب مساعدته . ولكن استغاثته التى عبر عنها فى صورة رسائل للسلطان لم تلق أى صدى لديه . قام الزبير فى الأشهر التى تلت ذلك بمهاجمة بلاد الرزيقات ، وسقطت مدينة شكا فى يده وانهزم عرب الرزيقات ، وفى ساعات الحرب استدار الزبير للسلطان ابراهيم يطلب مساعدته واكنه لم ينجده بأى شئ وتبع ذلك قصة فرار الشيخين منزل وعليان ورفض السلطان تسليهما للزبير (١١) . وقد استاء السلطان من عقد مدينة شكا اهم مركز تجارى ، واعتبر كل اقليم الرزيقات جزءا من الاراضى التى تحت سيطرته ولذلك طلب السلطان من الزبير سرعة اخلاء شكا .

وفى نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ كان واضحا ان السلطان يريد الحرب وان الزبير قرر ان يستميل لتأييده حكومة الخديو ، وظهر ان السلطان ابراهيم كان لديه ما يكفيه من السلاح والبارود ، وان الزبير على علم بأن دارفور تستطيع ان تحشد جيشا ضخما فى ميدان القتال ، وقرر الزبير فى نفس الوقت ان يكون تدخل سلطة حكومة السودان مؤكدا فى حالة ما اذا نشبت الحرب بينه وبين السلطان لأنه بذلك سوف يضمن الا تسدد الحكومة له طعنة من الخلف ، كما أن فرصة انتصاره على السلطان سوف تكون أكثر تأكيدا . كل هذه المعانى كانت تدور فى ذهن الزبير منذ اراحت الحكومة اضمائة دارفور الى ممتلكاتها فى السودان . وفى نفس الوقت كانت القاهرة والخرطوم حريصتين على الا تدع الزبير ينفرد بثمار انتصارات جديدة فى

دارفور . لذلك حاول الزبير أن يضمن التوصية الحسنة والتأييد من جانب حاكم عام السودان . وفى نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ أرسل الزبير خطبا الى اسماعين باشا أيوب يحمل أخبار انتصاره على عرب الرزيقات واحتلاله لمدينة شكا . وقد قدم بالنيابة ممن اشتركوا معه فى فتح هذه البلاد هدية للحكومة الخديوية ، وطلب ارسال مدير يتولى بالنيابة عن الحكومة المصرية حكم هذه الأجزاء ، أملا فى أن يتوجه هو لتجارته ويستعيد ممتلكته كتاجر وفى نفس الوقت أبلغ السلطان ابراهيم بأن قواته لن تخلق مدينة شكا حتى يعلن السلطان خضوعه لحكومة الخديو فى القاهرة . ولكن السلطان استغفك بدوره بالقاهرة ، وحاول أن يمنع بشتى الطرق أى تحالف بين جيش الزبير وقوات الحكومة . منها أنه أرسل الكثير من الهدايا النفيسة الى القاهرة وأخذ يتوسل لدى الخديو ليعمل على وقف هذه الحرب التى بدأت أو أوشكت دون أدنى سبب يذكر من وجهة نظره ، ومع ذلك ذهبت هذه التوسلات هباء دون أى اعتبار لما قدمه . وكانت حكومة القاهرة قد سال لعبائها وطمعت فى غزو دارفور . وكان الوقت لأن يكون هذا الغزو فى يدها ، ولكن اذا سمح الزبير — الذى ذاعت شهرته — لنفسه أن يخصص غنار هذه الحرب بغيره ، فإن هذا يعنى عدم استجابته للاهتمامات المصرية التى كانت تهدف الى الاشتراك فى هذه الحرب . وكان يبدو أن هناك ترحيبا بخطة الزبير التى تهدف الى اشراك الحكومة فى هذه الحرب ، وإن اسماعيل باشا أيوب قد نصصح الحكومة بقبول العروض التى قدمها الزبير . وأنه أوصى باسناد ادارة كل من شكا وبحر الغزال اليه فى مقابل جزية سنوية يدفعها للحكومة . وفى نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ رقى الزبير الى رتبة البك ، وأسند اليه حكم اقليم شكا وبحر الغزال ، وقد تعددت الجزية بها يوازي ١٥٠٠٠ جنيه سنويا بدفعها

للحكومة . وعندما اقتربت الأمور من نهايتها تمكن الزبير من أن يعتمد على تأييد حكومة الخديو في القاهرة مصمما على الاستيلاء على دارفور (١٢) .

ويمكننا إيجاز أوجه الخلاف بين الزبير والسلطان ، التي كانت سببا في اندلاع الحرب بين الاثنين في النقاط التالية :

أولا : رفض السلطان مد يد المساعدة للزبير أثناء حربه مع عرب الرزيقات وتعاون السلطان معهم ضد الزبير ، وكذلك رفضه تسليم مشايخهم للزبير .

ثانيا : شعور السلطان إبراهيم بأن احتلال الزبير لبلاد شكا التي اعتبرها جزءا من بلاده فيه مساس بسيادته على أراضيه .

ثالثا : رفض الاستجابة للنداءات التي وجهها له الزبير بالكف عن التعاون مع عرب الرزيقات ، فكان هذا بمثابة تحقير من السلطان لهذه النداءات التي بعث له بها الزبير في صورة خطابات .

وقد قيل أن الزبير أراد بهذه الحيلة في المراسلات أن يضع سلطان دارفور أمام الأمر الواقع ، وأن يثقل عليه بالمطالب فلا يستطيع له تلبية أو تنفيذا . حينئذ يجد الزبير سببا في قتال عرب الرزيقات وغزو دارفور (١٣) .

ولم يكن صحيحا أن يضع الزبير السلطان في دائرة مضللة لا يستطيع الخروج منها أو أنه تعمد ذلك ، بل كان القصد الرئيسي من وراء رسائله للسلطان وخاصة الأولى منها هو توجيه النصيح والإرشاد له والتذرع بالصبر والأناة في فهم حقيقة الموقف حتى لا يقع فريسة للفتن التي كان ييثرها له زعماء عرب الرزيقات ، ويدخل في حرب لا يعلم نتائجها مع الزبير نفسه والحكومة الخديوية . ولكن عندما لم يستجب السلطان لهذه النصائح

والارشادات والتوجيهات بدأ أسلوب هذه المراسلات يأخذ أسلوبا آخر وشكلا آخر من جانب الزبير .

٢ - الأسباب الاقتصادية :

يضاف الى الدوافع السياسية والعسكرية التى تولد عنها النزاع بين الزبير والسلطان التى أدت الى قيام الحرب بينهما ، دوافع اقتصادية شاركت فى نشأة هذا النزاع ، ذلك أن الفوراويين كانوا يعتمدون على حوض بحر الفزال كمجال حيوى لهم لاصطياد الرقيق وجمع العاج . ووجدوا أن فى سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه من مناطق نفوذهم حرمانا لهم من مصادر تجارتهم الرئيسية . فكان لا مخلص من وقوع الحرب بينهم وبين الزبير بسبب ذلك . وقد أوجدت سيطرة الزبير على هذه المناطق (بحر الفزال وشكا) مجالا حيويا خارجا من سلطان الحكومة فى الجانب الغربى للسودان . ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين من تجار الاقاليم التى تسيطر عليها ادارة السودان . حيث اشتمت موجة التكنيل بالاهالى على يد الموظفين من المصريين والاجانب وعملاتهم تنفيذا لمعاهدة منع تجارة الرقيق تنفيذا صارما دون مراعاة لمصلحة الاهالى الذين كانوا يعتمدون اعتيادا كليا بحكم العادات الموروثة على خدمة الرقيق . وقد وجد التجار المهاجرون فى المناطق التى سيطر عليها الزبير متنفسا لكريتهم ولو ترك الامر للزبير ليميل وفق طريقته الخاصة ، ولم تضع الحكومة فى وجهه العراقيل ولم تغدر حكومة جوردون بانه لاستطاع الزبير منع هذه التجارة المقتونة فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية والتوسع الاقتصادى على المستوى الذى ينتقل به الرقيق الى مركز ييسر له الحرية فى العمل كما يشاء وبالأجر الذى يرتضيه لنفسه مادام المال متوافرا لمواجهة ذلك التطور (١٤) .

قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة فيها :

. فى اواخر سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ تصدت القوات المصرية فى السودان لقافلة من الرقيق كانته قادمة من دارفور فغضب لهذا السلطان ابراهيم ووجد الفرصة سانحة امامه للانتقام من الزبير ، فهاجم بقواته اطراف البلاد الواقعة تحت حكم الزبير واستطاع أن يدمر ما كان فيها من مخازن للتجارة والغلال . كان هذا ما ينتظره الزبير منذ امد طويل لذا فقد سارع باستئذان اسماعيل باشا أيوب فى بدء الهجوم على سلطنة دارفور فلم يتردد فى الآن له بذلك (١٥) .

وكان هذا يغار من مجد الزبير وبسالته (اسماعيل باشا أيوب) فأراد أن يشترك معه فى الفتح ، وعندما طلب الزبير منه المدد بعث اليه ما لم يزد على ٣٨٠ جنديا وثلاثة مدافع (١٦) . وقد ذكر عبد الرحمن زكى أن الحكومة المصرية امدت الزبير بخمسة آلاف بندقية ومائة ألف خرطوشة (١٧) . وهو ما لم تؤكده بقية المصادر . ولكن الحكمدار خشى أن يترك للزبير بمفرده فخر الاستيلاء على هذه البلاد وحده ، فوجهت الحكومة حملة اخرى تحت قيادة الحكمدار مؤلفة من ٢٢٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والتركية والمغاربة والمتطوعين ، وأربعة مدافع جبلية وبعض الأسلحة الاخرى . ووكل اليها أمر الزحف الى دارفور من الشرق بينما وكل للزبير أمر الزحف على دارفور من الجنوب على أن تلتقى الحملتان فى الفاشر عاصمة الاقليم (١٨) .

استعد السلطان ابراهيم للحرب ضد الزبير وسمح لرجاله باصطياد الرقيق من بحر الغزال الذى كان شسمن المبتكتات المصرية (١٩) . وفى اوائل سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣ م

توغل كل من الزبير والنور بـيك عنقرة الى ان بلغا حدود دارفور .
 فى هذا الوقت كان عرب الرزيقات قد تصدوا بالاعتداء على قافلة
 تجارية تمر بالطريق ما بين دارفور وبحر الغزال فقتلوا رجالها
 ونساءها ونهبوا متاعها ، فطلب الزبير من السلطان تعويضا مما
 لحق بهذه القافلة من اضرار فرفض طلبه هذا(٢٠) .

وفى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة
 ١٨٧٤ م ارسل السلطان وزيريه أحمد شطه وسعد النور ومعهما
 جملة مقاديم من امرائه على رأس قوة مكونة من ١٠ آلاف رجل
 وقراية ثلاثة مدافع لحاربة الزبير ، والاستيلاء على شكا واسترداد
 بلاد عرب الرزيقات . وقد امتدى هؤلاء على عساكر الحكومة
 ونشبت بينهم معركة لمدة ساعة ونصف حتى قتل فيها أحمد شطه
 وجملة من امرائهم ومقاديم جيوشهم وعدد كبير من عساكرهم وفر
 الباقون ، وقد قتل من عساكر الحكومة وعساكر الزبير ما لا يزيد
 على المائتى نفر ، وأخيرا انتصر الزبير عليهم واستولى على ثلاثة
 مدافع وبعض الأسلحة . أما البيرق والدرع والخوذة والسيف
 الخاصة بالوزير المقتول . فقد أرسلها مع أفادة بتفاصيل ما حدث
 للحكمدار وطلب منه ارسال امدادية من العساكر والخيرة وقد
 قام الحكمدار بإرسال الامدادات التى طلبها الزبير ، ولكنها لم
 تصله الا بعد انتهاء المعركة بيومين(٢١) . وقد دار قتال عنيف بين
 الطرفين فى معركتين متواليتين كان النصر فى الثانية من نصيب
 الزبير وكان مصير جيش دارفور الهزيمة الكاملة بعد أن سقط قائدا
 الجيش فى هذه المعركة(٢٢) .

ويذكر سعد الدين على لسان الزبير نفسه فيقول : « فـجرت
 بينى وبينهما واعتان كانت العاقبة لى فى كليهما ، وفى الثانية قتل
 أحمد شطه وسعد النور وأبـيد جيشهما . عندئذ فتح أبـى الطريق

الى دارا متقدمت اليها واحتلتها وعينت بتحسينها تحصينا ثوبا
منيا (٢٢) .

وبعد هذه الواقعة قام الزبير بارسال اسراه من الفوراويين
الى الخرطوم ، وطلب سرعة ارسال الامدادات اليه . وقد اعتبر
الفوراويين اسرى حرب ومعتدين وذلك منذ اصبحت شكا وبحر
الغزال من الاقاليم التابعة للحكم المصرى (٢٤) .

وصدر فى هذا الخصوص ارادة سنية الى حكمدار السودان
بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة
١٨٧٤ م تشير الى انه نتيجة الامتداء الذى قام به الفوراويون
فان جهات دارفور وجبوع محلتانها صارت تعلق الحكومة الخديوية
لذلك وجب اتخاذ الاجراءات اللازمة للاستيلاء عليها . واعنت
فرتان لهذا الغرض لدخولها من جهتي كردفان وبحر الغزال ،
وتشكيل مديريات فى الجهات التى يتم الاستيلاء عليها أولا بأول
وتعيين المديرين اللذين لها مع تبليغ شكر الجانب العالى للزبير
والانعام عليه بالرتبة الثانية (٢٥) .

وكتت الزبير بعد انتصاره فى هذه المعركة خطبا الى
السلطان ابراهيم بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨
فبراير سنة ١٨٧٤ م يفكره فيه بما يأتى :

١ — ما قام به عرب الرزيقات من الأعمال العذوانية ضده
وضد الحكومة الخديوية وموقفه السلبى من كل هذا .

٢ — ما قام به الزبير نفسه من جهود فى سبيل فتح بلاد
الرزيقات واحتلالها منعا لتعديات هؤلاء العربان على التجارة
والتجار .

٣ - ما أرسله اليه من رسائل وإهماله الرد عليها وخاصة التي طلب فيها الزبير النجدة والمساعدة ضد الرزيقات .

٤ - ما كان من حسن العلاقة والجوار بين آبائه سلاطين دارغورو الدولة المصرية وضرورة استمرار هذه العلاقة الطيبة .

وعى نهاية خطابه لم ينس الزبير أن يدعو للتسليم وأن يروى له تفاصيل المعركة التي دارت بين جيشه وأكابر قواده في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ يناير سنة ١٨٧٤ م زيادة في التشفي فيه وأظهارا لقوته (٢٦) .

وعى الوقت نفسه أرسل الزبير خطابا آخر لعلباء دارغور بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م حرصا منه على أن يبادر هؤلاء العلما باقتناع السلطان بالمدول عما يدور في نفسه من ضرورة استمرار الحرب بينه وبين الزبير والجنوح الى السلم حققا لدماء المسلمين ، ومنعا لضباع أموالهم . وقد رأى الزبير أن تأثير هؤلاء العلماء قد يكون أكثر وقعا في نفس السلطان منه هو شخصا على أساس أن هؤلاء يمثلون الدين ورأيهم في ذلك هو رأى الدين . وقد شرح لهم الزبير في خطابه الهدف الذي جاء به الى بلاد الرزيقات ، وأعاد عليهم ما كتبه الى السلطان حبا منه في رفع الجرب ، وحققا لدماء المسلمين. ثم ختمه بقوله : « فالأمل من حضراتكم يا علماء الاسلام ان تفيدونا عما دما سلطانكم الى محاربتنا وهلاك عساكر المسلمين منا ومنه . فإن كان له وجه شرعى في ذلك ونحن المخالفين للشريعة فنحن نشكره على ما أجراه ونطلب منه المغفرة وإن كان هو المخالف فكفى بالله شهيدا بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » (٢٧) .

ويبدو أن الحكومة الخديوية كانت تخشى تدخل موظفي الدول الأجنبية في هذا الموضوع نتيجة الاجراءات التي تتخذها للاستيلاء

على دارفور ، لذلك نراها ترسل الى حكمدار السودان ثلغرافين بتاريخ ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير ١٨٧٤ م تطلبه بها يجب التصريح به لموظفى الدول الاجنبية والسسياب الاجانب من تدخل الحكومة الخديوية فى دارفور بأن سبب ذلك هو حرص الحكومة على منح تجارة الرقيق فى هذا الاقليم ولو بالحرب ورد عدوان هؤلاء النورانيين على حدود الممتلكات المصرية فى السودان (٢٨) .

الاتصالات بين القاهرة والخرطوم :

بلغ مدير كردفان بعد ذلك أن السلطان اعتراه قلقٌ عظيم من حركات الزبير واستمر فى جمع الجيوش الكثيرة لمقاومته ، وانه عازم على تولى قيادتها ضد الزبير بك كما أنه قام بسد الطريق ما بينه وبين كردفان ، ونتيجة لذلك أصبح احتمال وقوع الحرب بين السلطان والزبير أمراً لا مفر منه ، فابلى مدير كردفان حكمدار السودان بهذه الأخبار ، ورأى الأخير أن يبعث بنجدات للزبير على سبيل الاحتياط . وعندما بدأت الوقائع بين مساك الزبير ومسسكر السلطان ابلى الحكمدار الحكومة الخديوية فى القاهرة بذلك (٢٩) .

فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث برسالتين الى المية السنية شرح فيها الحالة شرحاً وافياً بناء على ما ابلفه به مدير كردفان ، وأوضح الحكمدار فى برقيته أيضاً أنه أمر بتجهيز ثلاثة بلوكات من العساكر . ومائة عسكى خيالة باشبوزق ومدفع لارسالهم الى الزبير . كما انه كتب الى مدير كردفان ليعث للزبير بمائة خيال ومدفع ، ويوصل هذه الامدادية للزبير بك يصير جملة الموجود بطرفه من القوات

أورطة بزيادة مستكملة، وأربعمئة خيال ، وأربعة مدافع ، هذا بخلاف الموجود من جماعته وعساكره وعساكر التجار الموجودين معه . كما أنه أشار بأنه أمر الزبير بأن يكتبنى بالمحافظة على مخبريته بحر الغزال فقط(٣٠) .

وفى الخامس والعشرين من نفس الشهر ورفت للحكمدارية برقية توضح ضرورة نجدة الزبير بك باللازم من العساكر والمدافع والخيرة والتنبية عليه بالدخول فى حدود دارفور وسوق العساكر فى الحالات التى يوجد بها مياه ، وعمل اللازم نحو فتح الطريق ما بين بحر الغزال وكردفان اذا كان مسودا(٣١) .

وفى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث الحكمدار للبعية بتلغرافين يطلب فيهما الامدادات اللازمة لنجدة الزبير ولاعداد الحملة المزمع ارسالها لفتح دارفور ، وما يلزم لهذه الحملة من عساكر واسلحة وفخائر ومهمات ومؤن وأموال ووسائل نقل من خيول وجبال ، كما شرح صموية الطرق وقلة المياه بها(٣٢) . وفى تلغراف يصل نفس التاريخ طلب الحكمدار من القاهرة الموافقة على قيامه بنفسه الى كردفان للاشراف على اعداد الحملة المزمع ارسالها لغزو دارفور من جهة الشرق ، وتعيين محمد سعيد وكيلا عنه بالحكمدارية أثناء غيابه(٣٣) .

أبرق أيضا الحكمدار يقترح ارسال الامدادات التى طلبها لتزبير بطريقتى سواكن وكورسكو أبى حمد وذلك لضغوبة توفير وسائل النقل اللازمة من مركز واحد(٣٤) . كما أخبر الحكمدار خيرى باشا بأن الطريق ما بين الخرطوم وكردفان مفتوح أما طريق كردفان دارفور فهو مغلق(٣٥) . وفى الثامن والعشرين من ذى

الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ م وردت للحكمدار برقية تحمل اوامر له بعدم مبارحته الخرطوم انتظارا لما سوف يصدر له من اوامر وتعليمات بعد ذلك (٣٦) . وفى ٢٩ ذى الحجة رد الحكمدار بالموافقة على ما جاء بهذه البرقية من تعليمات ووجد طلبه من القاهرة بخصوص تعيينه على قيادة الجيش المتوجه لفتح دارفور لتسهيل وتسهيل كافة المصاعب التى قد تعترض أعداد هذا الجيش (٣٧) .

وفى السادس من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة على الحكمدار فى برقية مجلة بخصوص مطالبه من العساكر والاسلحة والمؤن والاموال من أجل الاعداد لغزو دارفور ، الا انها رأت ان يؤجل غزو دارفور من جهة كردفان فى الوقت الحالى . وكانت الخطة التى وضعت للاستيلاء على سلطنة دارفور تقوم على أساس مهاجمتها من جهتي كردفان وبحر الغزال ولكن رؤى الاكتفاء بالهجوم عليها من جهة بحر الغزال بصفة مؤقتة (٣٨) .

وقد اجاب الحكمدار على هذه البرقية فى الثامن من نفس الشهر بما يفيد استيعابه للتعليمات التى ارسلت اليه ، كما اوضح مدى المصاريف الباهظة التى ستتكلفها اقامة العساكر المرسلة الى بحر الغزال ، وهو امر ليس فى مستطاع ميزانية هذه المديرية الوفاء به ، ولا حتى الزبير بك لذلك اقترح على الحكومة ان يرسل العساكر للزبير بالتدريج وكلما طلب ذلك مع احوالة مصاريفهم على الحكمدارية ، وقد اوضح أنه عرض على الزبير بك تعليمات الحكومة ليبدى رايه فيها (٣٩) .

وقد وافقت الحكومة على مقترحات الحكمدار بوقف ارسال العساكر الباشبوزق من مصر على أن يرسل له أورطة عسكرية

مظالمية جهادية من السودان الشرقى فى الوقت الحاضر ، وقد طلبت الحكومة فى ردها على برقية الحكدار ضرورة الاسراع فى ارسال الشبان الذين وعد الزبير بارسالهم الى مصر ، وذلك لتدريبهم على الحركات العسكرية والعمل على تشكيل اورط عسكرية نظامية منهم واعادتهم للسودان(٤٠) .

وفى الحادى عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٨ مبرير سنة ١٨٧٤ م أرسلت ارادة سنية الى الزبير بقريقته الى الرتبة التالية نظرا لما ابداه من همة كبيرة فى هزيمة العساكر الدارغورية ومقتل وزيرهم ، واسر جنودهم ، وجهود الزبير أيضا فى منع تجارة الرقيق ، وضبط الاحوال بديرية بحر الغزال(٤١) .

بعد أن اتفقت آراء القاهرة والخرطوم مع رأى الزبير فى وجوب فزو دارفور ، بدأ كلا الطرفين فى التعاون من أجل انجاز تلك المهمة . وكانت البداية فى صورة النجادات التى بعث بها الحكدار للزبير عندما حدث أول تصادم مع جيوش دارفور . بعدها جرت اتصالات موسعة بين المسئولين فى القاهرة والخرطوم من جهة والزبير من جهة أخرى لاستكمال هذا التعاون الذى وضحت صورته فى نصوص البرقيات التى عرضنا لها سابقا ، والتى انتهت الى ضرورة العمل الجدى لاتمام هذه المهمة على وجه السرعة . وقد عكس هذا التعاون الاهداف الحقيقية للحكومة الخديوية من حيث رغبتها فى ضم هذه السلطنة لممتلكاتها فى افريقيا قبل أن يظفر الزبير بهذه الغنيمة وحده دونها . وقد استمر سبل البرقيات التى تحمل ابناء الاستعدادات بين القاهرة والخرطوم لمدة كبيرة .

فى ٢١ ربيع الاول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ يونيه سنة ١٨٧٤ م أبرقت القاهرة الى حكدار السودان تستعجل فيها

إرسال الشبان الذين كان الزبير قد وعد بارسالهم الى مصر بما يكفى تشكيل أورطتين أو أربع لتدريبهم واعادتهم للسودان (٤٢) .

ومى ٢٧ ربيع أول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٤ يونيه سنة ١٨٧٤ م وردت برقية للمعية لتفيد بأن الزبير قد أرسل الى الحكمدارية ما صار اغتنامه من محاربته السابقة مع درافور من أسلحة ومدافع وخلافه مع الاشياء المتعلقة بأحد الوزراء (٤٣) .

وقد تطلبت كل هذه الاستعدادات التى كانت تجرى من جانب كله من الحكومة الخديوية فى مصر ومثلها فى الخرطوم مصاريف باهظة . كما أن الزبير لم يكن لديه من الأموال ما يستطيع الاستثمار فى الصرف على جيشه الخاص ، ودفع مرتبات العساكر والضباط المرسلين اليه فى صورة نجدات من الحكمدارية . لذلك أرسل الى الحكمدار يطالبه بدفع مبلغ ثلاثة آلاف كيسة نقدية قيل أنه أى الزبير قد دفعها للضباط لصرفها فى استحقاقات العساكر جماعة البلالى والعساكر الذين كانوا معه قبل حدوث الواقعة ، فلم يلبث الحكمدار أن أبلغ القاهرة بتفاصيل هذا الموضوع فى برقية بعث بها فى ٤ من ربيع الثانى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢١ يونيه سنة ١٨٧٤ م (٤٤) .

ومى الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٨٧٤ م صدر أمر كريم الى الحكمدار يحصل الموافقة على صرف المبلغ المذكور للزبير (٤٥) . ولا يخفى أن السبب الذى اضطر الحكومة الخديوية للموافقة على طلب الزبير هو خوفها من أن يتراجع عن عزمه فى غزو دارفور ، حينئذ سوف تجد الحكومة نفسها وقد ألقى عليها عبء فتح دارفور وحدها وهو أمر لم يكن لتوافق عليها . كما أنها كانت تهدف الى ما هو أبعد من ذلك وهو

الاستفادة قدر الإمكان ولحد أقصى من حماسة وجهود الزبير وجيشه في اتمام هذا الفتح .

وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو ، كان الزبير ماضيا في اتخاذ الاستعدادات العسكرية فقد أجرى تشكيل ثلاثة أوردى (٤٦) باشا-جوزق، وعين عليها كل من طه آغا محمد الملك النساقي ، وملى محمد آغا قوللق أغاسى ، ويوسف آغا أرناؤط وذلك بمرتب شهرى ألفى قرش ومرتب بربر ألفين وخمسمائة قرش . وفى السابع عشر من ربيع الثانى صدر أمر كريم الى حكدارية السودان بالموافقة على ما أجراه الزبير من تعيينات للأشخاص المذكورين (٤٧) . وقد تطلب تشكيل هذه الأورديات الثلاثة الكثير من النفقات المنبذة فى الأموال والمهمات وخلافه لهذا أرسل الزبير رسولا بالنيابة عنه الى الخرطوم بطلب صرف جانب من هذه المهمات وطلب الأموال اللازمة لنفع مرتبات الجنود لكي يستطيع أن يستمر فى استعداداته العسكرية التى بدأها . فرجع الحكدار طلب الزبير هذا للمعية لأخذ الموافقة عليه وصرف مبلغ الألف كيسة التى طلبها الزبير (٤٨) .

وفى غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ يونية سنة ١٨٧٤ م اتخذ الزبير لنفسه مركزا لتجميع العساكر لجهة تسمى الكلكة (٤٩) . فى حين كان الدارغوريون فى الجانب الآخر متهيئين للقتال فى أية لحظة (٥٠) .

وفى ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ يونية سنة ١٨٧٤ م أبرق الحكدار الى خيرى باشا بما يفيد بأنه قد كتب للزبير بضرورة قيامه بتنظيم المديرية وربط الأموال على أهاليها وتقوية مركزه ، والمحافظة على حدود مديريته بحر الغزال حتى

يتم إرسال المساكير والأسلحة اللازمة للخفول في دارفور كما هو عازم على ذلك (٥١) . وقد جاء رد الحكومة على برقية الحكمدار في ٥ جمادى الأولى الموافق ٢٠ يونيو من نفس السنة بما يفيد صمودية إرسال المساكير والأسلحة المطلوبة على وجه السرعة في الوقت الحالي لاعتبارات بعد المسافة بين مصر والسودان وأشارت على الحكمدار بأن يحاول نجدة الزبير بتدبير أورطة من الخرطوم لحين إرسال بدل منها من مصر حتى لا يتوقف سير الأمور (٥٢) .

وفي برقية تحمل تاريخ ٦ من جمادى الأولى الموافق ٢١ يونيو أبلغ الحكمدار خيرى باشا عدم اتصال خط التلغراف مع سنجر بك ورفضه إرسال أورطة من طرفه ، وعزمه أى الحكمدار على السفر الى كردفان لجمع ما يمكن جمعه من المساكير الشايقية والجهادية لنجدة الزبير وتذليل الصعاب التي تقف حائلا دون ذلك (٥٣) . وفي السابع من نفس الشهر الموافق ٢٢ يونيو أبرقت الحكومة للحكمدار بارادة سنية تعلمه بموافقتها على ما عرضه من ضرورة قيامه الى كردفان لجمع المساكير وتوكيل نائب عنه بالخرطوم في مدة غيابه . وتم تعريفه أيضا بأن الحكومة قد أرسلت له أربعة بلوكات من المساكير الجهادية من سواكن وذلك خلاف ما اتفق عليه مسبقا (٥٤) . وأما من جهة الزبير فإنه حدثت بينه وبين الدارفوريين معركة بتاريخ ٤ من جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٩ يونيو سنة ١٨٧٤ م هاجمه فيها السلطان أبونا وإلى جهات دارفور الصعيدية (٥٥) . على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألف رجل ، فتصدى لهم الزبير على رأس قوة قوامها ألف وستمائة نفر ، فهزيمهم وقتل قائدهم السلطان أبونا وأسر ابنه ، وأبلغ الحكمدار فيها بعد بذلك ، الذي أبرق للقاهرة في العاشر من نفس الشهر يبلغها بما حدث (٥٦) .

وفى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٤ م أرق الحكمدار للقاهرة وهو فى كردفان يبلغها بأن الزبير لما وجد السلطان قد استعصحب جميع عساكره توجه أيضا هو بجميع عساكره ، وأنه صيانة لشرف الحكومة أرسل ما استطاع جمعه من العساكر والأسلحة لنجدة الزبير ، وينوى التوجه على رأس قوة أخرى بنفسه ليدعم موقف الزبير ، ويأمل أن يكون فتح دارفور ميسرا (٥٧) . وأجابت المعية فى الخامس من رجب سنة ١٢٩١ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٤ م بالموافقة على ما اتخذته الحكمدار من تدابير وإجراءات إزاء ما بيته سلطان دارفور من نية العدوان ، وقبله أمل الحكومة فى أن يعجل بأمر إلحاق هذه المنطقة بالحكمدارية (٥٨) .

وفى غرة رجب من نفس العام الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م أبلغ الحكمدار المعية بأنه قد قام فعلا من كردفان على رأس الحملة التى أهداها ، والتى تكونت من أورطة جهادية مسلحة ببنادق حديثة ، وأوردى باشبوزق مكون من أربعمائة نفر خيالة وهجاة ، وثلاثة مدافع وذلك خلاف ما سوف يلحق به من عساكر الشايقية ، وغيرهم بطريق كردفان أم شنقة ومنها إلى الفاشر ، وأن الزبير قد أبلغه بأنه قد ترك مركزه فى الكلكلة إلى محل يقتل له النمر على مسيرة يوم واحد من بلدة داره (٥٩) .

وفى الحادى عشر من رجب من نفس السنة أبرقت القاهرة للحكمدار لتبليغ شكرها للزبير وللعساكر ولرؤسائهم على ما بذلوه من جهد فى حفظ شرف الحكومة ، وانزال الهزيمة بالعساكر الدارغورية بعد مقتل قائدهم السلطان أبونا (٦٠) .

وأرسل خيرى باشا برقية إلى سعادة ناظر الحقانية وإلى سعادة ناظر الخارجية تحمل تاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق

٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ م أبلغهم فيها بما حدث من جانب سلطان دارفور من تعد على قوات الحكومة الخديوية ، وتصدى تلك القوات لهم وانزال الهزيمة بهم . كذلك أشجارت البرقية لهدف حكومة القاهرة من غزو دارفور وهو القضاء على تجارة الرقيق فيها لأنها أى دارفور تمثل مركزا خطيرا لانتشار هذه التجارة . وقد تم احاطة ناظرى الحقائق والخارجية بهذه المعلومات الرسمية لكي يستطيعا الادلاء بأية استفسارات أو تصريحات حول موقف حكومة الخديو من غزوه دارفور اذا ما طلبت ذلك أى جهة أجنبية(٦١) .

شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير والحكدار :

قبل أن تتطور الأمور الى أخطر من هذا ، رأى السلطان أن يعرض ما بينه وبين الزبير من نزاع على الخديو فى القاهرة لعله يجد مخرجاً أو حلاً عنده لذلك . فبعث له برسالة فى الرابع من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٤ م يشرح له فيها تعديات الزبير على حدود مملكته كما أدمى ذلك فى خطابه ، وتأييد الحكدار لهذه التعدييات ويذكر الخديو بالعلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين سلطنة دارفور ومصر أيام أبيه ، ويطلب منه التدخل للحد من هذه التعدييات بصفته الشخصية ، أو التدخل للوساطة بينه وبين الزبير(٦٢) .

وبالطبع فإن الخديو لم يعط لهذه الرسالة أية أهمية ، لأن جميع تحركات الزبير والحكدار كانت بتوجيه من الخديو شخصياً ، كما أن سلطان دارفور كان هو البادئ بالعدوان وليس الزبير .

ولم يكن أمام السلطان إبراهيم بعد أن فشل مسعاه لدى الخديو اسماعيل لانقاذه سوى أن يجد لنفسه مخرجاً آخر من

يتوجهوا منها الى الحجاز ومن هناك الى الاسنانة بقصد التخلص من محاربة الحكومة الخديوية . وبناء على ما ذكر من معلومات تم عرض الموضوع على جناب الخديو للنظر ، واصدار الامر لمراقبة الأشخاص المذكورين او القبض عليهم عند حضورهم لمدينة اسيوط مع مراعاة مراقبة موانئ الاسكندرية والسويس حتى لا يستطيعوا الهروب من البلاد (٦٤) .

وفى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق سنة من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة بارادة سفية على برقية الحكمدار بانه قد تم القبض على الرسل التابعين لسلطان دارفور بجهة واحات اسيوط ، وضبط جميع ما معهم من مكاتبات وغيرها وأنه وجد من بينهم شخص مخصوص يحمل مكتابة للخديو . وقد نوهت البرقية للحكمدار الى ضرورة الاسراع بالاستعداد للاستيلاء على الفاشر سواء بضم قواته مع قوة الزبير ، والدخول فى معركة مع الأمير قبل الدخول الى الفاشر ، والتقاء القبض عليه وارسل اقاربه الى كردفان ، والعمل على ادخال البلاد المجاورة لدارفور تحت طاعة الحكومة ، والاقامة بالفاشر بعد الاستيلاء عليها مع المقدار الكافى من العساكر على أن يرسل الباقي منهم الى الزبير ، وابلاغه بقدوم حسن بك على رأس قوة للاقامة فى ام شنقة للمحافظة عليها وان يجعل الطريق مفتوحة بينه وبين الفاشر وكردفان ، وتبليغ سلام الجناب العالى الى الزبير وكافة الضباط والعساكر (٦٥) .

وفى السادس عشر من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م ارسلته القاهرة للمرة الثانية برقية لمفتش عموم قبلى تعيد عليه ما سبق ذكره من ضرورة حفظ الصرر وبقيّة الاشياء التى وجدت مع رسل السلطان وارسلها مع مندوب

واعلامهم متى قتل السلطان ، ودخول بلاده فى حيز الحكومة المصرية وتخيريهم بين الرجوع الى بلادهم احرارا أو المثل بين يدى الجانب العلى الخديو اذ رغبوا فى ذلك وهم احرار ايضا ، وفى الحالة الاولى يحرر مكتبة بذلك لحكدار السودان (٦٦) .

وفى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة على برقية الحكدار المؤرخة فى ٢١ شوال من نفس السنة بأنه تم احضار الرسل المذكورين للقاهرة واکرامهم وثأمينهم على انفسهم وأموالهم وأولادهم وانهم مقيمون بالمسافر خانة ، وأنه قد تنبه عليهم بأن النتود المقال عنها أنها لسر تجار الفاشر وأخته لهم الحق فى التصرف فيها فى اسباب التجارة أو حفظها بدون أى معارضة (٦٧) .

وعلى فرض نجاح سفارة السلطان فى الوصول الى الاسناتة والاتصال بالباب العلى — وهذا لم يحدث — فانها من المؤكد كلنت سوف تمود كما ذهبت بدون اية نتيجة . وذلك لأن فرمان الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م كان قد ذكر سلطنة دارفور ضمن الاقاليم السودانية التى صارت تبعيتها لمحمد على على مدى الحياة، ولكن سلطنة دارفور ظلت مستقلة حتى تولى الخديو اسماعيل الحكم فى مصر . ولم تكن سلطنة دارفور تدين بأية تبعية للسلطان العثمانى الى أن تم غزوها بواسطة جيش الزبير بالاشتراك مع جيش الدولة المصرية ، فانهزمت وخضعت لحكومة الخديو ، وانطبقت عليها ممارسة حقوق السيادة التى كان مالها النهائى فى حكومة القسطنطينية بحكم تبعية الحكومة ذاتها للسلطنة العثمانية (٦٨) .

وقد ترتب على مثل بعثة السلطان هذه نتائج ومواقف كثيرة جعلت فى عدم قيام حرب بينه من جهة والدولة المصرية

والزبير من جهة أخرى يكاد يكون سرايا . ومن ثم شرع يستعد للموقف ويأخذ حذره حتى يتمكن من صد هذا الغزو المتوقع .

موقعة الشترى أحمد نهر :

لم يكد جيش الزبير يصل الى دارة (٦٩) . ويتحصن بقلعتها حتى نشط أحمد نهر زعيم البرقد (٧٠) ، فجمع ثلثات جيش الوزير أحمد ثلثه وحاصر الزبير وجيشه في قلعة دارة ، وأخذ يشاغلهم كسبا للوقت حتى تصله الامدادات التي كان يبعدها له السلطان ابراهيم بقصد القضاء على الزبير والثار لما نالته قواته من قبل على يديه . ولكن الزبير لم يحرك ساكنا تجاه هذا الحصار بل صبر على أحمد نهر هذا حتى علم بمقدم النجسدة التي كان ينتظرها ، عنئذ أرسل لهم أحد قواده هو رابع بفرقة من الجيش فنشبت بينهما معركة قصيرة ، لم يلبث أن قتل فيها أحمد نهر وانهزمت القوة التي معه ، وغنم الزبير في ذلك الوقت غنائم كثيرة من الخيول والدروع والخوذ والماشية وخلافه (٧١) .

وكان الزبير قد بعث في ٣ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ اغسطس سنة ١٨٧٤ م برسالة الى السلطان ابراهيم يدعوه فيها مرة أخرى للتسليم وملخص ما جاء فيها :

اولا : ذكره بما كان من تعديلات عرب الرزيقات عليه وعلى المسلمين من التجار بدون وجه حق وموقفه المؤيد لهم :

ثانيا : اخبره باستيلائه على دارة واصرار به بل تمسكه على عدم الانسحاب منها مهما كانت الظروف والنتائج .

ثالثا : نصحه بالتنازل عن ملكه والاذعان لواهب الحكومة الخديوية في مقابل اعطائه الأمان في أمواله وأهله حتى يمكن تلافي وقوع الحرب بينه وبين الدولة المضربة .

رابعاً : ذكره بضرورة الكف عن القيام بالتحريشات العسكرية
ضده والجنوح الى السلم (٧٢) .

كان هذا الخطاب هو الأخير الذى وجهه الزبير الى السلطان،
وبعده لم يجب السلطان على هذا الخطاب ، ومن ثم بدأت الأمور
تسير الى اسوأ فى غير صالح السلطان .

موقعة الأمير حسب الله :

استشاط السلطان ابراهيم غضباً من مكاتبات الزبير له وطلبه
منه التسليم او الحرب . فلم ير السلطان مفراً من أن يجهز له
جيشاً آخر يستطيع انزال الهزيمة الساحقة به . ومن ثم أسرع
باعداد جيش يتوفى عدده على المائة ألف مقاتل من بينهم عدد كبير
من الفرسان المدرعين واماشة المسلحين بالبنادق . عقد السلطان
لواء هذا الجيش لعنه الأمير حسب الله . سار هذا الجيش العرمرم
قاصداً داره فدخلها فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ م ، وشرع فى
احكام الحصار حولها من جهاتها الأربع ، ثم انفذ الأمير حسب الله
رسلاً الى الزبير مع رسالة يقول له فيها : « لقد دخلت بلادنا
وقتلنا وزيرنا أحمد شمله ومن بعده أحمد نهر فلأخرج الآن من
بلادنا ، ونتمهد لك بأن نشيعك بالسلاية والأمان . » وقد أجاب
الزبير اعضاء الوفد بأن يبلغوا الأمير حسب الله بأنه أى الزبير
قد دخل بلادهم بقصد اخضاعها لحكومة جناب الخديو ولا ينوى
الخروج منها الا بقدر من الله ، فان كانوا قد جاءوا للحرب فليقدموا
لها ولا فعليهم أن يعودوا من حيث أتوا (٧٣) .

وكان الزبير قد بعث من قبل برسالة الى الأمير حسب الله
بتاريخ ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٧ يونيه سنة
١٨٧٤ م بملخص ما جاء فيها :

أولاً : عرض على الأمير حسب الله تولى سلطنة دارفور بدلاً من السلطان إبراهيم لما بلغه عنه من الخلق الحسن والدرية الكاملة والرأفة والشفقة على أحوال المسلمين .

ثانياً : شرح له تفصيلات معاركه السابقة مع كل من أحمد شطه وأحمد نهر وكيف أنه هزمهم وكفهم بأعز الأتمشة ودفنهم مع بقية الوزراء والمقاديم والملوك بها يليق بمكانتهم (٧٤) .

وقد كان الصمت التام هو الإجابة على رسالة الزبير فلم يجب الأمير حسب الله عليها تماماً كما فعل السلطان إبراهيم من قبل في الرسائل التي تلقاها من الزبير .

المعركة الأولى :

بدأت هذه المعركة بعد عودة رسل الأمير حسب الله إلى معسكرهم وإبلاغه بإجابة الزبير على رسالته . ولقد تصادف أن وقعت أبصار الرسل الذين حملوا الرسالة إلى الزبير على بعض جنود النيام نيام الذين يضمهم جيش الزبير ، وقد اجتمعوا على جثة آدمى يقتسمونها فيما بينهم نياخذ بعضهم الرأس والقديين والبعض الآخر اليدين والصدر ، ثم يشرعون في شئ هذه الأجزاء على النار وعند عودة الرسل المذكورين إلى معسكرهم لم ينسوا أن يرووا لأخوانهم ما شاهدوه من وحشية جنود الزبير وقسوتهم ، ولعل هذا قد ملأهم بالرعب وخوفهم من قتال الزبير . غير أنه على أية حال لم يكن هناك مقر من الحرب وحدث تصادم بين القوتين ، فلم تثبت قوات الأعداء أن أقبلوا معسكرهم على مسافة غير بعيدة من رامي بنادق واسلحة جيش الزبير . ثم بدأوا في مناوشاتهم وكان مع الزبير زهاء ١٢٠٠٠ مقاتل مسلحين بالبنادق الرامتون الألمانية ، فأخذت قوات الزبير تصلى الأعداء نيراناً حلبية

كل يوم من قبل الشروق الى ما بعد منتصف الليل ، وصبر جنود دارفور على هذه الفيران لمدة سبعة ايام طوال . استطاع الزبير خلال تلك المدة ان يهلك منهم عددا كبيرا الا ان هذا الحصار استمر مع ذلك واستمرت معه المناوشات ، ومضت الايام طويلة على هذا الحال حتى اوشكت ذخيرة الزبير على النفاذ وقرغت مؤنه ، ومضى على رجاله يومان بلا طعام (٧٥) .

المعركة الثانية :

بينما كان الزبير يفكر فى الخلاص من هذا الحصار بالهجوم على جيش الأمير حسب الله وفد عليه واحد من قادة جيش دارفور اسمه الملك أحمد ليفتدى ابنته التى كان الزبير قد اسرها فى موقعة أحمد شطه عارضا عليه فى مقابل ذلك ١٠ أوقيات من الذهب وكان الزبير قد وضع اسراه فى قبة جامع داره ، ومن فوق هذه المئذنة كان يستطلع ما يدور فى معسكر الأمير حسب الله ، فإذا به يرى حركة وجلبة غير عادية ، فأسرع بالهبوط ودعا الملك أحمد وعرض عليه أن يذهب نياتيه بأنباء ما يحدث فى معسكرهم فى مقابل أن يسلم له ابنته دون مقابل من الذهب ، وأقسم له على القرآن بذلك فقبل أن يذهب ويأتيه بحقيقة الأنباء ، فلما بلغ معسكرهم أخبر قومه بأن الزبير يطلب منه ٢٠ أوقية من الذهب مداء لابنته ، ولما لم يكن معه سوى ١٠ أوقيات فقط ، فقد عاد ليأخذ العشر الباقية وعندئذ أعطوه ماله واستحثوه على المبادرة بالهجوم على الأسوار من جميع الجهات فى اليوم التالى ، فعاد الملك أحمد وبهذه الأخبار . وكان هذا فى مساء يوم الخميس ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٤ م وهو اليوم الذى بدأت فيه هذه المعركة . كان الغورايون فى تلك الليلة قد شربوا الخمر واكلوا كثيرا وناموا مبكرين استعدادا

للهجوم في اليوم التالي . انتهر الزبير هذه الفرصة الثمينة وعول على مفاجاتهم وهم نيام ، فخرج اليهم في ثمانية آلاف رجل على هيئة مريح ، وصار في جنح الليل حتى لم يعد يفصله عن معسكرهم سوى ألف متر تقريبا ، عندئذ أمر رجاله بإطلاق نيران أسلحتهم على الأعداء ، نصبوا عليهم وابلا من الرصاص المنهبر ، عندئذ هب هؤلاء من نومهم مذمورين وقد أخذتهم المفاجأة وبدأوا في إطلاق رصاصهم على جنود الزبير ولكن بعد فوات الأوان ، فقد كان معسكرهم قد تحول الى ما يشبه جرة من النار . وفي أثناء هذه المعركة أصابت الزبير طلقة طائشة في يده اليمنى فجرح جرحا بليغا ، ولكنه لم يعبا به بل مضى بين رجاله يصدر لهم الأوامر ويشدد من جزائهم . فلما أصبح الصباح كان معسكر الأعداء قد تمزق شرا ممزق . وكان رجال جيش الأمير قد ولوا الأبرار مظهرين وراءهم الأرض وقد غطتها جثث قتلاهم ومن بينهم أربعون رجلا من أبناء السلطان ، فشرع الزبير بعد ذلك في جمع الغنائم هو ورجاله فكان من بينها نحو ألف درع و ٢٧٠٠ خيمة وثمانية مدامع قديمة نقش على بعضها اسم سعيد باشا الى جانب الكثير من الأسلحة والذخائر الحربية والمؤن التي تكتي المدينة لمدة أربعة شهور . عندما فرغ الزبير من الاستيلاء على كل هذا عاد بجيشه الى المدينة وتحصن بقلعتها من جديد وهكذا انتهت المعركة الثانية بهزيمة مفكرة لجيش الأمير حسب الله الذي عاود الهجوم للمرة الثالثة على أسوار قلعة داره من جديد (٧٦) .

المعركة الثالثة :

وقد بدأت هذه المعركة في الثامن من سبتمبر سنة ١٨٧٤ م عندما تمكن الأمير حسب الله من جمع شتات جيشه المتهمز ومعاودة الهجوم على أسوار المدينة من جديد ، ودار قتال

منيف بين جيشه وجيش الزبير استمر لمدة أربع ساعات متوالية حتى كثر القتلى في جيشه وحانت به الهزيمة الكاملة . وقد قام الزبير على رأس جيشه بتتبع ومطاردة الفارين لمسافة طويلة عاد بعدها للتحصن بالقلعة من جديد استعدادا لأي هجوم آخر من جهة دارفور (٧٧) .

وطبقا لما ورد بالوثائق فقد بلغت خسائر جيش الأمير حسب الله في هذه المعارك الثلاث حوالي ستة آلاف رجل وذلك بخلاف الجرحى . بينما بلغت خسائر جيش الزبير من عساكره وعساكر الحكومة حوالي أربعمئة رجل . وقد أبلغ الزبير تفصيلات ما حدث في هذه الموقعة بمعاركها الثلاث إلى اسماعيل باشا أيوب الذي كان وقتذاك على رأس حملة الشرق التي كانت قد وصلت في تقديها لأم شنقة في رسالتين وصلت أحدهما للحكمدار في الثامن عشر من شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م . وقد قام الحكمدار بإبلاغ القاهرة بتفصيلات ما حدث في هذه الموقعة في برقية بعث بها في ٧ رمضان ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م ، وكان قبل ذلك قد أبلغ القاهرة بأن الزبير محاصر بقلعته في دارا بواسطة جيش الأمير حسب الله الذي حضر إليه بداره بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م وغير متيسر الاتصال به (٧٨) .

ونظرة على هذه الموقعة نرى أنها واحدة من الوقائع الرئيسية التي شملت عملية فتح دارفور التي كانت لها أثرها البالغ في كسر شوكة جيوش سلطان دارفور والتعجيل بانتهاء عملية الفتح .

عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير حسب الله :

من خلال الأسطر التي تناولت تفاصيل المعارك الثلاث التي دارت رحاها بين الجيشين نستطيع أن نستشف عوامل انتصار جيش الزبير وعوامل هزيمة جيش الأمير حسب الله وتتلخص في الآتي :

أولاً : برغم ضخامة جيش الأمير حسب الله في العدد الذي وصل حسب ما ورد في المراجع إلى مائة ألف مقاتل أو ما يزيد ، واحتوائه على عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق ، وقلة عدد جيش الزبير الذي بلغ اثني عشر ألف مقاتل بالنسبة لجيش الأمير ، فإن الأمير حسب الله لم يستغل تلك الميزة التي توافرت في جيشه في العدد والتسلح في وضع خطة محكمة ترمي إلى فرض حصار محكم حول قلعة داره التي كان يعيش الزبير ويتحصن بها ، ويرسل له من يناوئه ويستنفذ ذخيره ورجاله ومؤنه ، فيضطره عندئذ للخروج إليه من قلعته . ومن ثم يمكنه الحلق الهزيمة به في سهولة ويسر ، ولكن الأمير لم يفعل ذلك بل أن حصاره حول القلعة لم يطل أمده بعدها تحرك لائحة معسكر لجيشه في مكان ليس بعيد من أسوار القلعة ولا مرمى أسلحة جيش الزبير وهذا يدل على عدم الملم الأمير حسب الله بأبسط القواعد العسكرية إذ أنه كان هدفا سهلا أمام رجال الزبير هو وجيشه .

ثانياً : كان لاقامة جيش الأمير لمعسكره في مكان ليس بعيد عن مرمى أسلحة رجال الزبير فرصة مكنت رجال الزبير من أن يطروهم بين الحين والحين ببواب من رصاص بنادقهم ، هذا إلى جانب الدوريات المسلحة التي كانت تخرج ليلاً من القلعة لتصيد

من تجده من رجال الأمير حسب الله لنقلته أو لتحمله أسيرا ، كل هذا أدى الى قتل عدد ليس بالقليل من رجال جيش الأمير وبالتالي ساهم في خفض الروح المعنوية القتالية لرجاله .

ثالثا : كان لعمل المفاجأة أثره الكبير في هزيمة جيش الأمير في المعركة الثانية اذ كان للهجوم الذي شنّه عليهم رجال الزبير بفترة ليلا وهم نيام ومصرع الكثير منهم أثره في تشتيت جيشه ، وقد ساعد على نجاح الزبير في هذا الهجوم ما قام به رجال جيش الأمير قبل ليلة الهجوم من تناول الكثير من الوان الطعام واحتساء العديد من انواع الخمر التي لعبت برؤوسهم فباتوا ليلتهم لا يعون شيئا .

رابعا : كان لعامل الخيانة في المعركة الثانية الفضل الاول في الهزيمة التي منى بها جيش دارغور في هذه الموقعة . اذ لم يكن الملك احمد الذي حضر لمعسكر الزبير ليفتدي ابنه الا واحداً من ضمام النفوس الخائنين لوطنهم ، فقد فعل ما املاه عليه الزبير حرصا على حياة ابنه . مفضلا خيانة وطنه وجيشه على سبيل هدف شخصي . ومن المرجح ان جيش الأمير حسسب الله كان يضم الكثير من امثال هذا الرجل . ومن ناحية اخرى كانت لفظة تنم عن بعد النظر من جانب الزبير الذي استطاع في الوقت المناسب ان يستغل هذه الثغرة في سبيل الحصول على ما يريد من معلومات عن جيش الأمير حسب الله انقادا لنفسه ومن معه من الهزيمة .

خامسا : كان للهزيمة التي لحقت بجيش الأمير عقب المعركة الثانية وتشتت جيشه ، وتركه لمعظم ما كان لديه من الامدادات من اسلحة ونخائر ومؤن وخلافه وقيام الزبير بالاستيلاء عليها أثره الفعال في استعادة جيش الزبير لقوته بعدما قاربت مؤنه وخيبرته على الفناء .

سادساً : اذا نظرنا الى نوعية الفئلت التي كان يتكون منها جيش الأمير لوجدنا انهم لم يخرجوا عن كونهم مجموعة مختلفة تنتمى الى قبائل متعددة لا تربطها أية رابطة ولا هدف سوى الحرب من اجل كسب الغنائم والأموال . لذلك وجدنا منهم الخائن وكان الملك أحمد خير مثل على ذلك . يضاف الى ذلك أن الروح القتالية المطلوبة في جيش ضخم كهذا لم تكن متوافرة بالقدر الذى توافرت به في جيش الزبير . اذ كان لحسن قيادة الزبير لهم وتوجيهه لهم التوجيه السليم ، وسخائه عليهم ، وتشجيعه لهم من العوامل التى ساعدت الزبير على الصمود بجيشه هذا أمام سلسلة الجيوش التى بعث بها سلطان دارفور الواحد تلو الآخر رغم قلة مؤنه ونخبرته .

سابعاً : كان للمطية العسكرية الواعية التى توافرت لدى الزبير الأثر الحسن في تقوينه وتقديره للموقف واستغلال الإمكانيات المتاحة له على قتلها في أحراز نصر باهر على جيش الأمير فقد ضمن هو ورجاله حماية طبيعية داخل أسوار قلعة داره ضد هجمات جيوش دارفور المتتابعة كما أن قلعة داره كانت تشرف بحكم تصميمها على أرض المعركة ، فكان من السهل استطلاع ما يدور داخل معسكر الأعداء بسهولة من داخلها كما حدث في معركته الثانية مع الأمير حسب الله واستطاع أن يرى من فوق منذنة جامع داره الهرج والجلبة التى كانت تسود معسكرهم .

ثامناً : كان للصلابة وقوة الشكية وعامل الصبر وغير ذلك من الصفات التى أظهرها رجال الزبير أمام هجمات جيش الأمير الأثر الواضح في أحرازهم النصر تلو الآخر . يضاف الى ذلك ما أشيع عنهم من انهم من أكلة لحوم البشر ، فقد ساعد ذلك على بث الرعب والخوف في قلوب رجال الأمير حتى قبل مواجهتهم في ميدان الحرب .

قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى دارا :

وقع نبا هزيمة جيش الامير حسب الله - على يد الزبير - وقوع الصاعقة على السلطان ابراهيم جسدت له الزبير في مخيلته على انه الشخصية الاسطورية التي لا تقهر ، فرأى في هذه المرة أن يقوم بنفسه للوقوف على مدى قوة هذا الرجل ، وتأديبه بعد أن لقيت جيوشه المتتابعة الهزيمة المرة تلو الأخرى على يده ، ومن ثم أخذ يستنصر قومه للحرب ويحضهم على الذود عن هياض وطنهم وبلادهم حتى استطاع أن يجمع في وقت قصير جيشا جرارا بلغ تعدادُه نحو المائة والخمسين ألفا من بينهم ثلاثون ألف فارس ، كما اصطحب معه ثمانية مدافع . وقد عزم على الخروج بنفسه لقتال الزبير « الطاغية الجلابي » كما نعتُه من قبل . ولكن لم يصبح هناك مجال للسخرة من الزبير ، فهو اليوم سيف الخديو المسلول الذي شهرة ليقوض به دعائم هذه السلطنة التي أخذت جوانبها تتهاوى كأوراق الشجر في مطلع الخريف . وكان جيش السلطان لكثافته يثير حوله أذا ما تحرك سحباً كثيفة من الغبار تمنع الرجل من أن يرى رفيقه وهو على مبعدة خمس خطوات منه ، ولم ينس السلطان أن يخلف على الفائز قبل رحيله ابنه الأكبر محمد الفضل . ثم سار السلطان ابراهيم قاصدا داره بمبلغها في ضحى السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م . محاصرها من جميع الجهات وهضى يستعد لمهاجمة قلعتها في اليوم التالي . وفي الصباح بدأ الهجوم فالتقى السلطان بقواته كلها في المعركة قاصدا اقتحام المدينة في هجمة واحدة . ولكن رجال الزبير ردوه على أعقابهِ بعد أن أمطروا قواته بوابل من الرصاص المنهَر . واستمرت هذه المعركة الى ما بعد الغروب بساعة . وفي اليوم التالي عاود السلطان الهجوم

على الأسوار مرة أخرى قبل طلوع الشمس ، ولكن هذا الهجوم أصابه الفشل كسابقته بعد عدة ساعات من بدايته . كل هذا لم يوهن شيئا من عزيمة السلطان ، فعاد هجومه للمرة الثالثة بعد صلاة الظهر في عزم واستقبال هذه المرة ، وكانت قواته قد استراحت قليلا ، واستمرت بعض نشاطها فثبتت لرمصاص أسلحة رجال الزبير وهو يحصدها حصدا ، وغطت جثث القتلى وجه الأرض الى أن أتى الليل فوضع حدا لهذه المجزرة الدامية ، وبدأ السلطان وقواته يرتدون مخلفين تحت أسوار المدينة عددا كبيرا من قتلاهم ، وكان من بينهم بعض أبناء السلطان وأخوته وأعمامه .

وفي مساء نفس اليوم أرسل السلطان أبراهيم كتابا للزبير مملوءا بالشتم والسباب والتهديد والوعيد له ، وختمه بقسم غليظ بأنه سوف يعاود الهجوم على القلعة في الصباح ، وسوف يقتحم تحصيناته عنوة ، ويؤدي صلاة الجمعة في مسجد داره . وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي بدأ في تنفيذ قسمه بأن أطلق على أسوار قلعة داره أكثر من خمسة وأربعين قذيفة من مدافعه فلم يجبه عليها رجال الزبير ، بل شرع الزبير ورجاله في الاستعداد لهجوم لاخذ الذي كان يتهددونهم من جانب السلطان .

وعندما بدأ الفجر يرسل خيوطه الأولى اخذ الزبير يتطلع نحو معسكر السلطان فادهشه أن يراه خاليا تماما من جيوش السلطان . وشسك أن في الأمر خدمة مخرج في نفر من رجاله ليستطلع الأمر ، فوجد أن السلطان وجيشه قد انسحب في جنح الظلام ، وأن الخمسة والأربعين قذيفة التي تلقاها منذ ساعات لم تكن أكثر من وسيلة لستر وتغطية عملية الانسحاب حتى لا يفتن اليه فيخرج لمطاردته وتشتيت جيشه . وقد علم الزبير فيما بعد أن سبب انسحاب السلطان هو أن

رجاله بعدما نزل بهم من خستار فادحة قد ابوا أن يعودوا لمهاجمة الأسسوار مرة أخرى ، فهجروا السلطان . عندئذ لم يجد السلطان بدا من أن يتبعهم ليجمع شملهم وليسير بهم لجبل مرة (٧٩) . للاحتماء به . وجمع الزبير ما خلفه السلطان في معسكره وشرع في الاستعداد للحاق بجيش السلطان ومهاجمته حيث يكون (٨٠) .

في هذه الأثناء وصل الى علم السلطان نبأ سقوط أم شفقة التي تقع على مسيرة ستة أيام من ملامسته الفاشل في يد اسماعيل باشا أيوب ، فأصبح السلطان بذلك محاصرا فجأة فقرر هو الآخر بعد أن جمع قواته في جبل مرة أن يتقهقر بسرعة نحو الفاشل . على أن هذا التقهقر الذي قام به السلطان جعل الطريق أمام الزبير مفتوحا لأن يتقدم بجيشه بسرعة نحو عاصمة دارفور (٨١) .

في هذا الوقت أدرك السلطان ابراهيم بعد الهزيمة التي نزلت به وبجيشه على يد الزبير في المحاولات الثلاث التي قام بها لاقتحام قلعة داره المنيعه ، وانسحابه دون أن يظفر بأية نتيجة تغير من الموقف شيئا ، أن الآمال التي عقدها منذ خروجه بهذا الجيش لكسر شوكة الزبير وطرده من سلطنة دارفور قد باتت أشبه بالمراب ، وقد حل بجيشه نتيجة هذه الهزائم المتوالية اليأس والخوف محل الحماسة والقوة التي خرج بها للقضاء عدوه الزبير . ولكن رغم ذلك ظل تعلق السلطان ابراهيم بالنصر على عدوه الذي لا يعرف المستحيل متجسدا إياه حتى النهاية .

دور حملة الشرق بقيادة الحكدار :

تحرك اسماعيل باشا أيوب الى دارفور على رأس الحملة التي وكل اليه أمر قيادتها لغزو هذه السلطنة من جهة الشرق ،

والتي تكونت من اورطة جهادية مسلحة بالبنادق ، وأوردى باشبوزق مكون من أربعمائة نفر خيالة وهجانة ، وثلاثة مدافع ، ومائتين من العساكر الباشوزق الشايقية . قام من الأبيض بهذا الجيش رأسا الى دارفور عبر صحراء العتور حيث مر على طريقه على منطقة المياه القليلة حيث تخرن المياه في فروع أشجار التبلدى المحفورة الوسط . ولو كان السلطان ابراهيم قد نذبه لقدم هذا الجيش ، وأرسل من أخلى تلك الأشجار مما بها من المياه لاضطرت الحملة الى الرجوع أو ادى ذلك الى موت الكثيرين منهم عطشا (٨٢) .

وقد رافق حملة الشرق التي قادها اسماعيل باشا أيوب بعض من الضباط الأمريكيين لأغراض تتعلق بمصالح الحملة وسلامتها (٨٣) . ولا يعرف على وجه التحديد كم مددهم أو أسلحتهم والراجح انهم من الأجانب الذين وفدوا لأغراض السليحة أو التجارة في تلك الأصقاع البعيدة ثم تعينوا مع الحملة لإنجاز بعض المهام الخاصة .

ولم يأت الرابع والعشرون من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ستة سبتمبر سنة ١٨٧٤ م حتى أبرق الحكمدار للحكومة الخديوية في القاهرة بأنه قد وصل في تقدمه الى محل يقال له دارفور العمار بعد صحراء العتور ما بين كردفان ودارفور ، وأنه ليس بينه وبين الوصل لأم شنقة (٨٤) سوى يومين فقط ، بينما المسافة بينه وبين عاصمة السلطان ستة أيام مثنى الهجانة ، وأن الزبير قد وصل الى دارا وتحكم فيها وأن الجيش الذي أرسله السلطان حوله بمسافة يوم واحد ، كما أنه أشبار الى طلبه للحكمدارية بإرسال اورطة ونصف بيادة من أجل عدم اخلاء المحلات التي تم الاستيلاء عليها من العساكر خوفا من محاولة استعادتها والسيطرة عليها من جانب العدو (٨٥) .

الاستيلاء على أم شنقة :

وصل الى علم السلطان ابراهيم نبأ وصول حملة الشرق بقيادة الحكمدار لحدود دارفور ، فأرسل بن نوره اثنين من نادته الذين كانوا يحاربون ضد الزبير على رأس جيش قوامه ما بين الخمسة والستة آلاف رجل مع الشيخ أحمد المليج شيخ عربان حمر (٨٦١) للتصدي لهذه الحملة ، وقبل أن يلتقى هذا الجيش بالحملة صادفهم جماعة قليلة العدد من العساكر الخديوية التابعة للحملة ، والذين كان قد أرسلهم الحكمدار لجلب بعض الغلال اللازمة لتعيينات العساكر من العربان الذين دخلوا تحت طاعة الحكومة الخديوية ، فاشتبكوا معهم فى معركة دامت أربع ساعات سقط خلالها حسب ما ورد فى الوثائق ثمانية وعشرون قتيلًا من جيش النور عدا الجرحين والمفقودين .

وعندما بلغت أنباء هذا الاشتباك اسماعيل باشا أيوب الذى كان فى هذا الوقت قد وصل الى فوجة ، ويحاول الوصول الى أم شنقة أسرع بمن معه من العساكر واستطاع اللحاق بهذا الجيش الفوراً و الاشتباك معه بالمدافع فلم يستطع هذا الجيش الثبات أمام رجال الحكمدار ، ومن ثم ولى رجاله جميعاً الانبهار ، فأخذ الحكمدار يطاردهم حتى استطاع انزال الهزيمة بهم وأن يدخل أم شنقة . وقد أمن الحكمدار جميع الأهالى فى هذه البلدة على حياتهم بعد أن دخل معظمهم طوعاً تحت طاعة الحكومة . وقد أخبر كل من الحكمدار ووكيل الحكمدارية بالخرطوم هذه الأنباء الى القاهرة فى ٢٢ و ٢٦ شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٤ و ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م (٨٧) .

وفى السابغ من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م أحاط الحكمدار القاهرة علماً وهو بأم شنقة بأن

الزبير وجيشه قد عادوا الى القطعة سالمين بعد انتصارهم على جيش الأمير حسب الله . وأن جواسيس الحكمدار قد نقلوا اليه أنباء قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى داراً على رأس جيش كبير بعد أن أعيته الهزائم التي حلت بجيوشه التي أرسلها تباعاً ضد الزبير . أشار الحكمدار أيضاً الى برقيته أن في إمكانه دخول العاصمة الفاشر بسهولة وذلك نظراً لقلة العساكر التي تركها السلطان بها ، ولكنه عاد فقرر بعد أن ترأسل مع الزبير رحمة بأنه قد قام منذ يومين على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل من الجهادية والباشبوزق وخمسة مدافع وهو ما أمكنه جمعه أثناء إقامته بام شنقة وذلك للانضمام الى قوة الزبير البالغ عددها سبعة آلاف رجل وخمسة مدافع ، والتي هي على مسافة ستة أيام بمشي العساكر للقضاء على قوة دارفور الأخيرة التي تحت قيادة السلطان ابراهيم والدخول بها بعد ذلك الى الفاشسر عاصمة دارفور وقد طلبان القاهرة على سلامة وسائل الاتصال بينه وبين كل من كردنان والزبير (٨٨) .

أبلغ الحكمدار القاهرة في برقية تحصل تاريخ الثامن من رمضان الموافق ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤م بأنه نظراً لأهمية مركز أم شنقة ومخافة عصيان الأهالي المحيطين بالمركز وقيامهم بالثورة ولضرورة استحضار الغلال اللازمة للشونة التي رتبها بها من الأهالي . فقد ترك بهذا المركز سرسوار شامية بأربعمائة نفر ومذفع واحد للفرض السالف الذكر (٨٩) .

كما أبلغ القاهرة في برقية لاحقة بأنه قد بلغ بلدة تسمى القوين وأن أهالي تلك البلدة كانوا يحضرون أمواجاً للدخول في طاعة الحكومة وذلك نظراً لما شاهدوه من قوة عسكر وأسلحة الحكومة الخديوية . كما أشار الى أن جيش الزبير ، الذي يبعد عنه بمسافة ثلاثة أيام فقط ، في حالة طيبة . ورغم أن قوات

السلطان ما تزال على مسافة يوم واحد منه ، ونوه بعزمه على التوجه للزبير والاجتماع معه لدخول العاصمة الفاشر (٩٠) .

اتهم اسماعيل باشا أيوب بتعمد الإبطاء في التقدم نحو الفاشر :

اتهم اسماعيل باشا أيوب بتعمد الإبطاء في سعيه نحو الفاشر لتجنب القتال ضد جيوش دارفور ، وأنه عندما وصل الى فوجه كتب الى الزبير وهو اذ ذاك في دارا بصدد هجيات الأمير حسب الله والسلطان ابراهيم ، يخبره أنه في طريقه اليه بالنجدة طالباً منه أن يتشدد ويقاوم حتى يصل . حينئذ بعث اليه الزبير يسأله عن سر هذا الإبطاء في التقدم والعدو يحدق به بجيوش لا حصر لها ، وأنه مادام يحمل له النجدة فعليه بالاسراع في السير حتى لا يصل بعد فوات الأوان ثمرد عليه اسماعيل باشا أيوب قائلاً : « أفنى لم أمرك بالتقدم الى دارا ولم يكن هذا من بين ما كلفتك به حكومة الخديو السنية ، لماذا استطعت أن ترفع الحصار وأن تنجو بجيشك الى هنا فافعل والا فدبر أمرك بما تراه صواباً » . وقد بقى اسماعيل باشا أيوب في فوجه على ما ذكر الزبير (٩١) .

وبمناقشة ما اتهم به الحكمدار يتضح لنا ما يأتي :

أولاً : بالنسبة لاتهم الحكمدار بتعمد الإبطاء في التقدم لنجدة الزبير ، فقد علل بعض الكتاب ذلك بأن اسماعيل باشا أيوب قد حاول في تقدمه نحو الفاشر أن يكسب الى جانب صداقة سكان وزعماء هذه الاقاليم بالطرق السلمية ، لذلك فقد قام بتحرير ما لا يقل عن ١٦٠٠ من الرقيق ، كما زود ما لا يقل عن سبعمائة بوثائق تحريرهم من الرق (٩٢) .

ويمضد على صندق ما ذكر من البرقية التي بعث بها اسماعيل باشا ايوب الى المعية بتاريخ ٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ يعلمها بان جواسيسه قد نقلوا اليه انباء وجود عدد من تجار الرقيق ومعهم اعداد كبيرة من رقيقهم بجهة تسمى كلبية ، وانه لما بلغ هؤلاء التجار قدوم العساكر الخديوية اختفوا بترك الجهة ، 'لا انه تمكن من ضبط نحو الف وستمئة من نساء واطفال ، وان اغلبهم من اهالي دارفور وبلاد بحر الغزال ، وقد اعترف التجار بانهم كانوا متوجهين بهم لبيعهم ، وان سلطان دارفور نفسه له حصة في المكسب الذي ينتج بعد بيعهم . وقد صار اخلاء سبيل القاسر منهم على المشى ونزويده باوراق تثبت عتقه وتحريره ، وصرف جانب من التعميمات لهم ليستطيعوا ان يتوجهوا الى بلادهم ، وقد قام الحكمدار بتعيين عدد من الاطباء لعلاجهم ، والسهر على راحتهم وكل من شفى منهم يخلى سبيله (٩٣) .

والحق ان الحكمدار لم يتجهل في المسير الى الفاشر ، ورغم اتهامه بانه قد بقى ببلدة فوجه مدة بينما كان الزبير يحارب في دارا ، فان من الخطا الاعتقاد بان اسماعيل باشا ايوب لم تكن لديه الرغبة الكافية في فتح سلطنة دارفور .

ثانيا : عندما كان الزبير يحارب في دارا في سبتمبر سنة ١٨٧٤ م لم يكن اسماعيل باشا ايوب في بلدة فوجه كما ذكر ، بل كان يحاول الوصول الى بلدة ام شنقة والتخفيف عن الزبير . وكانت خطته تعتمد على ان ينضم بقواته الى الزبير ، وعندئذ يمكن لكلا الجيشان التقدم نحو الفاشر . وقد كان لاحتلال اسماعيل باشا ايوب لبلدة ام شنقة ، في اواخر معركة الزبير مع السلطان ابراهيم بدارا في اكتوبر سنة ١٨٧٤ م اثره البالغ في تخفيف عبء الهجوم على الزبير في الجنوب رغم كثافته . وكانت قوات الحكمدار

قد سبق لها الدخول فى معركة مع جيش نورأوى آخر أرسله السلطان وانتهى أمره بالهزيمة .

وفى ذلك للحين سرت الاشاعات بأن الفرقة الأولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل ، وهذا ما جعل اسماعيل باشا أيوب يبقى بأمر شنفه ويحصنها ويتريث حتى تصله الأخبار الأكيدة من مصير الزبير وفرقته . وقد تحقق لدى اسماعيل باشا أيوب كذب هذه الاشاعة حينما اتصل به الزبير مخبرا إياه بمقتل السلطان إبراهيم وتقديمه نحو الناصر (٩٤) . وقد استطاع الحكمدار بنفحة أم شنفه أن يكتب نصرا مهما ينطوى على شيء من الذكاء والخديعة ، بعدها أصبحت وسائل الاتصال بينه وبين الزبير سهلة ميسورة .

قالا : يبدو أن الحكمدار عندما انقطعت عنه أخبار الزبير اتجه بجيشه الى دارفور لاستجلاء الحالة هناك ، والخليل على ذلك أنه عندما أراد الزبير أن يتصل به لاعلامه بدخوله الناصر على لسان الرسول الذى بعث به اليه ، لقيه هذا الرسول وهو فى طريقه الى دارا غلبا أبلغه بهذه الأخبار انثنى اذ ذاك عنها ووجه الجيش الذى تحت قيادته الى الناصر فدخلها فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م (٩٥) .

هوقمة منوالشى : (١٤ رمضان سنة ١٢٩١١ هـ - أكتوبر سنة ١٨٧٤ م) :

وفى الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م بدأت حملة الزبير لاحتلال دارفور تقرب من نهايتها ، وفى هذا اليوم خرج من قلعة دارا على رأس جيش قوامه سبعة آلاف رجل ، بعد أن تحطمت على أسوارها أمواج المهاجمين الذين ساقهم السلطان إبراهيم لطرده منها ، وقد خرج جيش الزبير ليقتنى اثر جيش

السلطان ابراهيم وليكتب في سجل معاركه معه معركة أخرى .
وفي يوم ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ أكتوبر سنة
١٨٧٤ م أدركه عند بلدة منواشي (٩٦) ، ومع السلطان ، من الجنود
حوالي ثلاثين ألفا ، وفي معسكره ثمانية مدافع ، وقد قسم جنده
الى مينة وميسرة وقلب ، وأقام هو ومدافعه ومن بقي من أبطال
جيشه وأقاربه في موضع القلب من كل هذا ، واستعد للمعركة
الفاصلة .

وقد أشرقت شمس يوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة
١٨٧٤ م لتشهد السلطان ابراهيم وهو يبدأ هجومه على جيش
الزبير باطلاق احدى عشرة قذيفة من مدافعه على مواقع جيش
الزبير لم يعبا لها ، ومضى الزبير على رأس جيشه قاصدا موقع
القلب من قوات السلطان ، فلم يلبث أن تخطى السلطان عن مدافعه
وأمر ميمته وميسرته بالهجوم على جيش الزبير . وبدأت المعركة
وحمى وطيس القتال . ولم يكد يمضي وقت قليل على بدء المعركة
حتى تخالفت مينة وميسرة قوات السلطان ومضت متقهقرة الى
الوراء ، عندئذ هاجم السلطان ومن معه في القلب من أبطال
جيشه وصناديده قوات الزبير ، فتراجعت مقدمة قوات الزبير
الى الوراء قليلا لتعيد تنظيم صفوفها . ولم تلبث أن عاودت الهجوم
على جيش السلطان ، فأشد القتال مرة أخرى ، واستخدمت
السيوف والخياب بحل الجنادق والمدافع . وقد أعترف الزبير نفسه
بشجاعة السلطان واستبسال جيشه في القتال ، فقد شاهد
الزبير من مكانه الذي يشرف على أرض المعركة السلطان
وهو يجول ويصوب وسط المعركة ، وهو يقاتل في عزم واستبسال
ويعمل جاهدا لكي يفصل عن عزته ما أصابها من ذل وهوان ،
حتى خر قتिला هو ومن معه من الفرسان ومنهم الكثير من أولاده
وأشراف دولته فكان هذا ايذانا بانتهاء المعركة التي انتهت من

نصر مبین لجیش الزبیر ، لم یتردد الزبیر فی الاحتفاء بجثته ، فکنها بالأمشة الفاخرة ودفنها فی جامع منواشی فی احتفال عظیم اجلالا لقائه کسلطان وافرارا بمسلکه کنارس ، ثم دفن بعد ذلك القتی من اولاد واکابر دولة السلطان ، وهنا عن جمیع الاسرى وسمح لهم بالذهاب الى حيث يشاءون ، وقد غنم الزبیر فی هذه المعركة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين جملا محملا بالذخيرة والعنادر الحربیة . وقد بقى الزبیر وجيشه فی منواشی مدة أربعة ايام اخرى انطلق بعدها لدخول العاصمة الفاتر (٩٧) .

وبینما الزبیر یترك دارا فی الثالث والعشرين من اکتوبر سنة ١٨٧٤ م لتعقب السلطان کان الحکدار یقتصد على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل لکی یلقی بقوات الزبیر ، وقد وصلت الاخبار الیه وهو یقترب من دارا بأن الزبیر مشتبک فی معركة مع جيش الفور الرئیسی عند بلدة منواشی ، وأن السلطان قد قتل . حينئذ انطلق الحکدار بجيشه خلف الزبیر للحاق به (٩٧) .

ابرق الحکدار فی ٢٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣ نوفمبر ١٨٧٤ م الى القاهرة يعلمها بتفاصيل هذه المعركة ومقتل السلطان ، ویبلغها أنه وفرقته بالقرب من دارا وأنه متوجه بقواته الى المناسر ، ویهنئ الاعتاب الخدیویة على هذا النصر العظیم ، وقد ابلغها أيضا بها استولى علیه الزبیر من أسلحة وذخائر وخلافه (٩٩) .

کان لهزيمة سلطان دارفور ومقتله اثره فی أن یخلو الطريق امام الزبیر لدخول العاصمة الفاتر ، ولیبرهن مرة أخرى امام التاريخ فتحه لدارفور بنفسه قبل أن تصل الیه حملة الشرق التي تأخرت فی الوصول الیه . وقد اثبتت هذه المعركة بها لا یدع مجالا للشك مدى فاعلیة الدور الذی أسهم به الزبیر وجيشه فی فتح

دارفور ، وقضائه على جيوشها وقتل سلطاتها ، بعد أن تحل جيشه العبد الأكبر في القتال ضد جيوش السلطان الكثيفة المتوالية ، منذ بدأت الحرب وبدون مساعدة فعالة من جانب الحملة التي يقودها الحكمدار . وكانت المعركة من الناحية التاريخية هي الخاتمة لسلسلة المعارك الدامية التي وقعت بين جيوش السلطان والزبير . كما أنها أعلنت في وضوح نهاية هذه السلطنة بعد مقتل آخر سلاطينها إبراهيم على يد الزبير رحمة .

دخول العاصمة الفاشسر (١٠٠) :

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الزبير على رأس جيشه مدينة الفاشسر مقتصرًا . وهناك وجد أن عائلة السلطان وباقى أهله الذين كان قد خلفهم فيها قبل خروجه منها قد نروا ، فلم يبق في المدينة غير التجار وبعض العلماء ، فأمن الجميع على أموالهم وأحسن معاملتهم فلما بلغ ذلك الأهالي انتشر خبر عدله ووفائه بالعهود ، فآخذ الناس يقدون عليه مقدمين غروض الولاء والطاعة والامتثال ، وما هي إلا أيام حتى دان له الجميع بالطاعة والولاء سواء من الأعاجم أو العربان أو الحضر أو البدو . وفي أوائل شهر شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الحكمدار الفاشسر على رأس حملته، فرحب به الزبير وأكرم لقياءه وأطلق له مائة كفيفة بمنفع تحية وترحيبا بقدمه ، فهناه الحكمدار بالنصر ولم ينس أن يشكر له ولاءه وحسن خدمته (١٠١) .

ولقد كان سقوط العاصمة الفاشسر الخطوة التي قامت سكان المناطق المجاورة لها على التسليم بسلام للفاتحين . حينئذ أطلق الحكمدار حرية الرقيق وأعطاهم وثائق تثبت تحريرهم من الرق .

وكانت الخطوات قد اتخذت لإرسال الرقيق المحرر والذين لا يرغبون في البقاء بدارفور ، الى بلادهم . كانت نية الحكومة الجديدة نجه الى وضع جميع شعوب دارفور موضع المساواة مع المصريين . هذه السياسة كان فيها شيء من الحكمة والتعقل مما حدا بالناس وشجعهم على التسليم بسلام الى حكم الفاتحين .

الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في فتح دارفور :

من خلال تفاصيل الاحداث السابقة المتعلقة بغزو دارفور نستطيع ان نقف على حقيقة الدور الذي اسهم به كل من جيش الزبير من ناحية وحملة الشرق بقيادة الحكمدار من ناحية أخرى . في النقاط التالية :

اولا : دور جيش الزبير :

(١) كان له النصيب الأكبر في فتح دارفور ، فقد خاض أكثر من معركة ضد جيوش دارفور المتتابعة وانتصر عليها برغم تفوقها في العدد والعدة .

(ب) كان وراء الانتصارات التي حققتها جيش الزبير شخصية الزبير القيادية بما تنطوى عليها من صفات جليلة متمثلة في المهارة الفائقة في التخطيط وارادة قوية في التنفيذ وقناة لا تلبث في مجابهة الصعاب ، وايمان عميق في النصر ، وأخيرا اخلاص للحكومة الخديوية في تأدية المهام الموكولة اليه بأمانة .

ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

(١) لم يكن لجيش الشرق الدور الذي ساهم به جيش الزبير في الفتح ، بل أن دوره لم يخرج عن مهمة المساعدة الهامشية لجيش الزبير التي تمثلت في التصدي للجماعات المسلحة الصغيرة .

التي أرسلها السلطان لعرقلة تقدم الحملة التي يقودها الحكمدار ، فكان دوره يعتبر جزءا مكملا لعملية الانتح ، ولكن اذا قيس بنظيره في الجنوب لظهر هذا الفارق بوضوح .

(ب) لم يوضع جيش الشرق موضع الاختبار الكافي من حيث القوة فلم يدخل الا في معارك محدودة مع جيش العدو وعذره في ذلك أن دارفور كانت توجه معظم اهتمامها لجهة الجنوب ، ومن ثم كانت الاختبارات التي تعرض لها جيش الزبير أكثر مما تعرض لها جيش الشرق . وقد كان وراء قيام الحكمدار بتنفيذ المهام التي كلف بها ، بكل اهتمام واخلاص في غزو دارفور ، ما تتمتع به هذه السلطنة من ثروة وثورة عظمتين كانتا تثيران طموح الخديو . في نفس الوقت كانت تمثل باستقلالها تهديدا لسلطنة الخديوية في السودان من حيث أن موقعها الجغرافي يجعلها تسيطر على طرق القوافل المتجهة الى بحر الغزال ، كما أن هذا الموقع جعلها مأوى لتجار الرقيق ورفيقهم بعيدا عن أعين الحكومة ، التي كانت تحارب هذه التجارة في ذلك الوقت . ولقد كان لنحسب الزبير المعبء الأكبر في هذا الفتح أثره السيء في نفسية الحكمدار الذي كان يرغب في أن ينسب اليه هذا الفتح العظيم ولكنه لم يستطع ذلك (١٠٢) .

غنائم الحرب :

أما عن غنائم الحرب ، فبالإضافة الى ما استولى عليه الزبير عقب انتصاره على السلطان ابراهيم في معركة منواشى ومعاركه السابقة مع الأمير حسب الله وأحمد نمر من أسلحة ونخائر وغير ذلك ، فقد ذكرت الوثائق أن الأمير محمد الفاضل ابن السلطان ابراهيم لما بلغه مقتل والده . فر من الفاشر وحمل معه ما أمكنه من الاموال والاشياء الخفيفة الثمينة من الذهب والفضة وغيرها ،

٢١
 بما المثقلة منها مثل الأمتشة وخلافه ، فقد تركها في محلاتها فلم
 يلبث الأهالي أن استولوا عليها وبعد دخول الزبير العاصمة
 الفاشر لم يجد شيئا من الغنائم التي كان يأمل الاستيلاء عليها
 باسم الحكومة ، وبالبحث تبين كما ذكر أن الأهالي قد استولوا
 على الجزء الأكبر منها ، فصار ضيوط كل من لديه شيء من متعلقات
 السلطان ومصادرتها لحساب الحكومة . وقد أرسل الزبير جميع
 ما صلب اغتنامه من المعارك السابقة وما تم ضبطه من متعلقات
 السلطان لدى أهالي الفاشر إلى الخرطوم التي قامت بإرساله
 بالتالي إلى القاهرة مع برقية تحمل هذا المعنى بتاريخ ٢١ ذي
 القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م (١٠٣) .

تمسرد الأمير حسب الله :

لم تكد تمضي أيام قلائل على دخول الزبير والحكمدار الفاشر ،
 وهذوء الحالة نسبيا بها ، حتى تفجر هذا الهذوء عن عصيان قام
 به الأمير حسب الله مع عدد من أبناء السلطان الراحل وأقاربه
 لجبل مرة (١٠٤) . وكان الحكمدار قد أبلغ القاهرة في ٢٧ شوال
 سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م يبلغها خبره
 الفاشر وتأيينه لأهاليها ، ودخولها في طاعة الحكومة ، وإطلاق
 حرية الرقيق منهم ، كما أبلغها بأنه لما تحقق أن تبقى من عائلة
 السلطان الذين كانوا ضمن جيشه من حقيقة مصرمه اجتمعوا
 حولوا عليهم الأمير حسب الله سلطانا بجهات غرب دارفور (١٠٥) .

لهذا الغرض جرى امتداد فرقة بقيادة الزبير ثوابها اثنا
 عشر ألف مقاتل منهم أربعمائة من الميساك النظامية ومائتان من
 الفرسان لطاردة الأمير حسب الله . وأنه تعقب المتبردين حتى
 أجبرهم على الالتجاء لجبل مرة وأنه جرى إمداده بنجدة أخرى (١٠٦)
 وقد أرسل الحكمدار رسالة إلى الأمير حسب الله يعده فيها بالعمو

عنه وعن اتباعه وأن يعيد اليهم ممتلكاتهم اذا ما استسلموا بدون مقاومة (١٠٧) .

فلما رأى الأمير حسب الله قوة جيش الزبير وأنه لا قدرة له على مقاومته سلم له بلا قتال ، فالتقى الزبير القبض عليه ومن معه من أبناء السلطان ابراهيم وغيرهم من أبناء السلاطين السابقين ، ونحو ألف ومائتين من الأعيان والكبراء كان من بينهم أخت السلطان ابراهيم الميرم عرفة (١٠٨) . وجاء بهم جميعا الى الناصر وكان من جملة هؤلاء الأسرى أيضا زوجات السلطان الراحل (١٠٩) ، فوصلها الزبير بعد غيبة عنها دامت تسعة وتسعين يوما (١١٠) . وقد أبرق الحكمدار للقاهرة بما حدث لى ١٧ ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٥ ، يقترح تعيين الزبير مديرا لمعوم دارفور وحسن بك حلى تومندانا على المسافر الجهادية (١١١) .

طلب الأمير حسب الله من الزبير بعد استسلامه أن يستعمل نفوذه لدى المسؤولين في القاهرة ليذولى حكم دارفور تحت إمرة الحكومة الخديوية في مقابل أن يدفع مائة ألف جنيه سنويا كجزية للدولة ، فلقى هذا الرأي من الزبير كل موافقة وترحيب ، ووجد فيه خير سبيل لراحة البلاد والحكومة من هذه المسؤولية المكلفة ، فتمهد له ببذل كل عون في سبيل تحقيق رغبته هذه غير أنه منعا تقدم بهذا الاقتراح الى اسماعيل باشا ايوب مؤيدا آياه رفضه الأخير رفضا باتا وأبى حتى أن يستمع الى حجج الزبير التي حاول أن يسوقها لاقناعه بالموافقة على هذا المشروع ، وقد طال الجدل بين الاثنين حول هذا الاقتراح حتى استحال الى نزاع مسافر (١١٢) .

اسباب رفض الحكمدار لاقتراح الزبير بتميين الأمير حسب الله سلطتنا على دارفور :

اولا : لم يكن لدى الحكمدار الضمانات الكافية للزام الامير حسب الله بتنفيذ هذا الاقتراح وخاصة ما يتعلق منه بدفع الجزية وضمان استمرار طاعته للحكومة المصرية .

ثانيا : روح العداء والكراهية التى يكنها زعماء وسلاطين دارفور للزبير والحكومة ، واحتمال عدم استمرارهم فى اخلاصهم وولائهم المنفع تجاه الحكومة وقيامهم بالثورة عليها يوما ما للانتقام لما أصابهم على يدها من اضرار غزو بلادهم يضاف الى ذلك ما قد يترتب على اعمالهم هذه المتوقع قيامهم بها من ضياع للجهود والاموال التى بذلت فى الفتح .

ثالثا : كان من أهداف الفتح القضاء على الطابع الانفصالى لدارفور كسلطنة ، وضما كجزء متمم للسودان ، وكذلك القضاء على تجارة الرقيق فيها ، فكان معنى الموافقة على هذا الاقتراح هو عودة للأوضاع التى كانت عليها قبل الفتح .

رابعا : انعدام الثقة والتفاهم بين الزبير والحكمدار مما ادى بالتالى الى عدم الاخذ بهذا الاقتراح ومثله قبل أن يتم عرضه على الخديو فى القاهرة .

ولم يلبث الحكمدار فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يناير سنة ١٨٧٥ م أن قام بإرسال الامير حسب الله (٧٠ — ٧٨ عاما) وعائلته وأتباعه البالغ عددهم حسب ما ورد بالوثائق ما بين ٩٦ و ٤٨ من ذكور وإناث فى حراسة قوة تحت قيادة حسن بك حلمى الى أم شنقة ، كى يتوجهوا منها الى كرفنان ومنها الى الخرطوم فى حراسة الأورديين الباشهوزق ، قبلفوها فى التاسع والعشرين من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق سبعة

مارس سنة ١٨٧٥ م ، وكان الحكمدار قد بعث فى الثالث من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٨٧٥ م بأولاد السلطان الذين تم القبض عليهم بعد فرارهم وهم محمد الفضل ، وعبد الرحمن جامع وعبد الرحمن شاطوط شقيق السلطان ومعهم عائلاتهم وأتباعهم البالغ عددهم ٢٢٣ نفرا فى حراسة قوة الى الخرطوم (١١٣) .

وكان الخديو قد قام من قبل بدموية كل من الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل لزيارة القاهرة ، ولما وصلا إليها فى مارس سنة ١٩٧٥ م أعد لاستقبالهما قصر خاص (١١٤) إلا أن الحكومة بعد ذلك قامت باسكاتهم فى الحى المعروف بسوق السلاح ، وأجرت لهم المرتبات فعاشوا فى راحة وسلام وكان من بينهم الأمير عبد الحميد ابن السلطان إبراهيم وتسعة عشر آخرون من أبناء السلطان (١١٥) .

وعندما وصل الزبير بالأسرى الى الفاشر أمره الحكمدار بالرجوع الى دارا والاقامة بها هو ومساكره الى حين أن يصدر اليه أمرا آخر بالمودة الى بحر الغزال (١١٦) .

ومنذ تلك اللحظة وضحت السياسة التى كان يريد الحكمدار اتباعها مع الزبير وهى فى مضمونها إبعاده شيئا فشيئا عن أمور الحكم والسياسة الخاصة بدارفور ووضعه فى بوتقة صغيرة ، تمهيدا لاسناد العمل المناسب له أو إقصائه عن بلاد السودان كلية .

ثورة الأمير بوشى :

لم يمضى على حالة العصيان التى أعلنها الأمير حسب الله ومن معه مدة طويلة ، حتى ظهر بجبل مرة ثائر آخر من الاسرة الحاكمة هو الأمير بوشى شقيق الأمير حسب الله لذلك أرسل الحكمدار الى

الزبير ، وهو اذ ذاك فى دارا ولم يفيض عليه بها اكثر من شهر واحد ، كتابا يامر فيه بالخروج لاجساد ثورة هذا الامير ، واعادة الامن والسلام الى ربوع البلاد ، فامتلل الزبير للأمر الصائر له وخرج بجيشه قاصدا جبل مرة ، فقام بمحاصرته وبعد معارك استمرت لمدة خمسة عشر يوما متصلة ، هرب الامير بوش من جبل مرة ، فقام الزبير بتعقبه حتى ادركه قرب بلدة ككبكية (١١٧) . فدارت بين الاثنين معركة انتهت بمصرع الامير بوش وفرار جيشه ، وفى الثالث من أغسطس سنة ١٨٧٥ م بعد ان تم للزبير النصر على الامير بوش . انبسطت أمام باصرته ارض جديدة لم يجد مانعا من غزوها وضربها الى ممتلكات الجناب العالى الأخديو بالسودان (١١٨) .

الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برقو - واداي) :

اعربت القاهرة فى برقيتها المؤرخة فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م للحكمدار عن رغبتها فى اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة للاستيلاء على برقو نظرا لموقعها الاستراتيجى الذى يمثل مفتاح الغرب السودانى ، وذلك بتقوية الفرقة التى مع الزبير بتلك الجهات . وكان الهدف من ذلك هو العمل على ابعاد الزبير عن مسرح الأحداث السياسية فى السودان ، وكذلك التخلص من جنود البحارة الدناقلة الموجودين فى بحر الغزال ، ولكن القاهرة رغم ما جاء بالبرقية من تعليمات خاصة بفتح برقو غائبا لم تقيد الحكمدار برغبتها هذه ، بل تركت له حرية العمل بما يراه صائبا . وكان رد الحكمدار على القاهرة ان الوقت غير مناسب لهذا العمل ، لعدم استكمال ضبط دارفور . وقتل المساكين الموجود معهم مع الزبير خارج دارفور منذ عام أو اكثر رسوء حالتهم الصحية والمعيشية ، وعدم حصولهم على مرتباتهم منذ مدة ، وأن فتح برقو تشتت وتشتت للجهود المبذولة فى ضبط دارفور (١١٩) .

حتى أمره الحكمدار بالرجوع عنها فى الحال . فقتل عائدا للنواشر
متأسفا على ذلك الفتح الذى أفلتت من يده . وهناك أخبره الحكمدار
بان جناب الخديو أمر برجوعه عن هذه البلاد مع مكافاته على
ذلك (١٢٣) .

ترقية الزبير والحكمدار :

كان وكيل الحكمدارية على اتصال مستمر بالقاهرة لتبليغها
أولا بأول بانباء ما يجرى بدارفور ، وكان آخر ما أبلغ به القاهرة
من معلومات هو الانتصارات التى أحرزها كل من جيش الزبير
والحيلة التى بقيادة الحكمدار ومقتل السلطان إبراهيم فى ٢٢
رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م على يد
الزبير . فلم يلبث أن أبرقت القاهرة للخرطوم فى ٢٥ رمضان سنة
١٢٩١ هـ الموافق ٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م بـالتهنئة فى هذا العمل
المجيد . وأجاب الحكمدار بشكر جناب الخديو على تهنته هذه بعد
أن قام بتبليغ تهنئة الخديو لكافة الضباط والمساکر فى احتفال
عسكرى مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجا بهذه المناسبة (١٢٤) .

وطلب ناظر الجهادية فى الثامن والعشرين من شوال سنة
١٢٩١ هـ الموافق ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م من الخديو التصديق
على ترقية الضباط الذين أظهروا شجاعة ، وبذلوا جهودا مخلصه
أثناء هذه الحرب الى رتب أعلى كتوصية الحكمدار له فى غاية
رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م (١٢٥) .

وفى التاسع والعشرين من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق
١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م أرسلت ارادة سنية الى الحكمدار تهنئة
عنها على هذا النصر العظيم للمرة الثانية ، وانعام الخديو عليه

مرتبة الفريق ، والنيشان المجيدى العلى من الطبقة الاولى ، وعلى الزبير برتبة اللواء والنيشان المجيدى من الطبقة الثانية ، وتنبه الى ضرورة توجيه الاهتمام الكفى لتنظيم أمور هذه المديرية الجديدة ، والعمل على راحة أهاليها وطلب ما يلزم لها من العساكر والموظفين (١٢٦) .

وفى غرة ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٩ يناير ١٨٧٥ م صدرت من المعية أوامر كريمة بهذه الرتب والنياشين الى كل من الزبير والحكدار ، وتحمل اليهما الثناء والشكر على ما بذلاه من جهود مخلصة فى هذه الحرب ، وفى خدمة الحكومة وتحثهم على بذل المزيد من السعى والاجتهاد مقابل الوعد بمزيد من المكافآت والانعاشات من جانبها (١٢٧) .

مكان الزبير فى الإدارة الجديدة :

لم يكن هدف الزبير الحقيقى من وراء قيامه بنتح بحر الغزال ببلاد شكا ودارفور ان يتولى هو امرها ، بل كان يؤمن وهو الذى اجتمع حوله جيش كبير ، ان من مسئوليته العمل على استقرار الأوضاع المضطربة فى تلك المناطق بالقضاء نهائيا على الخارجين والمفسدين لهذا الاستقرار . ومن ثم بدأ يعمل ويخطط سياسته التى أصابها النجاح الى حد كبير . ويؤكد ذلك أنه بعد أن اتم فتح بحر الغزال عرض على الحكومة أن ترسل من طرفها من يتولى حكم هذه البلاد حتى يستطيع هو أن ينصرف الى تجارته ، ولكن الحكومة لم تقبل هذا العرض واقترت توليته على بحر الغزال مقابل جزية يدفعها للحكومة . ولم تكن فى اقدامها على هذه الخطوة مضطرة أو مجبرة ، ولكنها رأت أن من صالحها عمل ذلك . وبعد أن تم فتح دارفور ومشاركة الحكومة له فى هذا الفتح نجد أن

سياسة الحكومة قد تغيرت عن سياستها تجاهه عندما اقترت توليته على بحر الغزال . نهي بعد أن تم فتح دارفور لم تقبل بأي صورة من الصور أن ينفرد الزبير بشار نجاحه هذا ، ولكنها لم تصرح له بذلك في بادئ الأمر ، بل لعبت السياسة دورها في ملاينته ومهادنته ، حتى تم لها ما أرادت بفضل ذلك بالقضاء على جميع الاضطرابات والثورات التي تولدت بعد الفتح من جانب اقارب السلطان ابراهيم . حينذاك بدأت سلسلة من الاتصالات السرية بين الحكومة والحكماء لتحديد مكان الزبير في الادارة الجديدة .

وفي هذا السبيل تبوَّلت التفرقات الشيعية العربية والتركية بين الحكماء والقاهرة ، فبعد سفر الزبير متعقبا الأمير حسب الله الناصر اقترح الحكماء أن يعين شخص آخر غير الزبير مديرا عاما على المديرية الأربع لدارفور برتبة لواء ثم ذكر الأسباب التي بسببها لا يقر صلاحية الزبير لمثل هذا المنصب . مضاهيا اليها أن اشرافه على سير الأمور في بحر الغزال وشكا يمناعه من ذلك ، وقد خلع الحكماء من تلقاء نفسه على الزبير لقب « مأمور ادارة دارفور » تطميناً له حيث أن قواته كانت تزيد على الستة آلاف رجل وكلها مزودة بالأسلحة النارية ونصفها من عبده الخصوصيين . وقد علم الزبير أنه سوف يعين فعلا على دارفور وشكا وبحر الغزال بارادة سنية سوف ترد من المحروسة . ويظهر من تفرقات الحكماء الشيعية للقاهرة أن ما دعاه الى انتهاج هذه السياسة هو قوة الزبير التي بدونها لم يكن يستطيع السيطرة على دارفور ولا القضاء على الثورات والتفردات التي ظهرت بعد الفتح . لذلك رأى مجارته وتطبيب خاطره الى حين . واقترح الحكماء أيضا أن ترد الارادة السنية بفصل ادارة دارفور عن بحر الغزال وشكا ويعين مدير عام برتبة لواء عليها ، اما بترقية حسن بك حلى الموجود بالفاشر آنذاك أو من تراه الحكومة

صالحا لهذا المنصب ، وبذلك تحال شكا وبحر الغزال الى مهدة الزبير مؤقتا كما كانت من قبل . وكان الحكمدار يرى ان ذلك هو الطريق الوحيد لادارة دارفور ادارة رشيدة ، فحين ان الاهالى هناك كما يقول الحكمدار ينفرون من حكم الزبير وادارته ، وان كل تلك الاقاليم الشاسعة فوق قدرته الادارية .

وبعد خمسة ايام من تاريخ ارسال هذه البرقية رأى الحكمدار انه بعد ذهاب الزبير الى شكا وبحر الغزال ، لن تكن القوة النظامية الباقية لحفظ الأمن ، وأنه لذلك يرى ضرورة الابقاء على الزبير حينما من الزمن بدارفور يشرف فيها على الادارة ويقتى معه حسن طمى بك قائد للعساكر الجهادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر . وفى هذه الحالة تستطيع القوة المصرية العمل على حفظ النظام والدفاع عن دارفور بما فيه الكفاية . وعندئذ فى الامكان ارجاع الزبير الى مقر وظيفته الاولى فى مديرية بحر الغزال وشكا . ولكن الحكمدار تردد مرة اخرى فى خطته واسرق للقاهرة مقترحا تأسيس مديرية عامة لغرب السودان ، تشمل دارفور وبحر الغزال وشكا وان يعين الزبير بها مديرا لبحر الغزال وشكا ، وحسن رفعت بك مديرا لدارفور ، وحسن طمى بك قائدا للعساكر الجهادية ، على ان يكون على رأس هؤلاء جميعا خالد باشا بعنوان مدير عموم غرب السودان ، الذى كان يشغل فى ذلك الوقت قائمقام الحكمدارية بالخرطوم . وترك الحكمدار امر الانعام على هؤلاء بالترتب والنيابشون لارادة ولى النعم وذلك حثا لهم على زيادة نشاطهم فى خدمة الحكومة . وكانت هناك وجهتان للنظر فى هذه المسألة :

الاولى : ان يعهد الى الزبير بحكم دارفور وبحر الغزال وشكا وفتح برغو ، ويعين بهذا مديرا على كل الجهات الغربية ،

ولكى يظل هذا الجزء منفصلا من حكدارية السودان مثل شرق السودان ، والا تتحمل الحكومة اية مصروفات لها .

الثانية : هى ان يبقى الزبير فى الوقت الحالى بدارفور الى ان يتم اخضاع كل الجهات فيها وترد للمديرية القوة العسكرية الكافية . وائفاء ذلك تحتاج دارفور الى مصروفات تبلغ بين سبعة وثمانية آلاف كيسة تتحملها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان احدهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان نحو فتح برقو(١٢٨) .

ولى التاسع من ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ م ابرق الحكمدار للقاهرة يطلب الابقاء على الزبير وجماعته بدارفور بصفة مؤقتة بحيث يعين عليها رسميا بعنوان مدير عموم ، لى يسهل بعد ذلك نزع بحر الغزال من ادارته دون جهة شكا ، ولكى يقوم باستكمال ما بداه من اخضاع بقية اهالى دارفور لطاعة الحكومة . وقد صار الاهالى يخشون بطش الزبير ويأس جماعته ورأى الحكمدار صرف النظر مؤقتا من تعيين خالد باشا حتى لا يحدث انشقاق فى الادارة والاكتفاء بالابقاء على حسن بك حلمى بوظيفة قومندان للمسلكر النظامية ثم يعين حاكما على دارفور عند قيام الزبير بفتح جهة برقو(١٢٩٦) .

ولى نفس التاريخ ابلى الحكمدار القاهرة بأنه عند صدور الامر بنزع جهة بحر الغزال من ادارة الزبير ، واحالة دارفور عليه يصير السباح له يأخذ اربعمئة قنطار سسسن فىل تعلقه والموجودة ببشارمه فى بحر الغزال ، وكذلك بقية ما له من الاشياء مثل الاسلحة والذخائر وخلافه ، على ان يكون ذلك من جملة مكاناته من جناب ولى النعم الخديو(١٣٠) .

أبرق الحكمدار الى الخديو يعدل في اقتراحه للمرة الثانية مشيراً بان تضاع كردفان الى الجهات الغربية على أن تتبع كلها خالد باشا ، وتعيين الزبير مديراً على دارفور ، وحسن بك حلياً قومندانا على العساكر النظامية ، وحسن بك رنعت مديراً على كردفان (١٣١) .

وقد صدرت إرادة سنية الى حكمدار السودان في السادس من محرم سنة ١٢٩٦ هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٨٧٥ م تعليمه بانه سوف تصدر الاوامر اللازمة بتعيين الزبير باشا مديراً عاماً على دارفور ، وتخبره بصفة قاطمة بعدم مخادرة الفاشر الى الخرطوم الا بعد صدور التعليمات بذلك اليه (١٣٢) .

وفي التاسع عشر من محرم من نفس السنة الموافق ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٥ م صدر أمر كريم الى حكمدار السودان بالفاشر ، وفيه توضح القاهرة النقاط والأسباب التي تركز عليها لمنع تعيين الزبير باشا في منصب مدير دارفور وهي كالآتي :

(١) خوف الحكومة من أن يطمع الزبير في الاستقلال بما تحت يده من البلاد التي سوف يعين عليها .

(ب) ترى الحكومة أن عمله في التجارة بالاضافة الى وظيفته التي سوف يعين بها تمنعه من أن يمارس مهام هذه الوظيفة ، كما أنها ترى أنه لا يجوز الجمع بين التجارة والادارة . وأنها مستعدة لاستلام مشاريعه ومتاجره بائناً مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الأوروبيين من قبل اذا أراد أن يعين بهذه الوظيفة .

(ج) كان جنود البحارة ينفرون من 'تباعهم' نظام خاص ومعنى استثمارهم في خدمة الحكومة مما يقتضى ضرورة خضوعهم لنظمتها وتناول مرتبات كبقية الجنود الآخرين وهذا مما يصعب تحقيقه .

والظاهر أن الجنود الجهادية بعد أن تكامل منهم عدد وغير بدارفور ، رأى الحكمدار أنه ليس هناك حاجة لتعيين الزبير فى المنصب الذى سبق أن اقترحه كما أنه رأى من خلال تفكيره (أى الزبير) عدم كفاءته لإدارة هذه الأراضى ، وأنه يصعب عليه التعاون مع مرعوسيه من أصحاب الرتب النظامية فى الجهادية والموظفين المدنيين الآخرين الذين يحضرون من مصر ، كما أنه لا يريد أن يتخلى عن جنوده البحارة . ويرى الحكمدار فوق كل هذا أن الزبير نفسه راغب من إدارة دارفور ، وأنه يكتبى ببحر الغزال . ولهذا أعلن تعيين حسن بك حلى مديرا على الفاشر بعد ترقينه لرتبة اللواء ، ومديريتين أخريين بصفة مؤقتة . أما دارا التى تقع قبلى دارفور فقد حولت إدارتها مؤقتا على الزبير . وقد أراد الحكمدار إبعاد الزبير عن إدارة دارفور ، وفى نفس الوقت عمل على الإبقاء عليه بدارا كى يستعين به على أخضاع الفتن التى قد تنشب بدارفور وذلك لعدم استطاعة الحامية المصرية القيام بذلك نظرا لقلة عددها . والحل الأخير الذى ارتآه الحكمدار لمشكلة الزبير هو أنه عندما يعود الى بحر الغزال يوكل اليه فى الحال مهمة فتح برقو ، ويعين مديرا على ما يفتحه من أراض بظك الجهة ، ثم يتم نزع جهة بحر الغزال من إدارته وبذلك تتخلص الحكومة من إدارته بدارفور ، ومن مشاريعه ومناجيره وجنوده البحارة فى بحر الغزال . ولم يمانع الزبير فى ترك إدارة دارفور ، ولا فى امتلاك الحكومة لمشارعه ومناجيره فى بحر الغزال ، ولكنه طلب أن تبقى له الحكومة على ستمائة قنطار من سن الفيل الموجود لديه فى بحر الغزال ، كما تعهد أن يورد للحكومة السن والشبان الصالحين للجندية بما قيمته خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن بخمسة وعشرين جنيهًا ومكافأة الجندى خمسمائة قرش ، وما يزيد على ذلك ترسل له الحكومة ما يقبله من البارود واللوازم الحربية الأخرى . ولم يمانع أيضا فى تحويل رجاله من البحارة الذين يصحبونه الى

حساكر حكومية بهرتبات ثابتة ، وقد صدق ظن الحكمدار بعد ذلك من ان اهالى دارفور لابد أنهم قد يعاودون العصيان مرة أخرى ، وأن وجود الزبير بدارفور ضرورى لكسر شوكتهم . وبعد أداء الزبير لمهمته يستطيع الحكمدار أن يقوم بتنفيذ الحلقة الأخيرة فى سلسلة اجراءاته تجاه الزبير ، فقام الزبير بتسليم مديرية دارا بعد هدوء الأحوال نسبيا بدارفور ، متهينا للرحيل لشكا وبحر الغزال حيث أصبح لا حاجة له ولا لوجوده بدارفور (١٣٣) .

الزبير يعقزم السيسفر للقاهرة :

لم يكن الخلاف بين الحكمدار والزبير فى مسألة الضرائب ، وتنصيب الأمير حسب الله على دارفور ، وتحديد مكانه فى الإدارة الجديدة ، الا أسبابا اختلقها الحكمدار ليدفع بالزبير لطلب اللجوء للقاهرة لمرص حقيقة الأمور هناك على الخديو لاتصافه . ولم تكن البرقيات التى تبوطلت بين القاهرة والحكمدار بسوى نوع من المناورات والخدع السياسية التى استهدفت استئصال شاة الزبير كليا من السودان .

وقد شعر الزبير منذ اليوم الاول الذى اجتمع فيه مع الحكمدار بالفاشل ان هناك بعض الانقباض والنفور منه ، ولعل ذلك كان مرجعه الى شعور الحكمدار بان فخر فتح دارفور يعود للزبير . ثم توالى على الزبير بعد ذلك الوعود الكثيرة التى سرعان ما كانت تبخر الواحد تلو الآخر ، ثم اجراءات اسماعيل باشا ايوب من حيث ادارة دارفور وفتح برقو ، وعلم الزبير برغبة الحكومة فى تسريح جنوده البحارة ، واستلام مقارعه الموجودة فى بحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن ان الحكمدار اراد حرمانه من ثمار انتصاراته من تلقاء نفسه ، وان الخديو لا يتفق معه فى تلك

السياسة . وأن من الأوفق الذهاب الى القاهرة ، وعرض الأمر على الاعتاب السنية ، وما كان يدري أن تلفرافات الشفرة المتبادلة بين الحكومة والحكماء هي التي تملأ هذه السياسة . وأن الحكماء هو الذي يقترح والخديو يوافق بعد أن يقتنع بمصلحة الاقتراح . وما كان يدرك الزبير بحكم تربيته وبيئته أن هناك باطنا من الأمر وظاهرا . وأن السياسة هي حيل ومناورات ، وما كان له أن يدرك أيضا طريقة الدسائس التركية ، فكان يأخذ الأقوال التي يبيدها له الحكماء على ظاهرها ، ولم يشعر أن هناك تخوفا من جهته للقيام بمصيان أو تمرد . وهو بطبيعته البسيطة وسليطته العربية الواضحة ما كان مخادما في ولائه للحكومة الخديوية ، وظل ثابتا على اخلاصه منذ قطع عهدا على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عندما تغلب على قوات البلالى ودفع عن نفسه تهمة التمرد والثورة ، غير أن عنصر الحكم التركي حين ذاك ما كان يصدق أن رجلا عصاميا كالزبير عمل لنفسه مجدا في مجاهل افريقيا والتف حوله عدد من الاتباع وفتح بقواته وموارده الخاصة بلاد دارفور ، أن يكون خلوا من المطامع . وما كانوا يحكم افكارهم وتقاليدهم التركية أن يطمئثوا الى مثل هذا الرجل ، فقد تعنى اقواله الظاهرة معنى عكسيا لما يبطنه في ضميره لذلك كان موقف الحكماء معه يشتم منذ البداية بالحذر والاحتراس (١٣٤) .

وجد الزبير أن من الأصوب السفر الى مصر لمقابلة الخديو شخصيا وعرض حقيقة الموقف عليه ، والنظر معه ومع رجال حكومته في أمر تنظيم البلاد التي تم فتحها على يده ، والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومة الخديو في المستقبل ، فجاءه في فترة رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١ أغسطس سنة ١٨٧٥ م تلفراف من القاهرة بالموافقة على حضوره إليها (١٣٥) . فاجاب الزبير على هذه البرقية بتقديم الشكر للجناح العلى الخديو وسروره لذلك

وأبلاغه بقيامه بالاستعداد للسفر وذلك في برقية بعث بها في ١٩ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٩ أغسطس سنة ١٨٧٥ م (١٣٦) .

نفذ الحكمدار سياسة اخلاء دارفور بأكملها من نفوذ الزبير ، وقدم الزبير قبل قيامه مريضة للخديو يشكو فيها من استعجال الحكمدار لجنوده من البحارة بالرجوع الى بحر الغزال وفصل مديرية دارا عنه ، وهو يرى أن اختلاط سكان المديريتين دارا وبحر الغزال يجعل انفصالهما اداريا امرا يكاد من الصعب تحقيقه ، فجاءه الرد من القاهرة بأن أوامر الحكمدار لابد من تنفيذها في الوقت الحاضر ، وأنه بعد حضوره لمصر سينظر معه في تشكيل حكمدارية يكون هو على رأسها تشمل بحر الغزال وربما جزءا من دارفور . وقد خشى الحكمدار أن يقوم الزبير بمحاولة للسيطرة على دارا ، فبعث بجنود كثيرة اليها حتى اذا بدت أية حركة من الزبير انتقض عليه جنود الجهادية . ورأى الحكمدار أن البارود الذي طلبه الزبير من بحر الغزال مبالغ في كميته . وهكذا أفر لحظة كان الحكمدار يشك في ولاء واخلاص الزبير .

تحرك الزبير من شكا قاصدا كرنفان ومعه رؤساء البازنلو بعد أن طلقت القاهرة والخرطوم من التأخير . وبدأ الحكمدار يضع المراقيل في طريقه ، فبعد أن اتفق مع الزبير على توريد اثمشة وأشياء أخرى بلغ ثمنها نحو السبعة آلاف جنيه يصرفها من خزنة الحكمدارية بالخرطوم . ارسل تلغرافا لمصر بسحب اتفاقه هذا لأن اهالي دارا كما يقول الحكمدار قدموا عرائض بأن هذه الاثمشة وغيرها التي وردها الزبير كانت ملكهم واغتصبها منهم الزبير لنفسه ، ولذا ينصح بمماطلة الزبير في الدفع بحجة عدم وجود النقديّة ، فعملا اخبر قائمقام الحكمدارية سسرا بذلك الأمر وقد توجه الزبير بأمر التحجز على السن وهو في الابيض (١٣٧) .

• بعث الزبير بشكوى الى الجنب العالى الخديو فى ٢٩ ذى
الحجة سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٦ فبراير ١٨٧٦ م يخبره بما فعله
مدير كردفان ، فجاهد رد القاهرة بتبلغه بتكديرها للمدير المذكور
على ما بدر منه من سوء تصرف ، والتصريح له بأخذ السن
الخاص به . وكانت القاهرة قد أرسلت الى مدير كردفان تلومه
على عمله هذا وتبلغه بأن الزبير باشا ليس تلجرا وانما هو من
كبار موظفى الحكومة كما أن السن المذكور برسم حضوره الى
مصر (١٣٨) .

وقد نوحى الزبير للمرة الثانية عندما وصل الخرطوم وطلب
صرف قيمة ما ورده للبرى من اقشعة وخلافه انه لم يستجيب
لطلبه فانتقام الحكمدارية حسب تعليمات الحكمدار ، ولكن بعد
التفراغات العديدة التى تبولت صرف له نصف المبلغ . وفى بربر
طلب مبلغا آخر وبعد ان تبولت التفراغات مع القاهرة صرف له
جانب منها . فقام من بربر مخترقا صحراء العتومور الى كرسكو
ومنها الى مصر . والدليل الثابت على تخوف الحكومة من الزبير
هو ان الحكمدار صدرت له الاوامر بأن يبقى بدارفور حتى يغادر
الزبير الخرطوم ، وينتظر بالخرطوم حتى يتيقن من وصول الزبير
الى كرسكو ، وتحت ستر التفتيش على الشمال يسافر الى مصر
حسب ما طلب منذ مدة (١٣٩) .

وصل الزبير الى القاهرة فى العاشر من يونية سنة
١٨٧٥ م (١٤٠) وتشرف بمقابلة جناب الخديو بقصر الجيزة ،
فرحب به وبالف فى اكرامه ، وافرد له احد قصوره بالمباسية ،

منزل به هو وأسرته وأتباعه ضيوفا على الخديو . ولم يكد يستريح من عناء السفر حتى تقدم الى قهرمان الخديو بكتاب طلى العبارة رقيق الحاشية يرجو فيه أن ترفع الى السدة الكبرى السنية هديته المتواضعة التى أحضرها معه لتعزيز مصر من السودان ، وهى عبارة من :

« ألف جندي سودانى مدججين بالعدة والسلاح ، مائة مقاتل من الذهب ، مائة جواد عربى ، مائة وخمسين قنطار سن نيل ، أربعة أسود ، أربعة نمر كاسرة ، ست عشرة بيغاء من ذوات الالوان الزاهية ، فسر الخديو من هذه الهدية سرورا بالغا ، ونهى الى الزبير امتنانه من هديته فى كتاب أرسله اليه قهرمانه خيرى باشا . وبقي الزبير فى قصر العباسية حتى أغسطس سنة ١٨٧٥ م . فدماه الخديو اليه بقصر الجيزة وأصدر له أمرا بالتاهب للسفر قريبا الى السودان ، فشكره الزبير على ذلك ودعا له وشرع يستعد للسفر . ومضت أشهر ثم دماه الخديو اليه ثانية وقال له : يا زبير قد استصوبت بقاتك فى القاهرة حتى انظر فى أمرك فأجابه أمرك يامولاي فأنصرف الزبير والاسى يحز فى نفسه وقد أدرك فى أعماق سريره ما كان يتوقعه وما جال فى نفوس أتباعه (١٤١) . »

والعجيب أن بعض رجاله وأعوانه قد حاولوا قبل سفره اتناؤه عن الرحيل غير أن إخلاصه وولاءه لحكومته وشرفه قضى عليه بالمحافظة على وعده بالسفر الى مصر (١٤٢) .

وهنا الخطأ الذى وقع فيه الزبير وهو تقريره الأذهاب للقاهرة
لكى يضع حدا للأمر المتنازع عليه بينه وبين الحكمدار . وكان
الخديو أساميل أنكى من أن يعيد الزبير باشا إلى السودان وهو
الرجل الذى حكم مديرية فى حجم فرنسا ، وغزا علاوة على ذلك
أكثر من ١٤٠.٠٠٠ ميل مربع من أجل مصر . لذلك نراه يقضى
بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو (١٤٣) .

كان الصراع بين الزبير والحكمدار رمزا للصراع بين العقليّة
السودانية الإسلامية والعقليّة المصرية التركية ، فالزبير يريد تخفيف
الضريبة والاكتفاء بالزكاة التى يفرضها الشرع ، والحكمدار يريد
أن يعصر البقرة التى كانت حلوبا ثم جف ثديها . ولو بقى الزبير
فى السودان لاضطره هذا الاختلاف إلى الثورة فى وجه الحكومة .
ولكنه أبعد عن مسرح الأحداث فى الوقت المناسب قبل أن يستحل
أمره ويصبح زعيما قوميا (١٤٤) .



هوامش الفصل الثالث

(١) سلطنة دارفور : تبعد من بحر النطرون في الصحراء الكبرى شمالاً إلى بحر الغزال جنوباً ، ومن النيل الأبيض شرقاً إلى نوبة بارو غرباً . ويشتمل جبل مرة الذي يبلغ عرضه مسيرة نحو اليومين ، وهو سهل محدد من غربها الذي تقع السهول في شماله فقط . والنور شعب مسلم زراعي يحتل جبل مرة والسهول التي تقع حوله . ويوجد ضمن شعب النور شعبية خاصة من أبنائه تسمى التجارة وهي التي منها سلاطين دارفور . ويوجد بدارفور قبائل منها الداجو ، والبيغو ، والبرغو . وهناك أيضاً قبائل النرهان ، والبحرايات ، والزغاوة وهي جماعات رعوية أصلها من جنوب ليبيا وتشك . ومناخ هذه البلاد في جبلته ملائم . وصناعة السكان هناك تقتصر على تربية الماشية والأبل والأغنام ، والزراعة حيث توجد الأرض وهم يعتمدون على مياه الأمطار . وأهم محاصيلهم البقول والخضر ، ويقود التجار على دارفور للانجاز فيما نقله أرضها من الخشب والصمغ العربي والفرد الذي يستخدم في الدباغة كما يستخرج بعض المعدن منها على سبيل المثال الحديد والنحاس .

Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and slavery in the Sudan 1863 — 1879. P. 211. (٢)

Budge, E.A. Quilis : The Egyptian Sudan Vol : 2, P. 23. (٣)

Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 222. (٤)

(٥) السلطان حسين بن الفضل (١٨٣٩ م — ١٨٧٤ م) : كان محاصراً لسميد باشا والظهر اسماعيل فبادلها الهدايا والكاينات . وكان محروماً بحيا لرحيته . وفي سنة ١٨٥٦ م كف بصره وألف جيشاً يزيد على ١٠٠.٠٠٠ مقاتل مسلحين بالأسلحة النارية فكان هو أول من استعمل الأسلحة في جيش دارفور . وكان اعتمد السلاطين قبله على الحرايب والسيوف والفرق والنشاب والسكاكين .

(٧) شجرة التلدى : تسمى شجرة البواب وهي من اشجار منطقة الحشاش الصغيرة القوية بوسط كرفان وتكثر بدار حبر ، وكل أسرة في تلك النواحي تمتلك مددا من هذه الاشجار في نطاق عدة أميال ، وهي شعبة جدا ذات اقصان قصيرة منتشرة بعضها أجوف بطبيعته حيث قام الاجداد منذ ابد بقطع الاخشاب من داخل جذوعها لكي يصنعوا خزانات كبيرة يستوعب الواحد منها ألف جالون من مياه الأمطار . ويستفاد من ثمرها الذي يشبه اللبون الجاف باستخدامه ككواء ، وينزع نعالها لكي يستخدم في تحريش المنازل . ويجمع الأهالي حولها ليستمتعوا بتلذذها الوارفة من شدة الحرارة .

(٨) شوقي الجبل (دكتور) : تاريخ السودان وادي النيل ج ٢ ص ١٧٧ .

(٩) لم تذكر المراجع تاريخ بدء وانتهاء هذه الحرب باليوم والشهر إنما تكررت السنة فقط .

(١٠) السلطان ابراهيم : هو أحد السلاطين الثور وكانت مدة حكمه سنة وسبعة شهور وأربعة عشر يوما . ولما مرض والده السلطان حسين وعلم بفناء لجله أراد أن يطمئن على الملك من بعده ، وفضله لابنه ابراهيم لأنه كان أحب ابنائه اليه بالرغم من أنه لم يكن أكبرهم . فانتدب اثنين من أمثله هما الأمين بخيت والأمين خير قرب وحلفهما على المصحف بأن يوليا ابنه ابراهيم بعد وفاته عليا فولى السلطان أخوها خير مونه وأرسلوا للأمر ابراهيم فاجلساه على كرسى السلطنة وباعه الوزير أحد شطة وأرسلوا الى الورياء واحدا بعد الآخر فحلفوا له باليمين على الطاعة . وقد اشتهر السلطان ابراهيم بالحكم والشجاعة كأييه وبقي نافذ الكلمة في دارفور الى أن قتل في بلدة بلواشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٥ م في واقعة شوية شديدة بينه وبين الزبير . وكان في مقله زوال لسلطنة دارفور وغولها في حوزة الحكومة .

(١١) انظر تفصيل هذا الموضوع بالفصل الثاني .

Shukry, M.F. : Op. Cit, PP. 224 — 227.

(١٣) عبد الرحمن زكي : أعلام العيش والبهرية في مصر في القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٣ .

(١٤) الشامل بصلي : معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن الماضي الى التاسع عشر الميلادى ص ١٥٨

(١٥) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٧٥ .

(١٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٣ .

- (١٧) محمود القباني : السودان المصري الإنجليزي من ص ٣١٦ - ٣١٧ .
- (١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٥ - ٧٦ .
- Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 227. (١٩)
- (٢٠) إبراهيم غوزي : السودان بين يدي جورفون وكشتر من ص ١٣٧ .
- (٢١) انظر الوثيقة رقم (٢٤) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد مكاتبات محبة سنبة من (٧١) مكتبة رقم (١٠) .
- Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 227 - 228. (٢٢)
- (٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٦ .
- Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 228. (٢٤)
- (٢٥) انظر الوثيقة رقم (٢٥) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين ظفرانات شفرة تركي من ص (١٢/٢٣ ، ١٢/٢٤ ، ١٢/٢٥) ظفراف رقم (١٢٨) .
- (٢٦) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حيد محمد) : الأجوبة السديدة في انذار وتهيئ اهل المكيدة من ص ١٠ - ١٢ .
- (٢٧) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حيد محمد) : نفس المرجع من ص ١٢ - ١٥ .
- (٢٨) انظر الوثيقة رقم (٢٦) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين ظفرانات شفرة تركي من ص (١٢/٢٥ ، ١٢/٢٦) ظفراف رقم (١٣٩) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٧) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين ظفرانات شفرة تركي من (١٤/٢٧) ظفراف رقم (١٢٢) .
- (٢٩) بكى شبكة (دكتور) : السودان عبر القرون من ص ١٧٥ .
- (٣٠) انظر الوثيقة رقم (٢٨) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة سنبة مكاتبات من (٧١) مكتبة رقم (١١) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٩) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شفرة مري من (٨/٧) ظفراف رقم (٣٥) .
- (٣١) انظر الوثيقة رقم (٣٠) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين ظفرانات شفرة مري من (١٥) ظفراف رقم (٥٥) .
- (٣٢) انظر الوثيقة رقم (٣١) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شفرة مري من ص (٦/١١ ، ٧/١٢) ظفراف رقم (٦٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شفرة مري من ص (٦/١٢ ، ٧/١٢) ظفراف رقم (٦٦) .
- (٣٣) انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ظفرانات شفرة مري من ص (٧/١٢ ، ٨/١٤) ظفراف رقم ٦٧ .

- (٢٤) انظر الوثيقة رقم (٢٤) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تطرفات شجرة
عربى من ص (٨/١٤ ، ٨/١٥) تطرفات رقم ٦٨ .
- (٢٥) انظر الوثيقة رقم (٢٥) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تطرفات شجرة
عربى من ص (٨/١٥) تطرفات رقم (٦٩) .
- (٣٦) انظر الوثيقة رقم (٣٦) دفتر رقم (١٧) صادر تطرفات شجرة عربى
من (١٦/٣٢) تطرفات رقم (١٧١) .
- (٣٧) انظر الوثيقة رقم (٣٧) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تطرفات شجرة
عربى من ص (١٨) تطرفات رقم (٩٥) .
- (٣٨) انظر الوثيقة رقم (٣٨) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تطرفات شجرة
تركي من ص (١٩/٣٧ ، ١٩/٣٨ ، ٢٠/٣٩ ، ٢٠/٤٠ ، ٢١/٤١) تطرفات رقم
(٢٠١) .
- (٣٩) انظر الوثيقة رقم (٣٩) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تطرفات شجرة
تركي من ص (١٦/٢١ ، ١٦/٢٢ ، ١٧/٣٣) تطرفات رقم (١٧٥) .
- (٤٠) انظر الوثيقة رقم (٤٠) دفتر رقم (١٧) صادر عابدين تطرفات شجرة
تركي من ص (٢٢/٤٣ ، ٢٢/٤٤) تطرفات رقم (٢١) .
- (٤١) انظر الوثيقة رقم (٤١) دفتر رقم (١٩٤٨) اوامر عربى من (٥٥/٥٣)
أمر رقم (٩٧) .
- (٤٢) انظر الوثيقة رقم (٤٢) دفتر رقم (١٨) صادر عابدين تطرفات شجرة
عربى من ص (٢/٤١) تطرفات رقم (٩٧) .
- (٤٣) انظر الوثيقة رقم (٤٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة سنية عربى
من (١١٠) مكتبة رقم (٢٨) .
- (٤٤) انظر الوثيقة رقم (٤٤) دفتر رقم (١٨٧٥) عيد الامادات الواردة الى
المحبة من الخيريات وللمحافظات والسليرة من (٩٠) اعادة رقم (٢٩) .
- (٤٥) انظر الوثيقة رقم (٤٥) دفتر رقم (١٩٤٨) صادر المحبة عربى من
(٧٣) مكتبة رقم (٢٧) .
- (٤٦) الأوردى . عبارة من سرية شبه نظامية كان يكونها ملوك الشاذلية
للخفية مع الحكومة المصرية .
- (٤٧) انظر الوثيقة رقم (٤٦) دفتر رقم (١٩٤٨) اوامر عربى من (٧٣) أمر
رقم (٢٥) .
- (٤٨) انظر الوثيقة رقم (٤٧) دفتر رقم (٢٤) وارد عابدين تطرفات شجرة
عربى من (٢٦٥١) تطرفات رقم (٣٧٤) .

(٤٩) الكتلة : تقع على مسيرة خمسة أيام من دارفور وتعتبر مركزا للإدارة

في هذا الناحية .

(٥٠) انظر الوثيقة رقم (٤٨) دفتر رقم (٢٤) وارد حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من ص (٤٠/٧٩ ، ٤٠/٨٠) ظفران رقم (٥٤٥) .

(٥١) انظر الوثيقة رقم (٤٩) دفتر رقم (٢٤) وارد حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من ص (٤٢/٨٣ ، ٤٢/٨٤) ظفران رقم (٥٧١) .

(٥٢) انظر الوثيقة رقم (٥٠) دفتر رقم (١٨) صادر حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من ص (٢٦/٥٢ ، ٢٧/٥٣) ظفران رقم (٢٥٧) .

(٥٣) انظر الوثيقة رقم (٥١) دفتر رقم (٢٤) وارد حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من ص (٤٥/٨٩ ، ٤٥/٩٠) ظفران رقم (٦٠٨) .

(٥٤) انظر الوثيقة رقم (٥٢) دفتر رقم (١٨) صادر حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من ص (٢٨/٥٦ ، ٢٨/٥٧) ظفران رقم (٢٧١) .

(٥٥) كما وردت بنص الوثيقة رقم (٥٤) ولا يفهم منها هل تعني جهة معينة
بدارفور أو هي نسبية كخطها التي في مصر أو على الجهات الجنوبية لدارفور .

(٥٦) انظر الوثيقة رقم (٥٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد حية سنية عربي
مكاتب من (١١٩) مكتبة رقم (٣) دور .

(٥٧) انظر الوثيقة رقم (٥٤) دفتر رقم (٢٥) وارد حاجبين ظفرانك شفرة
تركي من ص (٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) ظفران رقم (٤٤٥) .

(٥٨) انظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (١٩) صادر حاجبين ظفرانك شفرة
تركي من (١٢/٢٣) ظفران رقم (١٥٠) .

(٥٩) انظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (٢٥) وارد حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من ص (٣٦/٧٢ ، ٣٧/٧٣) ظفران رقم (٥٦٨) .

(٦٠) انظر الوثيقة رقم (٥٧) دفتر رقم (١٩) صادر حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من (٢٠/٣٩) ظفران رقم (٢٥٤) .

(٦١) انظر الوثيقة رقم (٥٨) دفتر رقم (١٩) صادر حاجبين ظفرانك شفرة
عربي من (٢٠/٤٠) ظفران رقم (٢٥٧) .

(٦٢) انظر الوثيقة رقم (٥٩) دوسيه رقم (٢) ملف رقم (٥) مسلسل الوثيقة
(بدون) .

(٦٣) مكي شبكة (ذكور) : السودان في قرن من سنة ١٨١٩ — ١٩١٩

من ٩٠ .

- (٦٤) انظر الوثيقة رقم (٦٠) دفتر رقم (٢٨) وأرد عابدين طفرانك عيسى
شجرة من ص (٢/٦ ، ٤/٧) طفرانك رقم (٢٦) .
- (٦٥) انظر الوثيقة رقم (٦١) دفتر رقم (٢٠) صابر عابدين طفرانك
شجرة عيسى من ص (٢٧/٦٤ ، ٤٧/٩٤ ، ٤٨/٩٥) طفرانك رقم (٥٦٧) وكذلك انظر
الوثيقة رقم (٦٢) دوسيه رقم (٢) ملف رقم (١) وثيقة رقم (٧) .
- (٦٦) انظر الوثيقة رقم (٦٣) دفتر رقم (٢١) صابر عابدين طفرانك من
(٩/٥) طفرانك رقم (٧٦) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٦٤) دفتر رقم (٢٨)
وأرد عابدين طفرانك شجرة عيسى من ص (٢٠/٦٠ ، ٢١/٦١) طفرانك رقم (٢٩٣)
وكذلك الوثيقة رقم (٦٥) دفتر رقم (٢٨) وأرد عابدين طفرانك شجرة عيسى من ص
(٣٥/٦٩ ، ٢٥/٧٠) طفرانك رقم (٤٥٢) .
- (٦٧) انظر الوثيقة رقم (٦٦) دفتر رقم (٢١) صابر عابدين طفرانك شجرة
عيسى من ص (١٦/٢١ ، ١٦/٢٢) طفرانك رقم (٢٣٧) .
- (٦٨) محمد بنواد شكري (تتكور) : مصر والسودان تاريخ وحدة وادي
النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٣٠ - ١٨٩٩ م ص ١٢٩ .
- (٦٩) دارا : وهي ثمانية المدن من حيث الأهمية بعد القاهرة وبها استحكام
مليح جرى بها معارك عديدة بين الزبير والسلطان .
- (٧٠) البركة : وهي إحدى القبائل بدارفور في ذلك العهد . مركزهم جبل
مسكر بين جبل حريزة وجبل مرة قبل أن يذهبوا إلى الآن عنها يعيدونه سرا .
ومهم لمصلحة تعرف بباب ورق تعربت ونسبت لقبها .
- (٧١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٧ - ٧٨ .
- (٧٢) الزبير رحمة : (جمعة ياسين عبد محمد) : المرجع السابق من ص
١٩ - ٢٢ .
- (٧٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٨ .
- (٧٤) الزبير رحمة : (جمعة ياسين عبد محمد) : المرجع السابق من ص
١٧ - ١٨ .
- (٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص (٧٨ - ٧٩) .
- (٧٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ص (٧٩ - ٨٠) .
- (٧٧) سعد الدين الزبير نفس المرجع من ص ٨١ .
- (٧٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) دفتر رقم (٢٨) وأرد عابدين طفرانك شجرة
عيسى من (٤) طفرانك رقم (٢٥) .

(٧٩) جبل مرة : يقع وسط دارفور وهو جبل مرتفع حصين طوله من الشمال الى الجنوب نحو مائة ميل وعرضه من الشرق الى الغرب ستون ميلا وارتفاع اعلى قممه ألف وخمسمائة قدم عن سطح الأرض المجاورة له ، ونحو ستة آلاف قدم عن سطح البحر ، وهو وانحر الخصوبة وبه ينابيع كثيرة والكثير من أشجار الفاكهة والميووب وغيرها من حاصلات المنطقة مما ليس في غيره من أعمال دارفور ومن أشهر قممه جبل طرا ، الذي كان مركز سلاطين دارفور قبل انتقالهم الى بحنة الفاسر وفيه مدفن خاص لسلاطين دارفور وأبنائهم وجامع كبير قديم نسبيا .

(٨٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨١ — ٨٣ .

Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 281.

(٨١)

(٨٢) بكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٨٣) هو طوسون : تاريخ بحرية خط الاسفواء من فتحها الى ضمها

سنة ١٨٦٩ — ١٨٨٩ م ج ١ ص ٣٢٤ .

(٨٤) أم شنقة : وهي في طريق القوافل الآتية من كرفان ودنقة وتقع على

مسيرة ستة أيام من العاصمة الفاسر .

(٨٥) انظر الوثيقة رقم (٩٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرافات شفرة

حربى ص ص (٢٢/٤٤ ، ٢٣/٤٥) ظفراف رقم (٣٠٦) .

(٨٦) حرب هو : يقبضون غرب كرفان ومن مراكزهم أبو حراز والنهر

وفي بلادهم يكثر شجر التلدى وهم يخزنون فيه المياه ويبيعونها لقوافل المسافرين

من التجار وغيرهم بين كرفان ودارفور .

(٨٧) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرافات شفرة

حربى ص ص (٣٥/٧٠ ، ٣٦/٧١) ظفراف رقم (٤٦٢) وكذلك انظر الوثيقة رقم

(٩٠) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرافات شفرة حربى ص ص (٦٧) ظفراف رقم

(٤٤٨) .

(٨٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (٧١) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شفرة

حربى ص ص (٤/٧٠ ، ٤/٨٠) ظفراف رقم (٣٢) .

(٩٠) انظر الوثيقة رقم (٧٢) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شفرة

حربى ص ص (١١/٢١ ، ١١/٢٢) ظفراف رقم (١٣١) .

(٩١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٨٦ — ٨٧ .

Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 229.

(٩٢)

(٩٣) انظر الوثيقة رقم (٧٣) دفتر رقم (٢٨) واردة عابدين ظفرانات عيسى
 من ص (٢/٣ ، ٢/٤) ظفراف رقم (٢٤) .
 (٩٤) مكى شبكة (نككور : المرجع السابق ص ٩٠ .
 (٩٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٧ .
 (٩٦) منواشى : تقع على مسيرة يومين الى الجنوب الشرقى من الغامز
 وهي بعد بلدة كويى في أميتها التجارية وقد اشتهرت الواقعة التى حدثت بين الزبير
 والسultan ابراهيم .
 (٩٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٨٤ - ٨٦ .
 Hill, Richard : Egypt in The Sudan 1820 — 1881 (٩٨)
 P. 187.

(٩٩) انظر الوثيقة رقم (٧٤) دفتر رقم (٢٨) واردة عابدين شفرة
 عيسى من ص (١١/٢٢ ، ١٣/٢٥) ظفراف رقم (١٢٤) .
 (١٠٠) الناصر : وهي بلدة مضممة قائمة على تلين عظيمين بطوان ٢٣٥٠
 قصبا من سطح البحر ويخترقها خورتنفلتى . أسسها السلطان عبد الرحمن الذى
 تولى عرش دارفور وجعلها عاصمة ملكه فصارت كرسى السلطنة في دارفور
 لليوم .

(١٠١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ .
 Gray, Richard : A history of the Sothema Sudan (١٠٢)
 1889 — 1889 P. 122.

(١٠٣) انظر الوثيقة رقم (٧٥) دفتر رقم (٥) معية سنة عيسى واردة اعدادات
 من (٢٢) مكتبة رقم (٥) مرود .
 (١٠٤) نعم شكير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج (٣)
 من ٨١ .

(١٠٥) انظر الوثيقة رقم (٧٦) دفتر رقم (٢٨) واردة عابدين ظفرانات شفرة
 عيسى من ص (٢٤/٤٨ ، ٢٥/٤٩) ظفراف رقم (٣٢٢) .
 (١٠٦) انظر الوثيقة رقم (٧٧) دفتر رقم (٢٨) واردة عابدين ظفرانات شفرة
 عيسى من ص (٣٩/٧٨ ، ٤٠/٧٩) ظفراف رقم (٥١٦) .
 Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 732. (١٠٧)

(١٠٨) المهيم : معناها الاميرة وهو لقب من الغاب مهادات المعاملة الملكية
 بدارفور .

- (١٠٩) نعم نعيم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٨١ :
- (١١٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٩٠/٨٩ .
- (١١١) انظر الوثيقة رقم (٧٨) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (٣٧/٧٤ ، ٣٨/٧٥) ظفراف رقم (٢٥) :
- (١١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٩٠ ،
- (١١٣) انظر للوثيقة رقم (٧٩) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (٨٤/٨٧) ظفراف رقم (٦٠٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (٤٨/٩٥ ، ٤٨/٩٦) ظفراف رقم (٦٨٨) وانظر ايضا الوثيقة رقم (٨١) دفتر رقم (٧١) صادر عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (٩٦) ظفراف رقم (٧٠٦) . وانظر كذلك الوثيقة رقم (٨٢) دفتر رقم (٣١) وارد عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (٢٣/٩٦) ظفراف رقم (٢٦٧) .
Shulcay, M.F. Op. Cit., P. 232. (١١٤)
- (١١٥) محمد بن عبد التونسى : تشييد الاذهان بسيرة بلاد العرب والمؤدان ص ٣٩٧ .
- (١١٦) نعم نعيم شقير : المرجع السابق ص ص ٨١ - ٨٢ .
- (١١٧) كيكبية : تقع بين كلكل والماسر وقد كانت مركز الادارة قبل كلكل .
- (١١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٩٠ - ٩١ .
- (١١٩) انظر الوثيقة رقم (٨٣) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (١٦/٢٢ ، ١٧/٢٣ ، ١٧/٢٤) ظفراف رقم (٢٣٨) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٨٤) دفتر رقم (٢٩) وارد ظفرافات عابدين شجرة عريى ص ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) ظفراف رقم (٤١٣) .
- (١٢٠) مكى شبيكة (مككور) : المرجع السابق ص ٩٢ .
- (١٢١) ديارنبانة : وهى منطقة يسكنها قبائل نلبة وهم مجاورون لقبائل انعر من جهة الغرب .
- (١٢٢) المساليت : وهم مجاورون لقبائل العبر من جهة الجنوب .
- (١٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ص ٩٠ ، ٩٢ .
- (١٢٤) انظر الوثيقة رقم (٨٥) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شجرة عريى ص ص (٣٤/٦٨) ظفراف رقم (٤٤٩) .
- (١٢٥) انظر الوثيقة رقم (٨٦) محظفة رقم (٥١) معية سنينة تركى وحقفة رقم (٣٧٧) حجريات .

(١٢٦) انظر الوثيقة رقم (٨٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات سفرة
عربى من (٩/١٨) ظفراف رقم (١٤٢) .

(١٢٧) انظر الوثيقة رقم (٨٨) دفتر رقم (٢) أوامر عربية من (٤٤) أمر
رقم (٧٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٩) دفتر بدون نمرة محية من (٥٠) ظفراف
رقم (١) .

(١٢٨) مكنى شبكة (نكتور) : المرجع السابق من ص ٩٢ - ٩٣ وكذلك
الوثيقة رقم (٩٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة تركى من ص
(١٤/٢٨ ، ١٥/٢٩ ، ١٥/٣٠) ظفراف رقم (٢٣١) وانظر كذلك الوثيقة رقم (٩١)
دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة تركى من (٢٦/٥٢) ظفراف رقم (٤١٠)
وكذلك انظر أيضا الوثيقة رقم (٩٢) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة
تركى من ص (٢٧/٥٣) ظفراف رقم (٤١١) وكذلك انظر أيضا الوثيقة رقم (٩٣)
دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة عربى من ص (٢٧/٥٤ ، ٢٧/٥٥
ظفراف رقم (٤١٢) .

(١٢٩) انظر الوثيقة رقم (٩٤) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة
عربى من (٣١/٦١) ظفراف رقم (٤١٥) .

(١٣٠) انظر الوثيقة رقم (٩٥) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة
عربى من (٣٠/٦٢) ظفراف رقم (٤١٦) .

(١٣١) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات سفرة
عربى من ص (٣١/٦٢ ، ٣٢/٦٣) ظفراف رقم (٤١٨) .

(١٣٢) انظر الوثيقة رقم (٩٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات سفرة
تركى من (٤٢/٨٣) ظفراف رقم (٦٢٤) .

(١٣٣) مكنى شبكة (نكتور) : المرجع السابق من ص ٩٤ - ٩٥ وكذلك
انظر الوثيقة رقم (٩٨) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات سفرة تركى من ص
(٤٦/٦٢ ، ٤٧/٦٣ ، ٤٧/٦٤ ، ٤٨/٦٥) ظفراف رقم (٦٩١) وكذلك انظر الوثيقة
رقم (٩٩) دفتر رقم (٣٠) وارد عابدين ظفرامات سفرة عربى من ص (١/١٨ ، ١/١٩
ظفراف رقم (٤١٦) .

(١٣٤) مكنى شبكة (نكتور) : المرجع السابق من ص ٩٥ - ٩٦ .
(١٣٥) محمد أحمد الجابري : من شأن الله وتاريخ السودان كما يرويه
أمله من ١١٥ ، سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٢٧ .

(١٣٩) انظر الوثيقة رقم (١٠٠) دفتر رقم (٢٢) واردة عابدين طغرافات
شجرة مريى من (٢٠/٤١) طغراف رقم (٢٢٧) .
(١٣٧) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق من ص ٩٦ - ٩٧ .
(١٣٨) انظر الوثيقة رقم (١٠١) دفتر رقم (٣٦) واردة عابدين طغرافات
شجرة مريى من (٣٩/٧٣) طغراف رقم (٢٩٥) وكذلك الوثيقة رقم (١٠٢) دفتر
رقم (٢٦) صادر طغرافات عابدين شجرة تركي طغراف رقم (٢٢٩) وكذلك انظر
لهما الوثيقة رقم (١٠٣) دفتر رقم (٢٦) صادر عابدين طغرافات من (بنون)
طغراف رقم (٢٣٠) .

- (١٣٩) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق من ص ٩٧ .
- (١٤٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٨ .
- (١٤١) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ج ١ من ص ٩٤ .
- (١٤٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٨ .
- (١٤٣) Duncan, J.S.R. : The Sudan A Record of a achievement P. 13.

(١٤٤) شرار صالح شرار : تاريخ السودان الحديث من ص ٨٣ .



الفصل الرابع

الزبير وجودون

١٩٣

(م ١٢ - الزبير باشا)

الزبير وجوردون

سافر الزبير الى مصر ليعرض قضيته على الخديو بعد ان ترك ابنه سليمان يدير أمماله ومصالحه في السودان . وفي ١٠ يونيو سنة ١٨٧٥ م الموافق ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢ هـ وصل الزبير الى مصر حيث استقبل هناك استقبالا حافلا وكلما أراد العودة الى بلاده استبقى في مصر بأعذار مختلفة حتى سنة ١٨٧٧ م الموافق سنة ١٢٩٤ م (١) وفي هذه السنة كان جوردون قد عاد بعد زيارة قصيرة لانتجلترا الى السودان كحاكم علم يتمتع بكافة الامتيازات والسلطات ، وساعده حظه أن الزبير قد اخطأ بزيارته القاهرة (٢) . ومن أجل تقوية واطلاق يد جوردون فانه تم وضع الزبير في منزل الضيافة ورصدت الحكومة كل حركة من حركاته (٣) حيث رفضت الحكومة المصرية السماح لضييفها المخلص بالعودة الى بلاده التي حقق فيها انتصاراته وفتوحه (٤) .

الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية :

(سنة ١٨٧٧ م — سنة ١٢٩٤ هـ) :

اندلعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في سنة ١٨٧٧ م . وعين ضمن ضباط الحملة التي عهد اليها الأمير حسن

بأشأ بأمر قيادتها . واسند الى الزبير قيادة وحدة خاصة من الجيش مكونة من أربعة آلاف رجل . وقد أبلى الزبير بأشأ بفرقته بلاد حسنا في هذه الحرب وكان بفرقته دوما في طليعة المهاجمين وكثيرا ما أوقعت الهزيمة في صفوف الجيوش الروسية (٦) .

ولما نشبت معركة مدينة صاري (٧) ظهرت بطولته وقوة شسكيته في القتال وقد كاد الزبير أن يفقد حياته مرتين في ذلك اليوم . وقد انتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني . وقد اتنى عليه الأمير حسن بأشأ وقال له وهو يشد على يده مصاحبا « لم أكن أصدق كل ما كان يقال عن شجاعتك ودهائك في القتال في ربوع السودان ، ولكننى بعد أن رأيتك بالأمس وانت كلما سقط من تحتك جواد تستبدل به غيره ثم تمضى متقدما الصفوف ، آمنت بأن ما يقال منك إنما هو في الواقع شيء قليل بالقياس لما أنت عليه » (٨) .

ساعت حالة الزبير الصحية بعد ذلك ووقع غريسة للمرض ورائت القيادة اعفائه من التقدم فأرسل في حراسسة مفضيلة من الأتراك الى الأستانة حيث أنزلوه في أحد المستشفيات للعلاج ، وبعد أن تماثل للشفاء دعى لمقبله السلطان مبدئ الحميد ، وكان قد وصله أخبار حسن بلاتيه في معركة صاري نصوحلر ، فرحب به وأتمم عليه برتبة الفريق الرفيعة وبلغنيشان العثماني الثالث ثم سألته عن أحواله وعما قام به في السودان ، ثم أمر بإوره بلباسه على راحته مدة إقامته بالأستانة حيث أقام في أحد القصور المطلة على البسفور وبعد تمام شفائه عاد الى القاهرة ، بمعزود الخديو تهنئته ثم نزل في قصر الجيزة (٩) .

وقد قيل أن الزبير حاول التسييس ضد مصر والخديو لدى بعض الشخصيات البارزة في القسطنطينية ولكنه لم ينجح وذلك

فى أثناء اقامته فيها(١٠) . وهذا ما لم تثبته المصادر التاريخية .
 اذ كيف يصدر كل هذا من رجل استقبلته القاهرة احسن
 استقبال ووفرت له اسباب العيش الكريم ، وانصبت عليه
 ومن معه بالرتب والنياشين يضاف الى ذلك انها وثقت به ووكلت
 اليه قيادة احدى فرقها المشتركة فى الحملة التى ارسلتها لمساعدة
 الدولة العثمانية . كما ان الفترة التى قضها الزبير فى القسطنطينية
 كان فيها طريق الفرائض نتيجة ما اصابه بسبب ما بذله من جهد أثناء
 الحرب ، فكيف بعد كل هذا يحاول الدسياسة ضد الخديو ورجاله
 لدى القسطنطينية ؟ ثم ما هى الفائدة التى سوف تعود عليه من
 جراء قيامه بهذا العمل ؟ (١١) .

وهكذا يواصل الحائقون على الزبير الوشاية به حتى بعد ان
 تم ابعاده عن السودان وتخليه كلياً عن جميع مصالحه واملاكه . من
 مشارع وتجارة وخالاه . ولكن الزبير بشخصيته ومصرحته
 استطاع ان يرد كيد هؤلاء دون ان يظنوا باية نتيجة من وراء
 وشائهم .

ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد حبسى :

(سنة ١٨٧٩ م . - سنة ١٢٩٦ هـ)

عاد الزبير الى مصر من الاسفانة بعد انتهاء مهمته التى كلف
 بها ضمن الحملة المصرية فى الحرب الروسية التركية . وكان يبنى
 نفسه بالعودة الى بلاده ، ولكنه لم ينجح فى ذلك للمرة الثانية . وفى
 سنة ١٨٧٩ م الموافق سنة ١٢٩٦ هـ وافاه خبر مصرع ابنه سليمان
 على يد رومولو حبسى بأوامر من جورجون متهما اياه بالترد والعصيان
 وكان سليمان من احب ابنائيه اليه واقربهم الى نفسه وايقن الزبير
 انه أصبح الاسير الذى لا ينفك أسره وأنه سيبقى حبسى بالقاهرة
 لاجل غير معلوم(١٢) .

وكان سليمان بعد أن غادر أبوه السودان في طريقه إلى مصر ، قد خرج على رأس أربعة آلاف مقاتل متجها إلى شكا ، فاقام بها إلى أن حضر جوردون إلى دارفور ، فأرسل إليه أمرا بمقابلته مع جيشه في دارفور ، فصدع سليمان للكر واجتمع بجوردون في أغسطس سنة ١٨٧٧ م الموافق شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ، وقد أنهم السعيد بك حسين (١٢) جوردون بأن سليمان ينوي القيام بالثورة ضد الحكومة انتقاما لأسر الحكومة لأبيه ، وكان جوردون قد عين السعيد بك حسين هذا مديرا على شكا ، بعد ذلك رأى جوردون أن من الأسلم تفريق جيش سليمان فاصدر أوامره بذلك لسليمان ، فصدع لها . وقد زاره جوردون في شهر سبتمبر من نفس العام وطيب خاطره وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك ، وجعله مديرا على بحر الغزال ، ولكنه لم يلبث أن عزله وحبس مكانه أديس أبتر (١٤) الذي وصف سليمان لدى جوردون ، بأنه يميل على الاستقلال ببحر الغزال ، فأرسل جوردون إبراهيم نموزي باشا (١٥) للتحقيق معه في هذا الأمر ، وأدين أديس أبتر في هذا التحقيق وزج به جوردون في سجن الخرطوم جزاء له على اثارة الفتنة في إقليم بحر الغزال (١٦) .

بدأت ثورة سليمان الزبير تأخذ مسورتها الجديدة ، نتيجة الوشايات والمكائد التي حيكت ضده من جانب كل من السعيد بك حسين وأديس أبتر دون مبرر لذلك وكان ذلك في سنة ١٨٧٨ م الموافق سنة ١٢٩٥ هـ ، فهاجم سليمان على رأس قواته زريبة ديم أديس وقام بذبح جميع أفراد الحامية بها ، واستولى على ما في المخازن الحكومية من مدافع وأسلحة وذخائر ، كما أنه نزع سلاح جميع الأهالي ، ثم أخضع بعد ذلك جميع أقاليم بحر الغزال الواسعة بنفوذه وسيطرته ، وأعلن استقلاله ، فأرسل له جوردون أحد نواده ، وهو رومولو جسي الإيطالي بعد أن عينه مديرا على

بهر الغزال بدلا من سليمان ، على رأس حملة توأما سبعة آلاف وخمسة رجل (١٧) ، وقد استطاعت هذه الحملة ان تشتت شمل قوات سليمان في كل من بحر الغزال ودارفور .

بلغ الزبير نبأ عصيان ابنه عن طريق أحد أتباعه في السودان ، فكتب اليه رسالة ينصحه فيها بالرجوع عن عصيان الحكومة ، والخول في طاعتها والامثال لأوامرها لأنه يخشى مغبة غضبها عليه وأنه لا قبل له بمحاربتها ، وأنه ان يقتل لأوامر جوردون فقد أمن على نفسه وقواته (١٨) .

كذلك كتب جيسى لسليمان كتابا لنفس الهدف معطيا له الايمان على حياته ان هو سلم نفسه ورجاله ، ولكن رابع الزبير لم يثق بكلام جيسى وانسحب مع بقية الجند الى جهة الغرب حتى وصلوا الى بحيرة تشاد ، وبالرغم من الوعد الذي أعطاه جيسى لسليمان بالحفاظ على حياته هو ورجاله فان جيسى لم يف بها وعده (١٩) .

وفي ١٤ يوليو ١٨٧٩ م الموافق ٦ شعبان سنة ١٢٤٧ هـ توجه سليمان وبه ثمانية من أقاربه لتسليم أنفسهم لجيسى ، علم بلبث ان دعاهم جيسى في اليوم التالي لتسليمهم ليشرىوا معه أقذاح القهوة في خيمته ، بعدها كان مصيرهم الاعدام رميا بالرصاص ، وبعد مدة أقبل قناوى بك أبو مهورى وهو صديق قديم للزبير ، فقام بتكفينهم وأوراهم قبرا صغيرا (٢٠) .

وكتب جيسى لجوردون بعد ذلك يقول « لقد اضطررت لقتل سليمان الزبير بعد تسليمه لأنه حاول أن يؤلب على رجالي وأن يثير الفتنة في صفوف الجيش (٢١) » .

ويقال ان الحكومة المصرية أبرقت لجوردون لكي يرسل سليمان الى القاهرة ، ولكن جوردون علق على ذلك بقوله : « سأمنح جيسى

الف جنبه اذا نجح في القبض على ابن الزبير وآمل ان يشنقه لانه لو ارسل الى القاهرة لرحبوا به « (٢٢) .

الأحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير :

تعرض الزبير وهو في مصر لحملة ضارية من الاغترابات من جانب جوردون واتباعه بعد مصرع ابنه سليمان ، رغم انه قد سلمه لجسي طبقا لأوامر الحكومة وجوردون ، ونصيحة والده له . وكان الهدف من هذه الحملة هو الصاق تهمة تحريض الزبير لابنه على الثورة بحجة احتجازه في القاهرة ، وزعزعة مكانته لدى الخديو اسماعيل باشا ، ومصادرة أمواله وممتلكاته في السودان ، وتجريده من كافة الامتيازات التي كان يتمتع بها هو وحاشيته في مصر ، والقضاء على كل اثر له أو نفوذ في بلاد السودان . ولم يكتفوا بذلك بل انهم عملوا على محو تاريخ الزبير وأعماله الجيدة في بلاده . قام جوردون بمصادرة أموال الزبير في السودان محتجا بأنه كتب الى ابنه سليمان من مصر يحرضه على الثورة . وفي الواقع لا توجد وثيقة تثبت ما قاله جوردون ، ولكن العكس هو الصحيح وهو وجود ما يثبت قيام الزبير بتوجيه النصيح والإرشاد لابنه بالاستسلام للحكومة واطاعة أوامرها وذلك في رسالة بعث له بها . وسوف تثبت الأحداث فيما بعد صدق هذه الحقيقة حينما تقابل الزبير مع جوردون بالقاهرة ، وطلبه أمام الحاضرين بأن يظهر لهم الرسالة التي ادعى كذبا ان الزبير أرسلها لابنه سليمان ، فلم يستطع جوردون الإجابة على سؤال الزبير بل القزم الصمت ، ويكفي للدلالة على براءة الزبير من هذه التهمة الموجهة له ما ذكرناه من حقائق مضاهيا اليها الآتي :

أولاً : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم جيداً النتائج المترتبة على هذا المصيان الذى سوف ينتهى بالقضاء عليه من قبل قوات الحكومة ؟

ثانياً : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم أن معظم أتباعه قد تخلوا عن تأييده بل يزيد على ذلك أنهم أصبحوا أعداء له يهيكون له المكائد والوشايات لدى جوردون وجيسى من أمثال ادريس ابتر والمسيد بك حسين ؟

ثالثاً : هل من مصلحة الزبير وهو فى القاهرة أن يقوم بتحريض ابنه سليمان على الثورة ضد الحكومة ، دون أن يدرك نتائج هذا التحريض وغضب الحكومة عليه وما يترتب على ذلك من أنزال أشد العقوبة به وبذويه فى مصر والسودان ، ومصادرة ما بقى له من ممتلكات وأموال ؟

رابعاً : كيف تبادر الى ذهن جوردون قيام الزبير بهذا العمل بعد أن فتحت له حكومة الخديو صدرها ورحبت به وبأتباعه وميلت على طلبية جميع طلباته وانزلته منزل الراحة ، ووثقت به ووكلت اليه قيادة إحدى فرقها المشتركة فى الحرب الروسية التركية ، وائتمت السلطان العثمانى عليه بالرتب والنياشين لحسن بلائه فى الحرب ، فهل تكون النهاية أن يخون هذا الرجل الحكومة بعد كل ما قدمته له والاجابة المنطقية والحقيقية هى التى ينطق بها التاريخ وتظل عليها الوثائق .

وتتسع دائرة المؤامرة التى هاجمها جوردون وأتباعه ضد الزبير وابنه سليمان ، فنراه بعد أن صادر أموال الزبير فى السودان يحتج بأن الزبير قد كتب لابنه سليمان من مصر يحرضه على الثورة لأن الحكومة قد احتجزته فى القاهرة ، وبهذا المعنى أرسل برقية الى الخديو يخبره فيها بأنه بعد ما ناكذ من مصيان ابن

الزبير ومهاجمته لمديرية بحر الغزال وقبائه بالاستيلاء على أسلحة الميرى وقتل الأفراد ، غانه بناء على هذه الوقائع يطلب صدور الأمر بالقبض على الزبير ووضع في الحديد ، وحفظ جميع نقوده وامتنعه وهي زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الأذن لجوردون نفسه ببيع جميع امتعته الموجودة بالسودان وتوريد ثمنها للحكومة ، كذلك القبض على عائلته وأقاربه ويضمهم في السجن(٢٣) .

وقد احتج الزبير على هذا الأمر ، فكان رد الخديو على تلغراف جوردون « بالا يؤخذ الأب بجناية الابن »(٢٤) .

وقد أخطأ جوردون حين اشتط في العقوبات التي وقعها على النساء والأطفال من أهل الزبير دون سبب لذلك . وعلى المصنوع فقد أتى جوردون بحكم بربري في وقت جاء فيه لينهى الأحكام البربرية وذلك من خلال علاقته بالزبير وابنه سليمان وفي هذه الفترة كانت آراؤه عنهم صدى لأقوال الواشين ، ولم يتحقق من صدق ما قيل أو كذبه . ومع أن جوردون نجح في عدم تمكين سليمان من الاتحاد مع هارون كما كان يتوقع فإنه بطريق غير مباشر جمع بين رغبة أعوانهما في القضاء على الحكم القائم في البلاد ، وترك قبائل غرب السودان وأبناء الجلالة الذين نزحوا من النيل بغرض التجارة هناك متفقين على كراهية الحكومة والسمي لاسقاطها متى توافرت لهم الوسائل وتبنيات الأسباب(٢٥) .

رفض الزبير باشا الاشتراك في حملة سواكن(٢٦) :

اتجهت الانتظار الى الزبير وتردد اسمه بين الحين والحين عقب الثورة التي قام بها محمد أحمد المهدي ، والتي انتهت باستيلائه هو واتباعه على مقاليد الحكم في السودان ومصرع جوردون على يد أنصاره بالخرطوم .

وفى سنة ١٨٨٢ م الموافق سنة ١٣٠١ هـ قررت الحكومة المصرية بعد هزيمة حملة الجنرال هيكس ، ارسسال قوات من بلوكات النظام بقيادة سار توريوس باشا الى سواكن ، وقوات من السودانين بقيادة الزبير ، على أن توضع القوتان تحت قيادة الجنرال بيكر ، أرضاء للحكومة الانجليزية ، وكان هدف الحملة تخليص سواكن من يد عثمان فتنه (٢٧) ، وفتح الطريق ما بين سواكن وبربر ثم ما بين بربر والخرطوم . وقد فتش الخسديو شخصيا القوات السودانية قبل سفرها ، ولكنها سافرت وحدها دون أن يصحبها الزبير . وكان رجال تلك القوة قد طالبوا برفع مرتباتهم قبل سفرهم ، فقام الزبير بطلب مبلغ ٦٠٠٠ جنيه لصرف مرتبات رجاله ، فامنته وزارة الحربية بعدم اطاعة الاوامر وأمرته بالسفر فوراً (٢٨) .

وكان الاتجاه أن يصحب الزبير باشا هذا الألاى ونعلا توجه الى السويس للإبحار منها غير أنه علم قبل قيام الحملة بأنه سيكون تحت قيادة بيكر باشا ، فأبى هذا واشترط لاشتراكه فى الحملة أن يذهب مستقلا فى قيانته دون الخضوع لأية أوامر غير التى تصدر له من القاهرة مباشرة ، ولما رفضت الحكومة طلبه هذا نظف وقفل عائدا الى القاهرة . وان كان كرومر قد أشار الى أن العدول عن ارسال الزبير باشا الى سواكن كان استجابة لضغط الجمعية التى انشئت لمقاومة تجارة الرقيق على الحكومة الانجليزية (٢٩) . وليس لرفض الزبير كما ذكر .

وبناء على طلب الحكومة المصرية قام اللورد كرومر بمخاطبة الحكومة الانجليزية فى رسالة بعث بها فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م الموافق ٨ صفر سنة ١٣٠١ هـ أوضح فيها ما يأتى :

أولا : رغبة الحكومة المصرية فى ارسال الزبير باشا الى سواكن مع الحملة لعلها بقدرته على قيادة فصائل البدو السودانية

المرسلة الى سواكن ، وقيامه بمقاومة القبائل القاطنة على طريق سواكن بربر وبغية الجهات الأخرى ، وحاجة بيكر باشا الى مثل هذه الخدمة .

ثانيا : نتيجة لتحمل الحكومة المصرية وحدها تبعات تطورات الموقف فى السودان ، فليس من الإنصاف أن تعترض الحكومة الانجليزية على طلب الحكومة المصرية بندب الزبير الى هذه المهمة رغم ما يحيط بشخصية الزبير لديها بالكثير من الأخطاء (٣٠) .

وقد تلقى اللورد جرانفيل هذه الرسالة فلم ينجح كل ما جاء فيها من الحجج فى اقناعه بالموافقة على اقتراح الحكومة المصرية باشتراك الزبير فى الحملة . وقد وصفت بمز سارقتوريوس (٣١) نتائج عدم اشتراك الزبير نتيجة عدم موافقة الحكومة الانجليزية بقولها : « وجاء عدم اشتراك الزبير باشا فى الحملة ضربة جديدة قاصمة قصت عليها بالفشل مذ اللحظة الاولى ، فقد كان السود من الجند فى حاجة ان يتولى قيادتهم طبقا لطريقتهم الخاصة فى الحرب اذ لم يكن لديهم أى فكرة عن التدريب وقواعد التنظيم ، وكان الوقت ضيقا بحيث لا يسمح بإعادة وضعهم فى تشكيلات منظمة . ولو وجد الزبير باشا على رأسهم لاستطاع بهم القيام بمجهود رائع ضد السودانيين ولحاربهم بنفس الطريقة التى يتبعونها اما بدونهم فقد بدت هذه القوات السودانية ضائعة مبددة » (٣٢) .

وكانت التعليمات المعطاة للجنرال بيكر تحرم عليه القيام بعمليات حربية ، ولكنه خرج من ترنكتات (٣٣) فى يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ م على رأس جيش ثوامه ٣٦٠٠ جندى ومعه ستة مدافع . وكان جنوده غير مدربين ، واستخدم تشكيلات لا تتماشى مع طبيعة الأرض ، وانتهى الأمر بهزيمة نكراء ، فقد نهب معظم

رجاله واسلحته ، خصوصا أن معظم المصريين قد رفضوا اطاعة الأوامر لاطلاق النيران على السودانيين ، بل لقد انضم عدد منهم الى قوات الثوار في اثناء المعركة نفسها . وعاد بيكر الى سواكن ليجدها بحالة من الثورة العارمة ، وكان ذلك بسبب وجود القوات السودانية ولذلك مان الاميرالية امرت بانزال فرق من مشاة الاسطول في سواكن ، وعملت على ارسال بعض الوحدات المصرية الى السويس ، والوحدات السودانية الى مصر . ثم اجتمع مجلس الوزراء البريطانى وقرر ارسال قوات بريطانية الى البحر الاحمر وذلك لانقاذ طوكر . وصدرت الأوامر برقيا الى القائد العام لقوات الاحتلال البريطانية في مصر بارسال قوات للدفاع عن سواكن ، تحت قيادة الجنرال جراهام . وقد وصلت الى سواكن ما بين ١٩ و ٢٠ فبراير في نفس الوقت اذى وحلل فيه جوردون الى الخرطوم (٢٤) .

فشلت اذن حملة سواكن بدون اشراك الزبير فيها وموافقة شروطه كما كان متوقعا .

الزبير وجوردون وحداث الاخلاء :

مبنت الحكومة الخديوية الكولونيل جوردون في منصب الحاكم العام للأقاليم السودانية في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ م ، ومنحته لقب باشا بعد أن اوصى بذلك فيفان الفتنل العام البريطانى في القاهرة . وكانت هذه هي أول مرة يشغل فيها أحد الأوربيين هذا المنصب العام ، فكان عليه أن يشرف من الخرطوم على أراض تمتد شمالا لمسافة ألف ميل ، وجنوبا لمسافة ١٥٠٠ ميل ، وشرقا لمسافة ٤٠٠ ميل حتى سواحل البحر الاحمر ، وغربا لمسافة ٧٥٠ ميلا الى آخر حدود دارفور . واطهر جوردون انه يخدم المصالح البريطانية أكثر من خدمة مصالح مصر (٢٥) .

وقد بدأ جوردون في تنفيذ الكثير من المهام التي كلفه بها الخديو منذ يوم وصوله الى الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٧ م الموافق ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٩٤ هـ . وكان ضمن المهام التي كلف بها العمل على القضاء على تجارة الرقيق ، وقد نجح في ذلك الى حد ما في يوليو سنة ١٨٧٩ م الموافق ٩ رجب سنة ١٢٩٢ هـ ثم أعقب ذلك قيام ثورات منها ثورة سليمان الزبير (٣٦) التي نجح جوردون في القضاء عليها بواسطة صديقه رومولو جسي وكان جوردون قد عاد في اثناء هذه الفترة الى القاهرة سنة ١٨٧٨ م لانتهاء بعض الأمور الخاصة به (٣٧) .

وأخيرا استدعى جوردون من السودان في يونيه سنة ١٨٧٩ م . ولكن بعد أن تخرجت الأمور في السودان . وقد أثبتت الحوادث صدق حكم شابه لونج الأمريكي بقوله « لقد وجد جوردون السودان في سلام ورفاهية وتركه في سنة ١٨٧٩ م وهو ينوء بالثورة » (٣٨) .

يضاف لأسباب استدعاء جوردون من السودان عزل الخديو اسماعيل صديقه الحميم وتولى ابنه توفيق الحكم ، علاوة على أن الحكومة الجديدة اتهمت جوردون بالتهاون في جمع الضرائب ، وأمام هذا لم يسعه الا أن يقدم استقالته فقبلت منه وعاد بعدها الى إنجلترا ، ولم تلبث الحكومة المصرية أن عيّنت من بعده رؤوف باشا (٣٩) حكاما للسودان ، الذي قدر له أن يكون أخسر الحكمداريين في العهد المصري قبل شهبوب الثورة المهدية (٤٠) .

وكان الزبير حتى شهبوب هذه الثورة مازال محبوسا في القاهرة وكان آخر ما اتصل به هو رفضه الاشتراك في حملة سواكن ، ثم خلافاته ومنازعاته مع جوردون عقب مقتل ابنه سليمان ، وكانت

الثورة المهدية في تلك الأثناء تنمو شيئا فشيئا وتنتشر في سرمة حتى عمت جميع أرجاء السودان المصري ، ولم تفلح الجهود التي بذلت في سبيل القضاء على بذور هذه الثورة أو الحد من انتشارها ، في تلك الآونة بدأ تفكير الحكومة الانجليزية في الضغط على الحكومة المصرية من أجل إخلاء السودان ولكن الحكومة المصرية لم تكن تحبذ هذا الرأي ، بل كانت تريد إعادة محاولة إخضاع السودان ، ولكنها في نفس الوقت لم تكن تملك الاداة التي تمكنها من تنفيذ اغراضها ، نجيشها الحديث لم يكن الا أداة بوليسية تحت قيادة بريطانية لحفظ الأمن داخل البلاد ولم تياس الحكومة المصرية في إيجاد حلول أخرى للمشكلة غير الإخلاء ، الا انها جميعا قوبلت بالرفض التام واقامة المراقيل امامها من جانب الحكومة البريطانية(١) .

وكانت سياسة الحكومة البريطانية حتى هذا الوقت هي عدم التدخل في الشؤون المصرية ، والدليل على ذلك أن اللورد دفرين اقترح منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ م إرسال جوردون لامادة الأمن والنظام الى السودان ، ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح ، لأن الحكومة المصرية عارضت في استخدام جوردون للمرة الثانية ، ولكن الموقف لم يلبث أن تغير بعد هزيمة حملة هيكس في موقعة شيكان ، وانباء الهزائم التي وصفت القاهرة والتي حدثت في السودان الشرقي . فكان من اثر هذه الأخبار أن جعلت السير اينلين يارنج يتحول في الفترة ما بين ٩ و ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م من سياسة عدم التدخل التي ظل حتى هذا الوقت يشير بها على حكومته ويبذل قصارى جهده في تأييدها ، الى سياسة التدخل . نبعث ببرقية الى حكومته يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م لطلب تعليمات أكثر تحديدا نخوله أن يفرض على الوزراء المصريين اتباع سياسة معينة بشأن السودان ، وهي سياسة التدخل من

كل الاراضى الواقعة الى الجنوب من وأدى حلفاً وألتي ثرتب عليها فى النهاية ازاء هذا الضغط الصريح من انجلترا . أن قدم شريف باشا استقالة وزارته فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ م . وتالفت وزارة نوبار باشا فى العاشر من يناير سنة ١٨٨٤ م . وعلى ذلك ابرق جرانفيل مرة أخرى الى بارنج فى نفس التاريخ يسأله اذا كان استخدام جوردون فى السودان ممكناً . وللمرة الثانية أجاب بارنج انه بعد اتشلاور مع نوبار لا يعتقد أن من الممكن استخدام جوردون أو السير تشارلس ولسون فى الوقت الحاضر . ولكن بارنج الذى استعان بقليل من الضغط على المسئولين فى القاهرة استطاع أن يبرق الى جرانفيل فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٤ م أن جوردون خير من يمكن استخدامه فى السودان . وجاء هذا الضغط الذى استعان به بارنج نتيجة لموافقة المستر جلادستون نفسه منذ ١٤ يناير سنة ١٨٨٤ م على اقتراح وزير خارجيته جرانفيل ، باستخدام شيء من الضغط على بارنج حتى يقبل هذا ذهاب جوردون الى السودان اذ أبدى أن فى وسعه بفضل نفوذه الشخصى مع القباطل أن يجعل هؤلاء يحرسون حامية وسكان الخرطوم فى طريق انسحابهم منها الى سواكن (٤٢) .

وكان أول أمر لوزارة نوبار باشا هو اخلاء السودان وهو يحمل تاريخ تأليفها ، وصدر مرسوم فى الخامس عشر من نفس الشهر بأن يتبع السودان وزارة الحربية بعد أن كان يتبع رئاسة مجلس الوزراء . وفى ٢٤ يناير من نفس الشهر قرر مجلس الوزراء البريطانى أن يعهد الى الجنرال جوردون بهمة اخلاء السودان ، وصدرت الأوامر لجوردون بالتوجه الى القاهرة لتسلم الأوامر الخاصة بهمته من الخديو شخصياً ، فوصل الى القاهرة فى السادس والعشرين من يناير من نفس السنة ، وقبل جوردون الحاكم السابق القيام بهذه المهمة برغم معارضة السير

أيفيلين بارنيج ألتنصل البريطانى فى مصر . أذ كان يراه رجلاً
مترددا ضيق الأثقى ، وتصير النظر ، وكان من الغريب أن يعهد
الى رجل مسيحى متعصب ليتولى انقاذ جيش مسلم من داعية
مسلم يتبعه أنصار مسلمون ، ومن هنا بدت مسئولية الحكومة
البريطانية فى النتيجة التى انتهت اليها مصير هذا الرجل وقد موثق
جوردون فى هذا الأمر فقبل دون تردد كى يكون هذا الأمر شفيها
له لتجسين معاشه وكان قبول جوردون على أساسى أن يذهب
الى السودان ليختبر الحالة ويكتب تقريراً بها يراه (٤٣) .

أما الحكومة الانجليزية فقد سلمت اليه خطاباً بالتعليمات
اللازمة وملخص ما جاء فيها :

أولاً : تقديم تقرير عن الحالة العسكرية فى السودان
والوسائل التى يجب اتخاذها لضمان حياة الجالية المصرية
والأوربية .

ثانياً : ضمان أمن وإدارة موانئ البحر الأحمر التى هى
تحت سيادة الحكومة المصرية .

ثالثاً : توضيح الوسائل الفعالة التى يجب اتخاذها لردع
الحركة الثورية وجلاء القوات المصرية بحيث لا ينجم عن ذلك ما
يعمزز تجارة الرقيق .

رابعاً : أن يأخذ تعليماته من السير ايفلين بارنيج ويعتبر نفسه
كوكيل ومنووض لاتهام اية مأمورية تكلفه بها الحكومة المصرية ،
وأن يصحب معه الكولونيل ستيورات ليساعده فى هذه المأمورية .

خامساً : أن يتصل فور وصوله لمصر بالسير ايفلين بارنيج
الذى سوف يقرر ذهابه الى سواكن أو إرسال الكولونيل ستيورات
الى الخرطوم أو التوجه بنفسه (٤٤) .

ولى ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ م بينما جوردون فى طريقه الى مصر تلقى اللورد كرومر (بارنج) برقية من اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية يخبره فيها بأن يتخذ الحيلة لمراقبة الزبير لمنع اتصاله سرا بالسودان . ولم تكف العيون عن مراقبة الزبير بعد ذلك فعلا (٤٥) .

وقد كان جوردون مايزال عند رأيه فى أن الزبير هو العنصر الخطر على الثورة فى السودان ، وقد يزيد من اذكتائها ، وقد يهب ليتعاون مع المهدي . وعندما وصلت السفينة المقلّة لجوردون الى بورسعيد جاءه رسول يحمل له خطابا يطلب منه الحضور عورا الى القاهرة . ولما كانت هذه أوامر بارنج فلم يكن جوردون ليستطيع الرضا ، فاستقل قطارا خاصا بمفرده ، وبعد عدة ساعات كان جوردون مع القنصل العام ، ولم يكن الرجلان قد تقابلا منذ سبع سنوات ، وكانت الأحداث التى تلت ذلك غريبة جدا فكان على الرجلين أولا مقابلة الخديو توفيق ، وتمت المقابلة واعتذر جوردون عما بدر منه من انتقاد للخديو وبالتالي تم تثبيتته فى وظيفته كحاكم عام . ثم بعد ذلك كان عليها تحديد مهام وظيفته ، وكان هذا هو الوقت المناسب لاخلاء الحاميات من السودان والا تعذر اخراجها بعد ذلك . وقد كان لابد من ايجاد نوع من الحكم هناك . ولم يكن أحياء الشياخات القديمة ونظام زعماء القبائل كافيا وكان لابد من ايجاد شخص يملك من السلطة ما يمكنها توحيد هذه الشياخات والقضاء على وحدة فيدرالية . وتقدم جوردون باقتراح اذهل الجميع لماذا لا يكون الزبير هو ذلك الرجل ؟ . وكتب جوردون الى السير اينفيلد بارنج يبلغه فيه بشموره بأن تعاون الزبير معه سوف يحسم موضوع السودان لصالح جلالة الملكة والحكومة المصرية واقترح تنظيم لقاء بين السير اينفيلد بارنج ونوبار باشا رئيس الوزراء ويكون هو معهم والزبير ، ولكن بارنج قال

أنه لا يثق في تلك الأدلة القائمة على الشعور الدينى ومع ذلك فلم يعارض بارنج اختبار الزبير فقد كان الرجل اقدر من يستطيع ادارة شئون السودان(٤٦) .

وحين وصل جوردون الى القاهرة فى سنة ١٨٨٤ م كان الزبير يعيش فى رغد كقله له مرتبه الكبير ، ورغم أنه كان محتجزا فى القاهرة ، فانه لم تفرض عليه أية قيود فى حياته نهى حريته رغم سطوته ، وكان يكره جوردون من كل قلبه ويحله مسئولية مقتل ابنه . وقد تصرف جوردون كأنه لا يرغب فى شىء سوى رغبته فى ضم الزبير تحت لوائه ، لا لسبب الا لأن هذا الباشا الاسود كان اكبر تاجر عرته التاريخ واعتبر الورد جرانفيل والسسير ايفيلين بارنج تأييد جوردون للزبير دليلا على عدم توازن شخصية جوردون . وكتب وزير الخارجية للقمصل العام يقول له : « أن خطابات جوردون تثير قلتي ، فتضيره نحو الزبير لا يستطيع أن افهم كنهه » ولكن جوردون كان يعرف ما يريد ، فقدم الى بارنج فى صباح ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤م انذارا مكتوبا عرض فيه للحوادث اتلى ادبت الى طرد الزبير من السودان ويؤيد ثقته فى قدرته على إدارة حكومة السودان ، والقضاء على ثورة المهدي باجتذاب اتباعه لانهم كانوا أصلا قادة لدى الزبير ، وكذلك عظمته وبطولته فى القتال ، وأنه أى جوردون مستعد لتحمل مسئولية الاعتماد على الزبير لأنه مقتنع بذلك . هذا الانذار لا يخلو من الحكمة والعقل ، وهو يوضح أن جوردون كان انسانا واقعيا يبحث عن النتائج ، فهو يعلم ميوب الزبير ، ويدرك العداء الشخصى الذى يكنه له هذا الزعيم العجوز ، ومع ذلك حاول اكتساب تأييد الزبير ، ذلك ان قدرة وشجاعة الباشا الحزين لمقتل ابنه هو ما يحتاج اليه لضمان الجلاء عن السودان والسيطرة على تجارة الرقيق « الامانة فى

أحسن سياسة » وقد قرر جوردون أن الزبير سيقب هذا المبدأ (٤٧) .

لقد بقيت مسألة أخرى تحتاج إلى تفكير ، إذ أنه لم يكن هناك أسر قوية يستطيع أفرادها أن يتقلدوا السلطة اللازمة في دنقة أو كسلا أو الخرطوم ، أي المناطق التي تكون قلب السودان بعد سحب القوات المصرية منها . وكان حكم الثوار راسخ القدم في دارفور ، ولم يكن من المستطاع تطبيق سياسة إعادة الأسر القديمة إلى مناطق السودان إلا في دارفور . أما في الخرطوم وهي مفتاح السودان فكان جوردون شديد الرغبة في عدم أرجاء إعادتها إلى إدارة الباشاوات المصريين ، وكان يتردد بين التنازل عنها ، أو بمعنى أصح إعادتها إلى تركيا ، وإقامة نظام حماية بريطانية شديد المرونة عليها . ولم يكن في استطاعته أن يحسم هذه الإنكار إلا بعد وصوله للخرطوم ، ولكنها كانت تشغله بدون شك وهو لا يزال في القاهرة . وعلى أي حال فقد فكر منذ وجوده في القاهرة في أنه يحتاج إلى رجل يحل محله بعد اتهام الإخلاء ، وذلك لكي يتولى السلطة بأي شكل ، فكان من الضروري أن يجد رجلا « له اسم ونفوذ يرضاه على الأعالى » وكان من نتيجة ذلك أن طالب جوردون بتميين الزبير بلشا لكي يعاونه في مهمته .

هذا على الرغم من أن الزبير لا ينسى لجوردون مثله لابنه حينما كان حاكما عاما في الخرطوم . وكان الزبير رحمة من أصل شريف وينتسب إلى العباسيين وقد تمكن بشجاعته ومقدرته وكرمه وثروته من أن يصبح من رجال السودان المعنودين . وأراد جوردون أن يستفيد من وجود الزبير معه لا لعملية سحب القوات المصرية من السودان بالذات ، ولكن لإقامة نوع من الحكومة المحلية في الخرطوم تحت رئاسته ، وتخضع لسيطرة البريطانيين ،

فأعلن أن السودان محتاج الى هذا الزعيم السوداني قبل احتياجه اليه هو الجندي الانجليزي ، وذكر أن الزبير هو الرجل الوحيد الذى يستطيع نفوذه أن يعادل نفوذ المهدي ، ويجعل الزعماء السودانيين المنتهين اليه يهجرونه ، وهو الرجل البعيد الذى يستطيع انجلترا أن تحاول استغلال تدخله للوصول الى تسوية لشئون السودان (٤٨) .

اجتماع الزبير وجوردون فى القاهرة :

فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٤ م تم اللقاء بين الزبير وجوردون فى منزل السير ايفلين بارنج وكان يشغل منصب المعتقد البريطانى فى مصر (٤٩) . وبحضور كل من السير ايفلين وود وجيرالد بورنال والمajor الاونورايل منتيج ستيورات ورطى والكولونيل واطسون وجيجلر باشا (٥٠) ، وقد كان الموقف عصيبا بالنسبة لهم جميعا ، فقد كان جوردون هو المسئول عن اعدام سليمان الزبير لذلك رغب الزبير مصافحته . وكتب بارنج يصف الموقف بأنه كان مثيرا للغاية ، وكان الزبير باشا وجوردون منزعجين الى درجة كبيرة ويتحدثان بعصبية واضحة ، واثكر الزبير انه هو الذى حرص سليمان على الفوزة ولكن جوردون أعلن أن لديه الدليل على ذلك وهو الخطاب الذى اخذه من جسى بعد قتله (٥١) .

وفى هذه الاثناء طلب الزبير من جوردون بأن يقدم هذه الوثيقة ، فأرسل الى وزارة الحربية المصرية لطلب احضار اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت باختلافها منذ سنة ١٨٧٩ م أى أنها لم تفض اخطامها لخمس سنوات وبالبعض لم يعثر على الوثيقة التى اشار اليها جوردون حينئذ قال جوردون ان الأمر كان مأساة وأن العدل انصرف عن مجراه واتى سوف أعمل ما يمكن لترضية الزبير (٥٢)

ولم ينس الزبير طلب جوردون الملح بسجنه هو ومصادرة أملاكه وسجن أقاربه ، وأخيرا المطالبة بمحاكمته على أنه قد أومر لابنه بالثورة ولولا معارضة الخديو آنذاك لاحتدم جوردون الزبير . ولقد فعل جوردون ذلك وهو يعتقد أن ابن الزبير متى طأشى انساق الى الثورة بتحريض من والده وكلاهما خرج على الحكومة فكلاهما يستحق الإعدام . وجرت معاتبات بين الاثنين أصر فيها جوردون على موقفه وما اقتنع الزبير فيها بحجة ، وبالرغم من ذلك يصر جوردون على مرافقة الزبير له ، وبالرغم من أخطائه وعدم خضوعه يتوسم فيه السوداني الوحيد الذى يساعد فى حل المواقف فى السودان . لاحظ الحاضرون لبارنج ونوبار الهوة السحيقة بين الرجلين وإنما أن سمحا للزبير بمرافقة جوردون فربما يحدث منه ما يعرقل خطط جوردون بدلا من معونته واحتياطيا لهذا الاحتمال رفض بارجن ما طلبه جوردون (٥٣) .

وعقب هذه المقابلة التى تمت بين جوردون والزبير كتب جوردون مذكرة الى بارجن يلح فيها على اصطحاب الزبير باشا معه للسودان ويقول : « إذا كانت المهمة المطلوبة هى إخلاء السودان بأسرع وقت مع المحافظة على سلامة المواطنين المصريين فلأداء هذه المهمة وحدها لا أراى فى حاجة الى الزبير . أما إذا كان على بالإضافة الى ما تقدم أن أترك وراى فى السودان تسوية مرضية للأمر فإن وجود الزبير معى يصحح عندئذ بندا مهما لا فناء عنه » (٥٤) . وهكذا رأى نفسه يطفى الرفض فى أول مطالبه ، وقد قيل له أنه سيقبى التعمسبىد والمعونة الكفبيين من بارجن والحكومة المصرية (٥٥) .

والحق أن هذا الاقتراح وهو الاستماعة بالزبير كان الوحيد الذى كان يمكن أن يحطم الثورة ، فالزبير سودانى كالمهدى ، وليس فريما وله العقلية التى تستطيع أن تؤثر فى السودانين أكثر من

مقلية المصريين والبريطانيين كما أن شخصيته لها ماضى فى السودان ، وله انصار من بين تجار الرقيق الذين كانوا يكونون نواة انصار المهدي ، فكان هو الشخص الذى يستطيع أن يجتذب السودانين اليه ، فيشطر انصار المهدي ، ولكن يبدو أن الحكومة البريطانية لم يكن يعنيها فى كثير أو قليل تحطيم الثورة ، فأوعزت الى كل من الجرائد وجمعيات مقاومة تجار الرقيق بمهاجمة الفكرة . وقد فتحت الحكومة له اعتمادا ضخما وزودته بمرسومين احدهما بتنصيبه حاكما عاما مفوضا على السودان ، والأمر الآخر يتضمن الغرض الذى نذب له (٥٦) وتركت له حرية التصرف وهذه هى هتوة أخرى نسجلها على الحكومة المصرية ، فما كان لها أن تفعل معه ذلك وهو الرجل العسكرى الذى لا يعرف الا الطاعة المياء لمروسيه ولم يكن صاحب رأى خاص ولا صاحب تصرف شخصى . ونرى دليل ذلك فيما كتبه ستيوارت (٥٧) الى بارنج فيقول : أن جوردون فى حالة عصبية قلقة يبدو عليه عدم الاستقرار وذلك من خلال البرقيات والخطابات التى يكتبها الى بارنج وغيره أينما ذهب ودون أن يتدبر ما عمله . ما برح جوردون القاهرة ليقوم بعملية الاخلاء دون أن تكون معه قوة تمكنه من حماية الانسحاب مع ان من المعروف أن الانسحاب دائما أصعب من الهجوم (٥٨) .

اصطحب جوردون معه عند سفره الى الخرطوم الكولونيل ستيوارت الذى سبق أن زار السودان مستطعلا ، وابراهيم نوزي ياوره الخاص ، والابير عبد الشكور ، أحد ائرياء سلطان دارفور السابق الذى أراد جوردون أن يمنحه حكم هذه المديرية لى يعمل على تخليصها من أيدي الثوار وأخيرا نان الجنرال السير جيرالد جراهام أحد أصدقائه المخلصين قد سافر معه حتى كرسكو ، وأعطى لنا صورة رؤية عن جوردون الذى كان شديد الاعتدال

بنفسه وواثقا من انه سيرتب كل الأمور في مدى ستة أشهر . وكان الأمير عبد الشكور يعيش في القاهرة ، فاستدعته الحكومة الخديوية وأعطته كسوة مزرکشة وطلبت منه مصاحبة جوردون الى السودان لاحتلال دارفور ، ودفعت له ٢٠٠٠ جنيه . وكانت رحلته جزءا من سياسة إعادة الأسر الحاكمة القديمة الى السودان والأسر الى تستطيع أن تحتفظ بنوع من الولاء للخديو ولحماته الجدد البريطانيين . ولكن جوردون كان يحتقر عبد الشكور فكان غير مهذب معه على ظهر الباخرة ، مما اضطره الى النزول في اسوان وعلان عزمه على عدم متابعة السفر ، ولكنه سافر حتى دنقلة حيث انتظر بضعة أشهر ثم عاد مع أسرته الى القاهرة (٥٩) .

وعندما كانوا يودعونه في محطة القاهرة حاول بارنج تخفيف ما لقيه جوردون من صدمة بخصوص رفض إرسال الزبير معه ووعدته بالنظر في ذلك مرة أخرى فيما لو أصر على الزبير حين وصوله الخرطوم ورأى لزوم إرساله وعلى هذه الحالة النفسية قام القطار به في رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير ١٨٨٤ م التي ما عاد بعدها بل كانت آخر سفرياته . ومن غرائب المصادفات أنه لقي حتفه في يوم ٢٦ يناير من السنة التالية وهي سنة ١٨٨٥ م (٦٠) .

اقترح جوردون باعادة استخدام الزبير في السودان :

بعد أسابيع قليلة من وصول جوردون للخرطوم وقعت حوادث سياسية مهمة تتصل بمهته في السودان ومن ثم فقد أمداد جوردون اقتراحه بتعيين الزبير باشا حاكما للسودان بوصفه نائبا عن الحكومة المصرية (٦١) .

وقد كان جوردون يهدف من وراء اقتراحه هذا ، تمويش الزبير باشا بما تقدمه من ملك في دارفور وبحر الغزال وعن ابنه سليمان ، ومن ناحية أخرى كان يعتقد أن الزبير باشا هو السوداني الوحيد الذي يستطيع أن يحكم البلاد ويقلوم المهدي ، ثم أنه كان يرى أن الزبير مؤمن بالوحدة بين السودان ومصر وأنه سيظل أميناً لهذه العقيدة ، وكان جوردون يرى كذلك أن الزبير رجل كفاء عسكرياً وإدارياً وأنه سيسوف ينفذ القرار الخاص بمنع تجارة الرقيق (٦٢) .

في هذا الوقت كانت حاجة الحكومة المصرية المصرية قد اشتدت إلى إيجاد حل مناسب لاختلاف الفرق المصرية في السودان . لذلك فقد رأى مستشار الخديو . وراث السلطات البريطانية في القاهرة أن العلاج الحاسم في الرجل الذي سلبوه حريته وصاروا ممتلكاته وقتلوا ولده ، وكان هذا الرجل بالنسبة للحكومة المصرية ذا أهمية بالغة ، وكانت هذه الفكرة معضدة من جانب كل من كان على علم ودراية ومعرفة بالأحوال الداخلية ، وبعد أسبوع واحد رفض السير إيفيلين بارنج الاقتراحات التي عرضها جوردون مكتوبة من جانبه شخصياً (٦٣) وتردده هو وستيورات في أول الأمر بخصوص مسألة استصواب إرسال الزبير . وجدنا أن الاثنين سرعان ما انحازا لرأي جوردون ووقف الاثنان معا يطلبان بالحاح بل من اعتناع بأن الاختلاف لا يتم دون إقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذي يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده (٦٤) .

وقد أجاب بارنج بأن الزبير رجل ذو نشاط عظيم وعزم وتصميم . وقد أخذت الحكومة في الاعتبار أن خدمات الزبير ربما تكون ذات نفع ، ومن المؤكد أن الحكومة المصرية كان لديها الحرية .

فى أن يكون الزبير وكيلها لها وأن يرسل مستقبلا الى السودان كسلطان عليها يساعده فى ذلك جيوشه وأمواله لكى يكون رأسا بناهضا ضد المهدي . وكان من المحتل فى هذه الفترة بالذات أن يسكت المهدي قبل أن يناهضه رجل كلن له من الشهرة ما يعادل شهرة المهدي نفسه ، وكان لديه من الامدادات ما تجعله أكثر عظمة وقوة من التى يمتلكها المهدي . وقد كان طبيعيا الا تستصوب الوزارة البريطانية التفاوض أو التدخل من جانب هذا الرجل وهو الزبير (٦٥) .

كانت الحكومة الانجليزية التى كانت تحت رحمة الراى العام العام لا تستطيع أن توافق على راى كهذا بهى أن وافقت أصبحت ملزمة بالاشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل مسؤولية الحكم فى السودان . وفوق هذا ربما أتوهم الراى العام بالتفريط فى التقاليد الانجليزية ، وتقاليد الحرية والتفشاء على الرق ، وما عرف الراى العام البريطانى عن الزبير سوى انه أكبر نخاس أنجبته افريقيا ، وأخيرا خضعت الوزارة البريطانية لراى عام نشرته الجرائد ضد الزبير . بل أن أحد النواب فى المعارضة ووزيرا سابقا القى فى مجلس العموم خطبة غياضة تحدث فيها بأسهل عن السمعة التى تصيب بريطانيا فى الصميم فيما لو أقدمت على ارسال الزبير وتعضيده (٦٦) .

أما بالنسبة لجوردون فإنه عقب رحيله من القاهرة الى الخرطوم لم يهل نفسه وقتا لدراسة الموقف على الطبيعة ، بل بدأ فى ارسال سليل من البرقيات المضمنة اقتراحاته وآرائه المختلفة حول المسألة الخاصة باتهام اخلاء السودان ، وانتداب الزبير لهذه المهمة وموضوعات كثيرة مختلفة كانت تترأى له من حين لآخر ليضمنها برقية ويبحث بها الى القاهرة . وفى اولى

فبراير سنة ١٨٨٤ م أرسل برقية الى القاهرة تتضمن ما يأتى :
« أن مشكلة المشاكل هى معرفة كيف ولن تترك ترسانات الخرطوم
و دنقلة وكسلا ، ومعلوم انه لا توجد أسر عريقة فى هذه المدن
وان الخرطوم وكسلا مدينتان حديثتان لأن بداية انشائها ترجع
الى أيام الفتح فى عهد محمد على (٦٧) .

وفى الثامن من نفس الشهر سنة ١٨٨٤ م كتب جوردون
الى السير ايفيلين بارنج من بلدة أبى حمد بريقة تتضمن ابلاغه
بثبات مركز حكومة القاهرة فى السودان ، وجزع السكان من
مسألة انفصلهم عن مصر انفصالا كليا واقتراحه بأن يكون
الانسحاب جزئيا وليس الهجرة من السودان كله ، وتغيير نمران
تعيينه بالنص على الرقابة الادبية والسيدة الاسمية لمصر على
السودان (٦٨) .

وفى أول فبراير سنة ١٨٨٤ م وصل خطاب الى السير
ايفيلين بارنج من ستيورات وهو فى كرسكو جاء فيه : « لايزال
جوردون متشبها بالزبير ، ويقول انه يشعر بعطف عليه حتى انه
قد يطالب نجاة بارساله الى السودان على حدث هذا اعتقد انك
لن تسمح للزبير بفكرة القاهرة الا لأسباب قوية جدا ، انى مقتنع
بأن مجيئه تجربة خطيرة ، ويحتفل الا يظهر بالنفوذ المنسوب
اليه وخصوصا أن جنوده المعرومين بالبازنتر لم يعد لهم وجود » .
وفى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م أبرق جوردون للمرة الثانية وهو فى
بلدة أبى حمد الى اللورد كرومر يشرح له فيه أن الزبير وحده هو
الذى يصلح لأن يكون حاكما عاما على السودان ولا اعتراض له
على وجودنا معه . كما رجاء أن تراه زوجته اللادى بارنج . وهكذا
لا يبقى شك فى أن جوردون بعد اقترابه من الخرطوم ووقوعه
على حقيقة أحوال السودان لم يفقد كثيرا من تفاؤله السابق فقط ،

بل أن عطفه على أهالى البلاد جعله يئس الغرض الرئيسى من المهمة التى تدب خصيصا لاتجازها ، وبعد شهور قليلة نرى نفس الرجل الذى بصر على النص فى التعليقات المسلمة له على عدم تغيير سياسة الجلاء عن السودان بأى حال من الأحوال يكتب فى أوراقه قائلا : « انى امقت حكومة جلالة الملكة من جراء فكرة الجلاء من السودان بعد أن كانت السبب فى جميع متاعب هذه البلاد » (٦٩) .

ولعل أول تنبيه لبارنج على مدى تبدل وتغير آراء جوردون هو خطاب ستيورات الذى أرسله الى السير ايفيلين بارنج بالقاهرة من بربر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٨٤ م وقد أوضح به مدى تخبط جوردون وظلمه بين عطفه المتدفق على السكان من جراء عملية الجلاء وتقباه بتنفيذ خطة الجلاء نفسها وهى فى نظر ستيورات افضل الحلول لجميع الاطراف وكان جوردون قد وصل الى بربر فى الحادى عشر من فبراير (٧٠) .

وعقب وصوله الخرطوم مباشرة أبرق مرة أخرى الى القاهرة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م يتحدث عن الفوضى التى ستمت البلاد بعد اتمام عملية الجلاء لجميع المصريين عنها ، ومسئولية الحكومة فى ادارة البلاد بعد اتمام عملية الجلاء وهو يقترح تجنباً لهذه الفوضى أن يعين مسئول يتولى ادارة البلاد بالشروط التى سيسردها وأن تؤيده الحكومة البريطانية تأييداً أدبياً دون منحه مالا أو رجالا . وقد رشع لهذا المنصب الزبير باشا تأكيداً لما سبق بقوله : « اعنى به الزبير » فهو وحده الذى يستطيع حكم السودان ويرضى عنه السودانيون ويمكن منحه بعض الهدايا « أما الشروط فهى :

أولاً : ألا تمتد سلطته الى الاقاليم الجنوبية وخصوصاً منطقة بحر الغزال .

ثانياً : ألا تمتد سلطته الى دارفور :

ثالثاً : يوالى اشعار الحكومة المصرية بارتفاع مناسيب مياه النيل . نظير مائتى جنيه سنوياً .

رابعاً : أن يظل فى حالة سلمية مع اثيوبيا .

خامساً : أن يفرض ضرائب لا تزيد على ٤ ٪ على الصادرات أو الواردات .

سادساً : ألا يحاول الانتقام من أى شخص اشترك فى سحق ثورة ابنه .

سابعاً : أن يقوم بدفع المعاشات التى كانت تعهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى .

وفى نهاية هذه البرقية اوضح أن احتجاج الزبير لمدة عشرة اعمام فى القاهرة واختلاطه بالاوربيين لابد أن يكون قد أحدث تأثيراً شديداً فى اخلاقه . كما أن تعيينه يكل عودة جميع التجار الاوربيين وغيرهم الى السودان ، وقد طلب من مستبورات ابداء رايه مستقلاً تحاشياً لابداء وجهة نظر واحدة (٧١) .

وفى نفس الوقت وصلت الى السير ايفيلين بارنج برقية من مستبورات جاء فيها : « بمناسبة برقية جوردون المرسلة لكم اليوم ، اعتقد أن السياسة التى يلح فى اتباعها ، تساعد على تسهيل مهمة انسحابنا الى حد كبير ، ولكننى اعتقد غيباً يتعلق بلزبير باشا أن معلوماتنا القليلة عن السودان ، لن تمكننا من تكوين أى رأى الآن ، ومع ذلك يحتمل أن أى رجل يتم تعيينه يكون مقبولا لفترة ما » (٧٢) .

وقد ظهر بلدى ذى بدء أن جوردون وضع اقتراحه من

الانتفاع بالزبير بغير روية كافية أثناء وجوده بالقاهرة ، فلما وجد بارنج أنه مازال على عقيدته بعد انصرام ثلاثة أسابيع ، توأمرت له خلالها فرصة دراسة الموقف في الخرطوم ولاح له أنه محق في افتراض أنه لا يعبر عن رأى مدروس ، ولا يقنف كما حدث مرارا برأى ظهر للحظة ، ولذلك مول كرومر على تأييده إلى المدى الذي يحقق الانتفاع بالزبير انتفاعا كليا ، ولو أنه كان واضحا من الناحية الأخرى أن من المجازفة بمكان السماح لهما بأن يقيما في الخرطوم معا . ولكن لما كان ستيورات زميل جوردون الحذر المتشكك في حكمته بشأن استخدام الزبير ، وكان كرومر من جهته عظيم الثقة في حكم ستيورات على الأشياء ، فقد رغب في المساح الوقت له كطالبه ، ليتمكن من تكوين رايه . وقد بعث اللورد كرومر بنص هاتين البرقيتين إلى اللورد جرانفيل يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٨٤ م وأضاف إليهما الملاحظات الآتية :

أولا : تأييده لفكرة جوردون في تعيين الزبير بالسودان مع الشهادة بكناعته ونشاطه ونفوذه العظيم داخل البلاد .

ثانيا : عدم تأثير تجارة الرقيق بوجود الزبير من عدمه .

ثالثا : اقتناعه بفكرة تأثير الزبير خلال فترة وجوده في مصر باخلاق الأوربيين وإشراكه لقوة أوربا .

رابعا : عدم تأييد فكرة الجمع بين الزبير وجوردون في الخرطوم أو وضعه تحت سيطرته بل يعتقد أن واجب جوردون يقتصر على أعداد وسائل انسحاب الحامية لباقي العناصر المصرية .

خامسا : أن يصدر الأمر بتعيينه حاكما عاما على السودان بمصادقة حكومة جلالة الملكة ، ويقترن ذلك بالنص على اعتماده على موارده الخاصة للمحافظة على مركزه وأن يحصل على مبلغ

بناصب من المال من الحكومة المصرية ليدأ به عمله . وأن يلتقى
ما يسمى بالمساعدة الأدبية التى لن يفهمها .

سابعاً : اقتراحه بأن تكون اتصالاته بالحكومة المصرية من
طريق ممثل الحكومة البريطانية فى مصر ، وعدم اعتقاده فى جد
الشروط التى وضعها جوردون لتعيينه .

سابعاً : عدم تأكده من قبول الزبير لهذا المنصب المقترح من
عنده (٧٣) .

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م أجاب اللورد جرانفيل على
برقية اللورد كرومر برفضه لفكرة تعيين الزبير رفضاً مطلقاً ، نظراً
لعدم موافقة الراى العام البريطانى على ذلك ووجود اعتراضات
شديدة لفكرة تعيين الزبير خلفاً لجوردون (٧٤) .

وفى وقت وصول هذه البرقية تلقى اللورد كرومر مذكرة من
جوردون حررها ببلدة أبى حمد فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ورغم
اختلافها بعض الشيء عن مقترحاته فى البرقية المؤرخة فى ١٨
فبراير ، نالتها مكنت اللورد كرومر من تلهم لخطوط الرئيسية
لخطته التى يريد انتهاجها (٧٥) .

وبادر كرومر الى ابلاغ جوردون نص برقية جرانفيل المؤرخة
فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م مضمينا اليها ملاحظاته التى تتلخص
فى اختلاف آراء جوردون فى برقيته المؤرخة فى ١٨ فبراير عن
آرائه الواردة فى برقيته المؤرخة فى ٨ فبراير ، وطلب من جوردون
اقتراح اسماء اخرى جديدة غير الزبير لتولى ادارة شئون البلاد
حتى جنوبى وادى حلفا أو ادارة الحكم فى الخرطوم نفسها نظراً
لوجود اعتراضات ضد الزبير فى انجلترا (٧٦) .

وقد مول كرومر على تأجيل اتصاله بجرافيل ريشا بقلقى رد جوردون ، فجاءه هذا الرد فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الذى أوضح فيه عدم استطاعة اقتراح رجل آخر غير الزبير ومسهولة تنفيذ عملية الجلاء نفسها ، وصعوبة تأمين مصر ، وتحطيم المهدي بعد أن يستولى على الخرطوم . الا أنه اقترح لتحطيم المهدي أن يرسل للزبير ألف جنيه أخرى ، ومائتى جندي هندي الى وادى حلفا ، وضباط الى دنقلة للتظاهر بأن فى الامكان النزول بها ، وبين كيفية تحطيم المهدي فى الوقت الحاضر بسهولة (٧٧) .

ويذكر د . ابراهيم انه لا يدري ان كانت فكرة استخدام الزبير باشا فى حد ذاتها رجيية ام لا . لا شك انه كان لبقا ويعرف السودان معرفة طيبة ، ولكن كيف يقاوم هذا الرجل دموة دينية كدعوة المهدي ؟ حقا كان فى استطاعة الزبير أن يجمع حوله شيوخا وأبراء وبعض الاتباع ، وانما كان لا يستطيع الصمود امام الآلاف المؤلفة من أتباع المهدي ، الذين كانوا يستهينون بالموت فى سبيله . وعلى كل فمسألة استدعاء الزبير تبين أن جوردون لم يكن متنبها كل التنبه لحقيقة الثورة المهدية (٧٨) .

وفى ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م وهو تاريخ ومسئول برقية جوردون كان قد مضى تسعة وثلاثون يوما على سفره من القاهرة ، وثمانية أيام على وصوله الخرطوم وفى غضون هذه المدة بصرف النظر عن ذكر آرائه الكثيرة المتناقضة اختط لنفسه لا اقل من خمس خطط ، تعارض بعضها مع البعض الآخر تعارضا كليا بينها لا يتفق مابقى منها مع بعضه فى النواحي التى لها أهمية عظمى بنوع خاص ، فقد دغمه تيار هذه المراحل خلال هذه المدة من فكرة الحكومة فى وضع تقارير من شئون السودان الى تحييد سياسة تحطيم المهدي ، ومن أقواله فى هذا الصدد أن تحطيمه أمر سهل

ميسور . ولزيادة ايضاح صعوبة الموقف بعث اللورد نورثبروك (٧٩) برسالة الى اللورد كرومر مؤرخة في ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤ م تضمنت وهنا مفصلا لمدى صعوبة الموقف آنذاك وشذوذ جوردون وسرمة تقلب آرائه ، وقد سردها في سبع نقاط وجميعها متناقضة واشتمل بقية الخطاب على الكثير من الاسئلة حول اضفاء الثقة على الزبير ، ومعاداة الزبير للهدى والكثير من الاسئلة حول الزبير ، وفي نهاية خطابه يقترح لتحطيم الهدى من اجل سلامة مصر هو اطلاق مسلمين على مسلمين يحل تركيا على القيام من اجل الاتراك ضد العرب (٨٠) .

وفي ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ارسل السير ايفيلين بلرنج الى جراتفيل مضمون برقية جوردون المؤرخة في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م . و اضاف اليها بعض الملاحظات المهمة حول اقتراحات جوردون المتضاربة لاتهام الانسحاب من السودان من عدم انشاء حكومة قبل الرحيل ، والآخر باقامة حكومة مستقرة تظف الادارة المصرية فيها بعد الانسحاب . وقد اوضح في ملاحظاته ان جوردون في جانب الطريقة الثانية وانه اي (بلرنج) متفق معه ويؤيد تجربتها ، وقد بين ايضا مدى الفوضى التي ستحدث نتيجة لرحيل جوردون ما لم تتخذ بعض الاجراءات سلفا لمنعها . وبخصوص مسألة الزبير وتعيينه خلفا لجوردون كتب السير ايفيلين بلرنج في ملاحظاته الى جراتفيل ما معناه انه ان لم ترغب الحكومة الانجليزية في تحميل اية مسؤولية ، كان من الواجب منح جوردون والحكومة الخديوية مطلق الحرية لعمل اصلح ما يريان عمله وهو تعيين الزبير خلفا لجوردون مع اعطائه قدرا من المال ليبدأ مهمته ، الى جانب هبة سنوية مقدارها خمسون الفا من الجنيهات يستمر دفعها لمدة خمسة اعوام ، وذلك لمعرفة مدى امكان الاعتماد على حسن سلوكه . ويؤكد بلرنج ان هذه الهبة ستتمكن من الاحتفاظ

بحيث متوسط الحجم بينها يكون التقدير بأكمله اقتصاديا بالنسبة
لإحكومة المصرية ، وفى نهاية رسالته يؤكد على تزكية الزبير دون
غيره خلفا لجوردون كما يؤيده فى ذلك نوبار باشا (٨١) .

وفى أول مارس سنة ١٨٨٤ م أجاب جرانفيل على رسالة
بارنج يطلب المزيد من الايضاحات عن الضرورة الموجبة للتمجيل
بتعيين خلف لجوردون الذى سستطول اقامته فى الخرطوم بعض
الوقت لأن الحكومة ستضع رايه موضع الاعتبار من الشخص
اللائق للمنصب ، وهى ترى ضرورة الحصول على موافقة السلطان
فى حالة التعيين . وقد بادر السير اينفيلين بارنج بارسال صورة
هذه البرقية الى جوردون . وفى نفس الوقت كتب جرانفيل لبارنج
كتابا خاصا أوضح فيه وجهة نظر الحكومة البريطانية ، ويؤكد
ثقتها فيه بخصوص رايه ورأى جوردون ونوبار فى تعيين الزبير
خلفا لجوردون ، ولكن طلب منه الاجابة على مدى ضمانه فى أن
المعونة الرسمية التى تحدد للزبير تكون رثوة كافية تحول دون
رجوعه الى مزاولة عملياته السابقة المريحة ، او حتى عدم
انحياز له للمهدى ، وكان جليا أن بارنج لا يستطيع إعطاء الضمان
لجرانفيل (٧٢) .

وخلال الفترة من ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الى أول مارس
من نفس السنة أرسل جوردون ميلا من البرقيات الى السير
اينفيلين بارنج وكلها تدور حول الاخلاء ، ومسألة ايجاد حكومة
مستقرة بعد الرحيل . وفى ٢ مارس ١٨٨٤ م أبرق السير اينفيلين
بارنج الى جوردون بأنه يرغب فى مساعدته وتأييده لولا صعوبة
أدراك ما يريده لذلك طلب منه أن يدرس مقترحاته بعناية ويبلغها
له فى برقية واحدة ، حتى يستطيع اذا دعت الضرورة الحصول
على تعليمات الحكومة . وفى نفس اليوم أبرق بارنج لستيفورات

يبلغه بالتنازع جوردون بأن غرضه مساعدته بأقصى سرعة ، ولكن الذي يزيد متاعبه هو تناقض برقياته في مسائل دقيقة تتعلق بالسياسة (٨٣) .

وقد أجابه ستيورات في برقية أرسلها في ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م يشاركه فيها شعوره نحو برقيات جوردون الكثيرة (٨٤) .

وقبل البرقية السابقة كان بارنج قد أرسل برقية خاصة إلى جرانفيل يبلغه فيها أيضا بكثرة برقيات جوردون ، وبالتالى كثرة اقتراحاته ، وبصعوبة تبليغه هذه المقترحات جملة واحدة أو بطريقة متتابعة ، وطلب إعطائه ثقة الحكومة البريطانية ، وسرعة البت في مسألة الزبير ، فأجابه جرانفيل في ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه يعطيه الثقة والسلطة التامة التى يطلبها على أن يوافيه فيها بعد بأسباب طلبه هذا (٨٥) .

وقد قام جوردون بالرد على برقية بارنج المؤرخة في ٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بعدة برقيات وهو يعيد فيها أصراره على إرسال الزبير للخرطوم شرطا لنجاحه في مهمته لأن الزبير سيدرك أن حصوله على المعونة المالية يتوقف على سلايته ، وقد علل جوردون ضعف مركزه لأنه شخص أجنبى مسيحي ، وأخيرا يطلب من بارنج أن يسأل ستيورات بلا تردد عن أى موضوع يريده ليقف على رأيه مستقلا عن رأى جوردون شخصيا . وهو يطلب ضرورة فتح الطريق من بربر إلى سواكن وإرسال مائتى جندي بريطاني إلى واوى حلما بقصد ادخال الهيبة في قلوب المهديين (٨٦) .

وفي نفس الوقت وصل بارنج برقية من ستيورات مؤرخة في ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م تتضمن اتفاقه مع جوردون في ضرورة استقدام الزبير سريعا لأنه يملك هيبة كافية لحكم السودان عقب

الجللاء لبعض الوقت على الأقل ، وسيكون خصماً للمهدى ، وبما أنه بائساً وسط طائفة من الشائكية غير القانونيين ، فإنه سيتمكن من الوصول الى مصادر المعلومات الصحيحة . وسوف يقدم الزبير مساعدة كبيرة عند سحب حلييات سنار . وقد أشار أيضا في برقيته الى اقتراحات جوردون الثانوية بخصوص تطهير طريق بربر سواكن وارسل قوة صغيرة من خيالة الهنود أو البريطانيين الى بربر وارسل قوة من الخيالة البريطانيين الى وادى حلفا لأن هذه الاجراءات توحى بوجود قوات تحت امرتهم (يقصد جوردون وستيورات) تساعد كثيرا في مفاوضاتهم مع الثوار ، وتمجيد تنفيذ الجللاء (٨٧) .

وحتى هذا الوقت كان بارنج يضغط على الحكومة البريطانية . فتوافق على تعيين الزبير خلفا لجوردون في الخرطوم واقتصر اعتراضه على فكرة ارساله في الحال وكانت حجته في هذا مزودة الاولى خوفا على حياة جوردون من حقد الزبير الدفين والثانية ثقته في حكم ستيورات على الاشياء اكثر من ثقته في حكم جوردون عليها . فحتى يوم ٤ مارس ظل ستيورات مترددا في استصواب تعيين الزبير ، ولكن برقيته السابقة جعلت بارنج يعيد النظر في نوعياته التي قدبها اليه في ذلك الوقت . فقد كان واضحا أن الحالة تزداد حرجا في الخرطوم ، والقبائل بينها وبين بربر تتردد في الانضمام الى الثوار أو الحكومة ، بينما تدفعه الظروف دفعا الى نراى المهدى ، كما كان جليا انه اذا كان لابد من عمل شيء لاتشاء جبهة معارضة للمهدى ، وجب عدم اضاءة الوقت . وكان جوردون بالغ بشدة في ارسال الزبير فورا ويقول بالنسبة لسلامته الشخصية أن مصلحة الزبير دون اضراره به . ولم يلبث ستيورات ان انضم الى رايه فصار يؤيد تعيين الزبير فورا (٨٨) .

ولى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م ابلى السير ايفلين جرانفيل
 ببرقنى جوردون المؤرخين فى ٢ و ٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ،
 وبرقية ستیورات فى ٤ منه واضاف اليها بعض الملاحظات التى
 تتلخص فى ضرورة سرعة ارسال الزبير خذنا لجوردون لأن
 التأخير سوف يضر جوردون وستیورات والحاميات المصرية ،
 ويرى بارنج ضرورة الاجتماع بالزبير قبل اعطاء رايه النهائى
 ولا مائدة من رايه اذا لم تقرر الحكومة ذهاب الزبير من عنده الى
 السودان ويتعجل رد الحكومة على هذه النقطة . وكان السير
 ايفلين بارنج يقصد حين ارسل هذه البرقيات ، ان يرى الزبير
 لتكوين رأى نهائى عن صواب ارساله أو عدم صوابه بعد الاتصتات
 الى كلامه وملاحظاته وانفعالاته . وكان سيقول له اذا أنت عملية
 الجلاء بنجاح ، ويخص بذلك اذا عاد جوردون وستیورات الى
 القاهرة بسلام فانه يعين حاكما عابا على السودان كله ، ويأخذ
 مائة الف جنيه اعانة سنوية من الحكومة المصرية مادام سلوكه
 مرضيا . وعلى العكس اذا ما أصابها ضرر ، أو على العموم
 اذا اتبع فيما بعد سياسة عدائية ضد مصر ، فانه يثير ثائرة كل
 من الحكومتين المصرية والبريطانية ، حينئذ يكون مصيره الاعدام
 اذا وقع فى قبضة احدهما . ومع ذلك لم تكن هناك غائدة فى
 الدخول فى أية مفاوضات من هذا النوع ، حتى تمنحه (أى بارنج)
 الحكومة البريطانية حرية التصرف فى الأمر طبقا لأفضل ما يراه ،
 والذي يجب ملاحظته ان جوردون وستیورات الحانى برقنى
 ٣ و ٤ مارس فى استصواب فتح طريق بربر سواكن ، بينما
 اقترح ستیورات ارسال قوة من الخيالة البريطانية أو الهندية من
 سواكن الى بربر (٨٩) .

وقد كان جوردون لسوء حظه يبعث بتلغرافاته الى السير
 ايفلين بارنج . وقد رأينا كيف كان ينصب نفسه لمعاكسته والنصح

للحكومة البريطانية بعدم الالتفات الى شيء من مطالبه حيال تلك التصريحات التي تقدم ذكرها من الجناح الخديو أو سياسة الانجليز الذين تصهدوا بمساعدته ومعاونته في سبيل العمل على نجاح مأموريته حتى ان نجاحه كان متوقفا على ارسال مائة جندي الى أسوان ووادي حلفا ، فلم ير السير بارنج لزوما للمخاطرة بهذه الكوكبة الصغيرة ، قبل بعد ذلك كله من حاجة الى برهان بأن جوردون أرسل ليموت ويترك السودان الى الفوضى ؟ ومن ظفرافات السير ايفيلين بارنج الى جوردون بتاريخ ٢ مارس عبارته التي يقول فيها « اتنى شديد الرغبة في مساعدتك بكل طريقة » ثم نراه ينصح حكومته بعدم ارسال المائة فارس الى أسوان ووادي حلفا لان ارسالهم قد يكون سببا في ابعاد الخطر عن جوردون بعض الاعداد وقد كان قصد جوردون من ارسال هؤلاء الجنود ان تصل اخبارهم الى المهدي بغلو كثير حيث يظن ان جنودا قادمون لامداد جوردون ، فلا يجسر على التقدم عليه ومناجزته ولو عملت الحكومة الانجليزية برأى جوردون وأرسلت المائة فارس لكانت النتيجة حسنة ولم تسقط بربر في ايد المهديين حيث بسقوطها احدث الخطر بجوردون ، وانقطع امله في وصول نجدة عن طريق وادي حلفا او سواكن لان بربر نقطة التقاء الطريقين (A) .

في ذلك الوقت كان الجنرال جراهام مرابطا في سواكن وعلى ابهة التقدم نحو عثمان ذقنة . كان هناك اهل في ان حسين باشا خليفة الذي كان وقتئذ في بربر ، قد يستطيع في حالة انهزام عثمان فتح الطريق الى سواكن بدون مساعدة قوة بريطانية ، يضاف الى ذلك انه مادام هناك اهل في ارسال الزبير الى الخرطوم ، وبالتالي حل المسألة السودانية بالطرق الدبلوماسية ، فان بارنج لم يكن مستعدا لتحمل تبعه الموافقة على ارسال قوة بريطانية الى السودان ، لذلك أبرق بارنج الى جرانفيل

فى ٤ مارس (٩١) بعدم موافقته على اقتراح سستيورات بشأن
 ارامل خيالة بريطانيين او هنود من سواكن الى بربر ، وفى ٥
 مارس أبرق جـراندفيل الى بارنج (٩٢) بقوله : « ان الحكومة
 الانجليزية ترفض تغيير اسمورها عن الزبير الذى تكون نتيجة
 الاسباب التى سردها جوردون وستيورات فى مفكراتها المحررة
 فى ٢٣ يناير سنة ١٨٨٤ م على ظهر السفينة تانجور فاذا لم يكن
 فى الامكان ازالة هذا الشعور ، فان الحكومة لا تستطيع تحمل
 مسئولية ارساله الى الخرطوم . وفى نهاية برقيته اراد ان
 يستفسر من بارنج كيف رتب اقتراحه بحيث جعله بين تعيين الزبير
 ومنع او عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيد ثم بينه وبين سياسة
 الجلاء التام بل توخى سلامة مصر ، ولراد ان يستفسر عن
 مدى التقدم فى مسألة انقاذ الحلييات ، ومقدار المدة التى تضى
 حسب تقديره قبل انسحابها كلها او الجزء الاكبر منها ، وبما انها
 تحتاج الى بيانات مفصلة عن كل حامية على حدة . كما رجاء ان
 يدلى برأيه فى الاقتراح الخاص باستشارة الزعماء المحليين عن
 الحكومة المستقبلية للبلاد (٩٣) .

ويبدو ان حكومة جلالة الملكة كان غرضها ان يهد جورديون
 السبيل لوقوع البلاد فى مخالف الفوضى ، ويقضى على نفوذ
 مصر فى تلك الأجزاء . اما الخديو توفيق بلشا فكان مقصده اعادة
 الامن والسلام الى تلك الاقطار ثم اجبر على تحويل مقاصده بحيث
 يجعلها متصورة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحقق
 بهم من الشرور التى كان متوقعا حدوثها من نتيجة مابورية جوردون
 الذى ارسل لبيوت حتى يتم غرض دولته . على ان جوردون لم يكن
 جاهلا بكنه تلك النية . ولهذا كان يرسل التفرغانات تترى ويدون
 المذكرات لا ليقنع قومه بالعدل عن ذلك العزم ، بل ليجعل التاريخ

حكما بينه وبين قومه لاعتقاده ان تلغرافاته ومذكراته لابد ان تنشر على الجمهور ويطلع عليها العالم أجمع وهم لابد ان يحكموا له لا عليه (٩٤) .

الفصل فى شأن استخدام الزبير :

فى هذا الوقت بدأ الشعور باليأس يتسرب الى نفس السير ايفيلين بارنج بعد ان تلقت برقية اللورد جرانفيل السابقة الذكر ، فقد ظهر منها ان الحكومة لم تكن تعلم بطبيعة الحالة على حقيقتها فى الخرطوم ، ومن ثم صار مطلوبا من بارنج ان يوفق بين اقتراح تعيين الزبير ومنع او عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيدته ، وكذلك بينه وبين السياسة التى ترمى الى الجلاء التام ، وكذلك ضمان سلامة مصر والى بقية ما جاء بالبرقية المشار اليها سابقا من مطالب ، وهى تكليفه بأن يرسل تقارير تفصيلية عن كل حامية على حدة مع أنه كان قد سبق ان أرسل مثل هذه التقارير من قبل ورغم ان كل لحظة من اللحظات التى كانت تمر فى هذا الحين كانت عظيمة القيمة . فان الحكومة لم تدرك ذلك بل يزيد على ذلك انها ظنت ان جوردون وستيورات ليسا أمام خطر عاجل ، رغم كثرة ما أرسل الى لندن من البرقيات التى شرحت فيها الحالة تفصيلا أكثر من مرة . وأن هناك نسخة من الوقت لبحث خطوط سير العمل مستقبلا فى السودان . والذى يعنىنا من كل هذا أنه كان من بين الاهداف التى يرمى بارنج من تعيين الزبير من ورائها ، أن يتولى تسهيل عملية انقاذ الحلييات المحاصرة بمنع القبائل الفرددة فى وقتها من الانحياز للمهدى واستمالتها لجناح الحكومة (٩٥) .

وكتب آلن مورهد تيسيل « لم يكن بارنج ميالا للمغامرات ولكنه كان يرى أن الموقف قد تدهور للغاية وكان ضروريا الاحتفاظ

بولاء قبائل الشمال والا قطعوا الطريق بين القاهرة والخرطوم ،
وذلك لأن شيوخ هذه القبائل كانوا من أتباع الزبير (١٦) .

وأخيرا بعد أن وازن بارنج كل شيء بعناية انتهى الى أن
خير ما يجب فعله هو معاودة السعي للانتفاع بخدمات الزبير .
ورأى أن الطريقة المثلى لحمل الحكومة للاذعان لمطلبه ، تكليف
جوردون بارسال خطابا تكتب أسبابه بعناية ردا على اعتراضات
جرانفيل في برقيته المؤرخة ٥ مارس سنة ١٨٨٤ م ، ولذلك أرسل
اليه محتوى هذه البرقية وأضاف اليها الملاحظات الآتية وتلخص
في :

أولا: هل يمكن اختيار رجل آخر غير الزبير ؟ وهل حجج
تعيينه كافية لتخفيف ثقل عيوبه ؟

ثانيا : النظر في مسألة جيع الزعماء في الخرطوم للاتفاق
معه على مستقبل البلاد .

كذلك أبدى بارنج لجوردون اهتمامه في ضرورة النظر في
كيف يتفق اقتراحه عن تعيين الزبير وأعاقبه ماليا ، مع سياسة
الجللاء ، ومع فكرة منع أو عدم تشجيع اصطلياد الرقيق وتجارتهم ،
ومع توحى سلامة مصر ؟ وإلى أى مدى يمكن الوثوق في بناء
الزبير مواليا لمصر ؟ كما أنه ليس من الجائز أن يتفق الزبير مع
المهدى عندما يصبح قويا فيكون مصدر خطر أكبر منه مصدر تعاون
مع مصر ؟ كما أبلغه أن كثيرين يعتقدون حرص المهدى على
ثورته . وفي نهاية ملاحظاته طلب منه أن يجيب على جرانفيل
بإفاسة من الخطوات المتخذة لاتخاذ الحماية بما فيها حماية
دارفور (١٧) .

وفي ٨ مارس سنة ١٨٨٤ م وصل لبارنج برقية من
جوردون (١٨) ردا على برقيته السابقة ملخص ما جاء فيها فيما
يتعلق بارسال الزبير الى السودان معناه ضمان الآتي :

أولاً : اخراج الموظفين المصريين من الخرطوم .

ثانياً : انقاذ حاميتي سنار وكسلا .

ثالثاً : التأثير على من حوله لعلهم أنه سيقيم هناك إقامة مستمرة .

رابعاً : عدم استطاعته التدخل في مسألة تجارة الرقيق لأن معاهدة سنة ١٨٧٧ م متعذرة التنفيذ ، كما أن الجلاء عن بحر الفزال والمديريات الاستوائية سوف يمنعه منعاً باتاً ، كما أنه يمكن الضغط عليه في سواكن التي ستبقى في أيدي الإنجليز .

خامساً : لن يكون لديه الفرصة للاتفاق مع المهدي .

أما فيما يتعلق بسلامة مصر فإن إقامته بالقاهرة أظهرت أنه مبلغ قوتنا . أما فيما يتعلق بمدى التقدم في انقاذ الحاميات ، فقد قام جوردون بترحيل الرجال المرضى والنساء وأطفال الذين قتلوا في كردفان ، أما سنار فهي في أمان تام ، وكسلا صامدة . وختم برقيته بقوله أن كان للمهدي في السودان قوة البابا فسيكون للزبير قوة السلطان ، كما أن الزبير الذي يكره القبائل هو الذي ضاعف نيران الثورة على أهل اختياره هو لأطفائها ، ولعل يد القدر الحديدية هي التي تحقق له بغيته إذا ما أرسل إلى هناك (٩٩) .

وكتب ونستون تشرشل يقول : « . . لقد كان جوردون على حق عندما قال بأن الزبير باشا هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكلف بهذه المهمة ، فنوبار باشا كان يعطف عليه كذلك الدكتور بوهند روف الرحالة الذي كان يؤكد ويثبت ما قاله الجنرال جوردون من تأثير الزبير باشا » (١٠٠) .

وفي نفس الوقت وصلت السير ايفيلين بارنج برقيات أخرى من جوردون تظهر ازدياد خطر المواصلات بين بربر والخرطوم .

وقد اضاف جوردون العبارة الآتية في احدى برقيات هذه بقوله :
 « .. وبالنسبة للخرطوم نفسها ليس هناك خطر عليها .. » ،
 وفي ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م نقل بارنج الى جرانفيل برقية جوردون
 المطولة السابقة الذكر والمؤرخة في ٨ مارس واسفك اليها :
 « .. ان ارسال الزبير الى الخرطوم مع منحه اعانة مالية لا يتعارض
 مع سياسة الجلاء ، كما انه لن يؤثر في مسألة تجارة الرقيق بأي
 ناحية من نواحيها ، اما خطر معاداته لمصر فهو خطر ضئيل يمكن
 احتياله ، ولا يمكن احتمال الاضرار المحققة التي تنتج من وراء
 الانسحاب بدون اعداد ما يلزم لحكم السودان في المستقبل ويقع
 بعد ذلك تحت حكم المهدي » (١٠١) .

وقد كان من الممكن حينذاك ان ينتصر السير اينفيلين بلرنج
 بعد هذا فقد قال جلاستون انه على استعداد لتجريب خطه مع
 الزبير رغم ان ذلك سيؤدي الى ان يسحب مجلس العموم ثقته
 منه ، واعطت الملكة فكتوريا موافقتها ولكن اعضاء مجلس الوزراء
 كانوا في رعب من هذا القرار ، كما انه لم يكن من الممكن ان
 يفضل الرأي العام في انجلترا فكرة جوردون بتعيين الزبير حاكما
 للسودان ، فقد كان ذلك من شأنه ان يستقط أي وزارة ، وكانت
 هذه المسألة تعادل قرار اباحة الدعارة في انجلترا . ورغم ذلك
 فقد كان من الممكن ان يوافق الرأي العام على تعيين الزبير لو
 شرحت له اسباب ذلك . وكانت المراسلات التي جرت بخصوص
 الزبير حتى ذلك الوقت سرية ، ولكنه لم يكن عسيرا التقدم بهذا
 الاقتراح عن طريق الصحافة ومجلس العموم . وقد اخذ جوردون
 هذه اللحظة لهدم سياسة الحظر والمثابرة التي انتهجها بارنج ،
 وفي لحظة غضب بسبب تأخير طلبه بالسماح له بالزيد من السلطة ،
 وضع امام مراسل جريدة التايمز وامام المجلس البريطاني في
 الخرطوم كل المناقشات التي دارت حول مسألة تعيين الزبير (١٠٢) .

وأما ما يتصل بالسير ايفيلين بارنج بخصوص هذا الموضوع فقد حدثنا تفصيلا عنه بقوله : « . . أنه حدث عنئذ حدث قضى فعلا على كل أمل فى الانتفاع بخدمات الزبير ، فحتى تلك اللحظة لم يكن اقتراح ارساله معروفا للناس ، وكان مستر بلور مراسلا خصوصا لجريدة التايمز فى الخرطوم . غفى ٨ أو ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ارسل له موملى الذى كان مراسلا لتلك الجريدة للقطر المصرى برقية مرسله له من مستر بلور لتحويلها الى الجريدة بلندن ، وفيها يبين أن جوردون اعطاه جميع المعلومات الخاصة بمحتويات برقياته وعقب ذلك وصل بارنج خطاب من ستيورات تاريخه ٨ مارس عن تفصيلات هذا الموضوع مضيفا أنه ضمن هذه البرقيات برقية تتضمن استقالته اذا كانت اقتراحاته لن تنفذ ، كما تضليق من ستيورات لانه لم يبلغ بارنج بارسال الزبير مع قوة بريطانية الى بربر ، فأبلغه بأن الصغوبة ليست فى القاهرة بل فى لندن (١٠٣) .

وكتب جوردون فى اوراقه بأن بارنج اتهمه باذاعة سسر البرقيات المتبادلة والخاصة بتعيين الزبير فى السودان ، وقد صرح بأنه تعمد ذلك لينتقد حكومة جلالة الملكة من الغضب الذى تعرض له من وراء هذه الخطوة . وقد نتج عن اذاعة جوردون هذا النسر زوبعة من الاحتجاجات على تعيين الزبير ، ليس فى انجلترا محسب بل كان سببا فى زيادة الصعوبات الخاصة بمفاوضة الزبير نفسه بعد أن كان بارنج فى موقف يمكنه من طلب الزبير باثما ، وانهامه بأنه كان غارقا حتى ذلك الوقت فى سحابة دكناء حجب سيرة ، وأن الفرصة سنحت لاستعادة اعتباره وخبرته ، وأصبح هو فى مركز يتيح له امعلا شروطه على بارنج ، والواقع أنه تلقى النصيح فى القاهرة بفعل ذلك ، من أولئك الكثيرين الذين كانوا ينتظرون أية فرصة تمكنه من اظهار عداوته لانجلترا وهذا ما قاله بارنج (١٠٤) .

أما بالنسبة للأمر الذي أحدثه أمتضاح هذا السر فقد أرسل
المستتر سييرج رئيس جمعية محاربة الرق الى اللورد جرانفيل في
١٨ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه مكلف من قبل الجمعية التي انعقدت
بكمال هيبتها لإبلاغكم أن أى وضع تضع فيه الحكومة هذا الشخص
وهو الزبير يكون تحقيرا لانجلترا وفضيحة لأوربا ولكن هذا التصرف
من هذه الجمعية ، كان عملا غير حكيم ، فلاشك أن هذه المعارضة
الى جانب الحقيقة التي تدل على أن المسألة استغلت حزبيا في
انجلترا ، تسببت في رفض آراء كل من بارنج وجوردون
ومستورات (١٠٥) .

وقبل أن تعرض برقية جسرانفيل ردا على برقية بارنج
المؤرخة في ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، يجب أن نشير للمكاتبات
والبرقيات التي طارت بين جوردون وبارنج في ٩ و ١٠ و ١١
مارس سنة ١٨٨٤ م ، ففي ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م أبرق جوردون
لبارنج مخبرا أباه بأنه سينتظر رأيه بشأن الزبير ، فإذا كانت
الاسلاك البرقية مقطوعة فسيمتبر سكوته موافقة على اقتراحه ،
ويبقى في الخرطوم منتظرا الزبير والاستعراض البريطاني في
بربر ، وقد كان لا يزال هناك بعض الأمل في أن يسمح بالانتفاع
بالزبير ، ولكن بالنظر الى احتمال اضطراب المواصلات البرقية مع
الخرطوم في أية لحظة ، لم يكن عدلا ولا لائقا أن يدع بارنج الأمل
يداعب جوردون ، بأن الحكومة تنوى إرسال حملة الى بربر ، لذلك
فقد أرسل له بارنج يجيبه في الحال على برقيته بأنه حسب عليه
لا تنوى الحكومة إرسال قوة انجليزية الى بربر (١٠٦) .

وفي ١٠ و ١١ مارس سنة ١٨٨٤ م تلقى بارنج طائفة أخرى
من برقيات جوردون ولكنه أشار فيها الى أن الشيخ عبيد لم يقرر
بعد الانضمام للمهدي أم لا ، وأن الفائدة المرجوة من استخدام
الزبير قد نقصت كثيرا بسبب تأخير البت في مسألة تعيينه ، بها

أضطر الموالين له إلى الانضمام للعدو . وبما قتله جوردون في برقيته : « .. إذا كانت الحكومة البريطانية مصممة على عمل الاستعراض العسكري البريطاني في بربر وتعيين الزبير والاحتفال بوضعه في الخرطوم يستحق هذا العمل بقاءه في الخرطوم وبالعكس إذا لم تقرر الحكومة هذه الخطوات ، فإنه لا يرى فائدة من بقاءه لأنه يستحيل عليه مساعدة الحاميات الأخرى ، ويتسبب فقط في التضحية بجميع الجنود والموظفين هنا ، واستتورد جوردون في برقيته يقول : « أنه يرجو أن تقبل حكومة جلالة الملكة استقالته من بعثته ، وأنه سوف يأخذ جميع المخزونات والسفن إلى مديريات خط الاستواء ومديريات بحر الغزال ، حيث يعتبرها كأنها تحت حكم ملك بلجيكا ، وسوف يمكن في هذه الحالة نقل جميع الموظفين المصريين والجنود البيض من بربر إلى دنقلة ثم وادي حلفا ، ويكون هذا هو الرأي النهائي لجوردون ، وهذا في حالة تصيهم على الجلاء الناجز عن الخرطوم .. » .

وقد أجاب جرانفيل على برقية بارنج المؤرخة في ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، وفي ١١ مارس بما يأتي : « .. بحثت الحكومة برقيتك المؤرخة في ٩ مارس بعناية فيما يتعلق بحكومة الخرطوم والسودان مستقبلا ، ولكنها تعتبر أن الأجوبة على الاستفسارات الخاصة بتعيين الزبير غير شافية .. وفي ختام البرقية شرح الحلول التي يمكن أن تقدمها الحكومة البريطانية في سبيل اتمام الانسحاب .

وفي ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل برقية إلى كرومر جاء فيها « .. تود الحكومة أن تعلم إذا كان جوردون يقصد باقتراحه أن الذي يخلفه على السودان كله أم لا ، وإذا لم يكن ذلك غاية مراكر يخلفه عليها ؟ وهل سلطة هذا الخلف تمتد إلى نقط يمكن أن تكون مراكر تساعد تجار الرقيق وسياديه

على مزاولته نشاطهم « نقل بارنج فحوى هذه البرقية ، وطلب منه البقاء في الخرطوم حتى يتصل ثابته بالحكومة الانجليزية ، وحذره من الذهاب الى بحر الغزال والمديريات الاستوائية بأية صورة من الصور ، ويبدو أن جوردون لم يتسلم هذه البرقية ، وقد ندم بارنج فيما بعد على ارسالها بهذا المعنى ، فقد كان من الأفضل كما قال بارنج أن يترك له الحرية في الذهاب جنوبا . وكان من الأنسب لبارنج أن يقبل النتيجة التي تدل على أن الحكومة سمحت على عدم استخدام الزبير باشا ، علو كان جوردون اعلن قبل ثورة القبائل بين بربر والخرطوم عن قرب الاحتفال بتعيين الزبير باشا حاكما عاما على السودان مع جنود من السود يكونون تحت تصرفه للمحافظة على النظام لكن من المحتمل ألا ينضم الشيخ عبيد واتباعه للمهدى ، وبذا أفلتت الفرصة من جوردون ، ويبدو من برقيتي جرانفيل المؤرختين في ١١ و ١٢ مارس أن مسألة تعيين الزبير لم تبحث بعد ، لذلك فقد أرسل بارنج الى جرانفيل ملخصا لبرقيات جوردون الأخيرة واجاب بانفاضة على الأسئلة التي وجهها له كما أرسل له برقية خاصة جاء فيها : « . . اذا قررت في النهاية ارسال الزبير ، ارجو ابقاء القرار سـرا اذا أمكن حتى أتحدث اليه هنا ، فقد بلغنى أنه لن يذهب الى الخرطوم الا اذا جاء جوردون الى القاهرة خشية اتهامه اذا حدث لجوردون مكروه » ، ولعل اعلان جوردون لمسألة تعيين الزبير أمر مؤسف للغاية ، لأن مراسلى الصحف يترددون على هذا الاخير بينما يحضه بعض الناس في القاهرة على املاء شروطه باعتباره الانجليز لا تستطيع السير بدونهم ، وهذا كله يجعل مسأومته شاقة . فاجاب جرانفيل بارنج في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م بما معناه أنه يرفض اقتراح جوردون بتعيين الزبير أو ارسال جنود بريطانيين الى بربر ، ويترك لجوردون حرية البقاء في الخرطوم لاتامة حكومة مستقرة أو الرحيل عنها .

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج يخبره :
 « بأن الوزارة اجتمعت مرتين ولم يكن جلاستون حاضرا ،
 فكان هناك انقسام في الرأي عن وجود او عدم وجود منافع للزبير ،
 ولكن أعضاء مجلس العموم مجتمعون على أنه لا توجد حكومة من
 الأحرار أو المحافظين تستطيع تعيينه ، أما مسألة إرسال جنود
 إلى بربر فهي صعبة جدا فقد تؤدي إلى مناعب لا نهاية لها » .
 وقد أجاب بارنج على برقية جرانفيل المؤرخة في ١٣ مارس ، وقد
 استعرض في هذه البرقية تعليمات الحكومة إلى جوردون وتعليمته
 عليها إلى أن وصل « .. ومن الناحية الأخرى إذا كان القصد
 مجرد تأجيل اقتراح استخدام الزبير بضعة شهور أخرى ، فبأنى
 يؤكد أن هذا التعمل لا يسهل مأموريته ، بل على العكس من ذلك
 اعتقد أن مشقة إقامة حكومة مستقرة تزيد ولا تنقص .. » .
 وقد أشار أيضا إلى الرأي القائل بالجلاء الفوري من الخرطوم ،
 والالتجاء إلى بربر وصعوبة تنفيذ ذلك ، وأشار إلى إمكانية التفتت
 دون تعرض جوردون ومسئوريات لاي خطر ، وأبدى موافقته
 المطلقة على مقترحات جوردون بخصوص سحب الحاميات ،
 واعداد حكومة مستقلة كذلك قوله بعدم وجود خلف له غير
 الزبير ، وفي نهاية برقيته أشار إلى عدم وجود من يخلف الزبير
 والأسس الخاطئة التي تقوم عليها الآراء السائدة ضده ،
 والصعوبات التي ستظهر إذا ما تم تعيينه (١٠٧) .

تطور الأحداث ، والنتائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام الزبير :

تطورت الأحداث وتتابع بعد ذلك بصورة خطيرة ليس من
 اليسير على أولى الأمر في مصر أو بريطانيا ضبطها أو العمل
 على وقفها بأي صورة من الصور ، ففي الوقت الذي وصلت
 فيه الرسالة سالفة الذكر إلى جرانفيل التي عرض فيها بارنج
 تقويبه للموقف برمنه ، وصل من الأنباء ما يؤكد انضمام الشيخ ببيد

للمهدى وثورة القبائل ما بين بربر وشندي ، وفى ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل الى بارنج برقية يبلغه فيها بتمسك الحكومة الانجليزية بتعليماتها الموضحة فى برقيته المؤرخة فى ١٣ مارس ويخبره فيها « . . وبينما لم يتغير رأيها فى الزبير ، ويبدو أن فكرة انتظار النتائج الطيبة من وراء تعيينه تضمنت كثيرا . . » ، وقد كان واضحا أنه لا فائدة من الاستمرار فى هذه المكاتبات ، فالحكومة مصممة على عدم إرسال الزبير ، ولم يعد هناك شك فى انضمام القبائل ما بين بربر والخرطوم الى المهدي ، وأن الوقت المناسب لإرسال الزبير قد مضى ، لذلك أرسل بارنج الى جوردون فى ١٧ مارس سنة ١٨٨٤ م برقية يبلغه فيها بنتيجة مراسلاته مع جرانفيل ، واضاف اليها بعض الملاحظات التى جاء فيها « . . فى ظنى أن فكرة إرسال الزبير قد ثلاثت نهائيا ، وأن واجبك الآن أن تسير فى أعمالك كاحسن ما تستطيع ، وفى حدود التعليمات الواردة فى برقيات جرانفيل . . » . ومن المؤكد أن هذه البرقية لم تصله . وفى نفس التاريخ أرسل بارنج الى جرانفيل رسالة ذكر فيها عدم ضرورة الاستمرار فى مراسلاته بشأن الزبير (١٠٨) .

وقد بدأت الأحداث منذ ١١ مارس تجرى بسرعة بصورة قضت فى النهاية على كل أمل فى اخلاء الخرطوم . وفى الحادى عشر من مارس كان جوردون قد أبرق بن الثوار يشجعون فى حصار الخرطوم ، وفى نفس اليوم أبرق لشقيقته يخبرها بأنه ربما قد تكون هذه آخر رسالة يبعث بها لها نتيجة لتخرج الموقف . وفى ١٢ مارس قطع الثوار الخط التلغرافى ما بين الخرطوم والعالم الخارجى ، وقد كان ذلك مسببا فى أن جوردون لم يلق فى حينه البرقية التى بعث بها بارنج مع التعليمات المرسلة له من لندن بتاريخ ١٣ مارس ، ولا شك أن جوردون

كان لا يزال لديه الفرصة — برغم قطع خط التلغراف في ١٢ مارس وبداية الحصار على الخرطوم ، وكذا خلال شهر أبريل بأكمله وحتى منتصف مايو — للخروج من الخرطوم والنجاة بنفسه ومن معه عن طريق بربر . ولكنه أفسح هذه الفرصة في الفترة من ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م حتى ١٢ مارس ، ولم تصل إليه رسالة بارنج المؤرخة في ١٣ مارس إلا في ٩ أبريل عن طريق رسول خاص (١٠٩) .

وفي ٢٨ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج رسالة مطولة سرد فيها أسباب رفض استخدام الزبير ، وأشار إلى الاتهامات التي دأب جوردون في مناسبات مختلفة على ترديدها في أحاديثه عن الزبير ، كما أشار بشيء من الدقة إلى أن بارنج وستيورات سبق أن غيرا في آرائهما الأصلية تغييرا كبيرا في مراسلاتهما (١١٠) .

وفي ١٤ أبريل سنة ١٨٨٤ م أجاب بارنج ببرقية أشلر فيها إلى ما تضمنته رسالته السابقة عن مسألة تعيين الزبير ، وتعبيرها بصدق عن رأي الحكومة وجاء في نهايتها ما يأتي « .. فإذا تبسّر في النهاية الوصول إلى حل-أفضل من الحاول السابقة ، غائي أكون أول من يسلم بخطئه في اقتراح ارسال الزبير » (١١١) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن نفكر أنه في الوقت الذي رأى فيه جوردون أنه لا فائدة من استمالة المهدي ، فكر في انتداب الزبير باشا ليكون وكيلا له نظرا لأنه من رجال السودان العظام وله كلمة مسوعة وأقارب وأخوان ، فأرسل له برقية يقول له فيها « .. سعادة أفندم الزبير باشا بمصر نحن عينا سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان ، فيكون معلوم سعادتكم ذلك وعند حضوركم لبربر تخابروننا وتسعون لما فيه الاسـلاح بحضور

سعادتكم تنظرون فيما اذا كان يمكن ارسال وابورين لحضور سعادتكم ويجري ارسالها وسعادتكم تعملون ترتيب كنيية حضووركم للخرطوم بالوابورين المذكورين والاثنين الآخرين ببرير بواسطة أعمال دراوي من الحديد لوقاية ما بهم من العساكر من ضرب الرصاص وتحضرون ما هو لازم معكم من الجميلين وتعملون مقدما استكشافات بالطريق بدون مخاطر لسعادتكم انقدم « (١١٢) » .

فاجاب الزبير عليه في ١٦ ابريل سنة ١٨٨٤ م باللفغراف التالي « الى جوردون باشا بالخرطوم - قد تشرعنا بورود تلغراف سعادتكم المتضمن تعييننا من طرف سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان ونعرف سعادتكم اننا في غاية التشكر ونهاية المنونية من حسن التفات سعادتكم وجبيل توجهاتكم في سائر الاحوال ويسوعنى ان أعرف جنابكم مع غاية الاسف بأن الحالة الحاضرة لا تسعف الآن بالمرغوب وأرجو الله تعالى ان يديم سلامتكم ويتم نجالكم بما فيه الخير والصالح العمومي انقدم « (١١٣) » .

ولم يبخل الزبير باشا على جوردون بالمساعدة بناء على اوامر الحضرة الخديوية ، فقد أرسل في ٢١ مايو سنة ١٨٨٤ م بواسطة فضل الله أفندي ومحمد أبو جبالى ومحمد ولد رحمة خطابين الى عشائر السودانيين والقبائل المحاصرة والخرطوم يرجوهم فيها ادخال هؤلاء الثلاثة لمقابلة جوردون ، وطلب منهم أن يطلقوا له الحرية ويرافقوه حتى كرسكور في حقة ما اذا اراد المهاجرة ، ولكن كل هذه الجهود لم تفن شيئا ، وكان هذان الخطبان موجهين الى اعيان السودان لنصحهم لاطهار الطاعة والانضمام لجوردون (١١٤) .

ولقد كان لقطع المواصلات بين الخرطوم والعالم الخارجى اثره بى دفع الوزارة البريطانية فى التفكير فى ارسال حملة لانتقاذ جوردون تصل الى هناك فى نوفمبر ، فى حين يتولى جوردون الدفاع عن الخرطوم حتى هذا الميعاد ، وفى ١٩ مايو سقطت بربر ، وفى ١٢ يوليو ارسل جوردون الى القاهرة بانه يستطيع الدفاع عن الخرطوم لمدة أربعة اشهر ، ورغم انه اخذ فى خلال هذه الفترة الجهد لرفع الحصار والحصول على المؤن الكافية وتحصين العاصمة ، ورغم احرازه لبعض الانتصارات على قوات المهدي ، فان كل هذه المحاولات لم تفلح ، فقرر اخبرا ارسال ستيفورات لمصر لشرح الموقف واستعجال حملة ولسلى الا انه قتل هو ومن معه فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م قبل ان يصل الى مصر (١١٥) .

حملة الجنرال ولسلى :

عينت انجلترا الجنرال اللورد ولسلى قائدا عاما فى مصر ، واصدرت تعليماتها الى الجنرال ستيينسن قائد عام جيش الاحتلال البريطانى باعطائه كل معونة ممكنة ووصل اللورد ولسلى الى القاهرة فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م وكانت معظم القوات المصرية فى ذلك الوقت على الحدود ، عاملة على تحصين اسوان وكروسكو ووادى حلفا ، فاصدر ولسلى امره الى الجنرال وود سردار الجيش المصرى بالاضطلاع مع رجاله لبحث التسهيلات للحملة الجديدة ، وصل ولسلى الى وادى حلفا مصحوبا بأركان حربه فى يوم ٥ أكتوبر وقرر البقاء فيها لمدة شهر قبل سفره الى دنقلة . وفى يوم وصوله استلم تقريراً من الميجر كتشنر ، يذكر فيه أن الكولونيل ستيفورات - مساعد جوردون فى الخرطوم - قد ضرب بربر بقنابل مدعية احدى بواخره التى كانت تحمل

أربعين جنديا ، وأن البواخر الأخرى المصاحبة لها قد اضطرت الى العودة الى الخرطوم ، أما هذه الباقرة فقد اصطدمت بالشاطئ على بعد يومين من مروي ، واضطر رايكوبها للنزول منها ، مما نتج عنه قتل ستيوارت وصحبه بعد مهاجمة الاهالى لهم . كان من نتيجة ذلك أن وصلت تعليمات برقية من لندن بعد ثلاثة أيام الى ولسلى تشرح له أن هدف حملته الرئيسى هو مساعدة الجنرال جوردون على ترك الخرطوم ، فعليه أن يتجنب كل عملية هجومية بعد ذلك . ولقد أصرت هذه التعليمات على ضرورة تحديد ولسلى لعملياته الى أقصى درجة ممكنة ، وكان عليه أن يتذكر جيدا أن سياسة الحكومة البريطانية هي العمل على إنهاء سلطة مصر على السودان . كما أنها تقبل تعيين أحد الرؤساء الوطنيين — غير الزبير — للمحافظة على النظام ، وضمان حسن سير الملاحه فى النيل ، والمحافظة على السلم مع مصر ، ودفع الهجمات الموجهة ضدها من الثوار ، وعدم تشجيع تجارة الرقيق .

أمر ولسلى مدير دنقلة بالسير فى أقرب وقت ممكن صوب مروي ، ويعمل كل ما فى وسعه لكى يصل الى تحرير الأوربيين الذين قد يكونون قد وقعوا أسرى فى أيدى الاهالى هناك . وكان على هذا المدير أن يحاول اغراء رجال القبائل على افتداء الأسرى الأوربيين بمبلغ من المال . ولكن وقت العمل كان قد انقضى ، وأبرق ولسون فى يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م أن الاهالى قد رأوا جثتا نعيم فى النيل منذ ثلاثة أسابيع . وهكذا لم يكن فى استطاعة أى عملية حربية أن تنقذ هؤلاء الأوربيين .

وقد اعترضت عقبات كثيرة وجسيمة طريق النيل هذا ، فكانت الحملة تحتاج الى ٨٠٠ سفينة ذات فاطس مسطح لنقل الجنود حتى مروي ، وكانت تحتاج الى عدد كبير من الجمال لنقل

المهمات ولهام الاستطلاع فى الصحراء صوب الخرطوم ، ثم كان على المصريين أن يقوموا بجرها فوق الشلال . ويبدأ ركوب الجند فى السفن فى أول نوفمبر ولكن سرعان ما ظهرت مصاعب جديدة ، وهى نقص كمية الفحم اللازم لتسيير هذه السفن ، مما تسبب فى تعطيل جديد لمدة ثلاثة أسابيع .

وفى اثناء ذلك الوقت وصل الجنرال ولسلى الى دنقلة فى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م ، وقرأ فى اجتماع رسمى قربانا صادرا من الخديو وموجها الى المديرين والعلماء والقضاة والوجهاء والتجار وشيوخ القبائل فى السودان يعلنهم فيه أنه قد عين قائدا عاما للقوات البريطانية المرسلة للسودان ، وانه قد حصل على تعليمات من الخديو ، وصار من الواجب عليهم اطاعة اوامره .

ووصلت القوات البريطانية متتابعة الى كورتى ثم اصعد ولسلى امره الى الجنرال ستيوارت فى يوم ٣٠ ديسمبر بالتقدم فى الصحراء صوب شندى ثم صوب المتمة على النيل حيث كان يأمل أن يصل بعد اسبوع . ولكنه اشتبك وهو على بعد ٢٣ ميلا من هذه القرية فى قتال مع قوة من الثوار من بربر والمتمة وتم درمان ثلغ حوالى ١٠٠٠ رجل . ولكن هذه المعركة المسماة ابر طليح لم تمنع الانجليز من التقدم صوب الخرطوم .

وتسلم الكولونيل ولسون قيادة هذه القوة البريطانية المتجهة قرب النيل وشاهدت فى يوم ٢١ يناير سفن جوردون الاربع التى كانت قد حضرت لطلب الانتاذ والنجدة . ولكن الانجليز اضاعوا ثلاثة ايام فى سحب هذه السفن فوق الصخور فى الشلال السادس وما أن وصلوا الى قرب جزيرة توتى حتى تاكدوا من عدم وجود أى علم يرغرف على سراى الحاكم العام فى الخرطوم . وبعد قليل هاجمت نيران مدفعية الثوار السفن المصاحبة

للقوة الانجليزية . كانت الخرطوم قد سقطت في أيدي الثوار في يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ، ووصلت النجدة متأخرة .

أما الجنرال السير ايفيلين وود الذي كان قد استلم أوامر ولسلى — بعد مقتل ستيوارت وقبل وصول أنباء سقوط الخرطوم — لتنظيم انسحاب الجنود ، فإنه قابل القوة الانجليزية في منتصف الطريق عائدة من الخرطوم مؤكدة سقوطها في أيدي السودانيين . ولم يكن هناك أى مجال للقيام بأى عملية هجومية ، خصوصا انه لم يبق للانجليز الا ٣٥ جملا من ٢٢٠٠ . وكان على الجنرال وود أن يعنى بالجرحى وبمخازن الاهداد والتبوين بين رجال منهوكى القوى وفي حالة لا يحسدون عليها من الروح المعنوية وقد كان هذا الهجوم المضاد من جانب القوات البريطانية في شرقى السودان وشماله ، علاوة على تأثيرات امدادات حملة الانتقاذ مما ساعد على تقوية روح الكفاح عند أنصار المهدي وأدى الى سقوط الخرطوم في أيديهم ، كمرحلة نهائية في انتصارات الثورة (١١٦) .

وهكذا كانت نهاية تصميم وعناد الحكومة البريطانية — ممثلة في جلاستون وجرانفيل والسير ايفيلين بارنج في القاهرة — في عدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير في مساعدته في عملية الاخلاء بالسودان أو الموافقة على تعيينه حاكما عاما للسودان بعد خروج جوردون وستيوارت منها . ورغم تأييد الكثيرين من المصريين والانجليز أنفسهم لهذا الاقتراح ، ورغم البرقيات الكثيرة التى تبوطلت بين القاهرة والخرطوم من جهة وبين لندن والقاهرة من جهة أخرى بخصوص هذا الاقتراح ، فإنه لم ينق صدق لدى السياسة الانجليزية وكان اعتراضهم على ذلك هو أن الزبير أولا وقبل كل شيء تاجر رقيق ، وليس من المنطق أو اللائق تعيينه في مثل هذه الوظيفة أو طلب مساعدته لجوردون في المهمة التى وكلت اليه في السودان . رغم أنه لم يكن هناك حل

بديل لهذا الاقتراح ، كما أن الحكومة الانجليزية كانت تخشى عند تعيين الزبير أو الاستعانة به في السودان أن يقوم بالانتقام من جوردون لمقتل ابنه ، وهذا من الأسباب الظاهرية التي تحجج بها سياسة الانجليز لعدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير . لأن السياسة البريطانية في ذلك الوقت كانت تهدف إلى إبعاد عن ذلك وهو إقصاء النفوذ المصري عن السودان بأية وسيلة ، ولو كان ثمن ذلك حياة جوردون ومستقبأرت ومن معها من المصريين والأوربيين على السواء . ولم تكن حملة ولسلى سوى خطوة اتخذتها الحكومة الانجليزية من جانبها ، حتى لا يقال أن انجلترا قد تركت قائدا من أبنائها دون أن تهب لانتقاذه كما كان الهدف منها اظهار روح التعاون في مسورة مزيفة للخديو في مصر بأن انجلترا حريصة على عدم تقدم مصر للسودان . وقد ترتب على عدم الأخذ باقتراح تعيين الزبير باشا حكمها هابا للسودان أو الاستعانة به في عملية الاخلاء النتائج الآتية :

أولا : ضياع الوقت الذي كان في الامكان استغلاله للقيام بعمل عسكري مخطط لتنظيم عملية اخلاء الحاميات المصرية في السودان بجميع مديرياتها .

ثانيا : فشل حملة هيكس باشا ووقوعها في شرك قوات المهدي وكان من الصواب عدم ارسالها في هذا الوقت ، وإلى هذا المكان (كردفان) لأن هزيمتها كانت سببا في تقوية شوكة المهديين واضعاف القوة الدافعة للاستمرار في عملية سحب الحاميات المصرية من السودان .

ثالثا : تقلص النفوذ المصري رويدا رويدا عن مديريات السودان حتى انتهى إلى الخرطوم التي كانت هي الأخرى عرضة لزيوال النفوذ المصري منها بين لحظة وأخرى .

رابعاً : فقد مصر لاعداد هائلة من جنودها وموظفيها نتيجة عدم التخطيط الجيد لعملية الاخلاء أو الأخذ بالنسب الحول وهو تعيين الزبير باشا فى عملية الاخلاء ذاتها .

خامساً : مقتل كل من ستوارت ومن معه قبل أن يصل الى القاهرة لشرح الحالة على المسئولين بها كى تسرع الحملة الانجليزية فى التقدم لانقاذ الخرطوم .

سادساً : مقتل جوردون باشا قبل أن تصله حملة الانقاذ بعد أن ضيق عليه الساسة الانجليز الخناق من جميع التواحي ، فكما كان يقترح كانوا هم يرفضون دون بديل لمقترحاته ، حتى اقى مصيره المحتوم على ايدي المهديين .

سابعاً : بروز مكانة واهمية الزبير ومسيط هذه الأحداث وظهوره بمظهر الرجل المنتقذ الذى لا غنى عنه فى جميع الأحوال .

ثامناً : القضاء نهائياً على النفوذ المصرى فى السودان . يستوطع العاصمة الخرطوم فى ايدي المهديين ومقتل جوردون وفشل حملة ولسلى .

تاسعاً : يضاف الى ما سبق من نتائج رئيسية أنه كان هناك نتائج جانبية أو فرعية أهمها فقد الحكومة المصرية للكثير من الأموال ، والأسلحة والخاثر ، والسفن وما الى ذلك من المخزونات التى كانت توجد بالخرطوم وعواصم المديریات .

وهكذا كما رأينا النتائج التى ترتبت على عدم الأخذ بالتقترح جوردون باستخدام الزبير وهى ولا شك كان لها تأثيرها الواضح على الموقف السياسى والعسكرى فى كل من مصر والسودان وما جاورها فى ذلك الوقت . ولو أن الحكومة البريطانية لم تتشدد وتصر على عنادها ، لكانت النتائج التى سبق ذكرها عكس .

ذلك ، ولكن لم يكن هناك من سبيل الا أن تتقبل الحكومة المصرية هذا الوضع على مضض منها نتيجة الضغوط السياسية الذي مارسته عليها بريطانيا ممثلة في معتمدها السفير ايفيلين بارنج (كرومر) وما تبع ذلك من احتلالها العسكري لمصر .

ما بين مؤيدي ومعارضى استخدام الزبير فى السودان :

وقد كان هناك الكثير من كانوا يؤيدون اقتراح استخدام الزبير فى السودان وكذلك كان هناك القليلون الذين يعارضون ذلك ، الا أن المنطق والصواب يقران استخدام الزبير فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ السودان ، لأنه لم يكن هناك من حل آخر للخروج من هذه الأزمة التى تفككت فى ذلك الوقت . وسوف نعرض هنا لأراء من تناولوا هذا الموضوع فى المعالجة التاريخية من مؤرخين وسياسيين سواء من المصريين او الاجانب .

كتب السياسى المعروف ونستون تشرشل يقول فى هذا الموضوع : « .. يجب على مؤرخى المستقبل أنفسهم فى تقرير ايهما كان على حق او على باطل ؟ جوردون ومؤيدوه أم الحكومة الانجليزية ؟ والذى يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن مهتمة فعلا بهذه المسألة حينئذ فى هذه الحالة ليس لديها هناك أى سبب أو حق فى ثنويتها الفرصة على الزبير » . وفى موضع آخر يقول : « .. وكان رفض السماح بتميين الزبير باشا بمثابة قبول أو التسليم بأن شئون أو أعمال السودان كلها هى فى المقام الاول تمس شرف انجلترا كما أنها تدس شرف مصر .. ويرفض السماح للزبير باشا للذهاب الى السودان بدأ نزاع طويل يتخلله نوع من اليأس بين الحكومة ومؤيديها ومعارضيه ، وكان من الواجب على الأطراف الفرعية التى لها صلة بالموضوع أن تقترح حلولاً أخرى

عندما أوصى هؤلاء برغض طلب الزبير رغم أن جوردون ومن معه كانوا يضعون الخطة تلو الخطة بقصد عدم فقد الأمل في الوصول إلى حل مناسب ، ولكن الطرف الآخر وهو الحكومة البريطانية اتخذ موقفا عكسيا يتسم بالصلف والعناد تجاه هذه المشكلة . . « (١١٧) » .

ونخرج بنتيجة مؤداها أن ونستون تشرشل — وهو رجل به ثقله في عالم السياسة — كان من مؤيدي الأخذ بأحد الحلول التي اقترحها جوردون ومن أجهبا استخدام الزبير بلثا ، وليس رغبها جميعا دون أدنى سبب لذلك ، وقد عاب كبا رأينا موقف حكومته المتشدد من جهة عدم قبول تعيين الزبير في السودان دون النظر لمصلحة مصر وانجلترا من وراء تعيينه .

ومن الآراء التي عرضت بشأن استخدام الزبير ما كتبه د . جلال يحيى بقوله : « . . بدأ الجنرال جوردون مهمته في الخرطوم دون أن يظهر من بعد النظر مثل ما اظهره بمساعدة الكولونيل ستيوارت ، فاعتقد منذ وصوله للخرطوم أنه جاء إلى السودان محررا ، ولكن سرعان ما تبلور شعور 'السودانيين نحوهم وشعر هو بالاتجاه الطبيعي لهذا التبلور ، فاضطر إلى تغيير اتجاهه بشكل يجعل منه أكثر تطابقا مع أوامره التي استلمها من لندن . وسرعان ما شعر جوردون بتلك الحمى التي سادت السودان في ذلك الوقت حقيقة أن جنوده كانوا من المصريين والسودانيين ، ولكنه كان أجنبيا قبل كل شيء . وكان جوردون يعتبر بالنسبة لتلك الجماعة من الثوار — الذبن كانوا يأسفون على الغاء تجارة الرقيق — أكبر عدو قديم ، واخذ اتجاه الثورة الديني يزداد وضوحا بعد وصول جوردون المسيحي . شعر جوردون إذن بنوع من العزلة النفسية ، وشعر أنه لن يقدر على عمل أي

شيء بمفرده ، فأخذ يطلب من الحكومة الانجليزية فى كل يوم طلبا جديدا ويقتراح عليها اقتراحا خاصا .

وكان اقتراح جوردون الخاص بارسال الزبير هو اكثر الاقتراحات التى ألح عليها ، ولم يكن يهدف من هذا الا الى تأكيد فصل السودان عن مصر ، وتأكيد سيطرة انجلترا على شئون السودان . وقد استطاع فى هذه المسألة أن يكسب تأييد السير ايفلين بارنج ، وهو من اعتبرته انجلترا خبيرا فى الشئون السودانية ، وكان هذا فاتحة لتأييد آخرين من المسئولين البريطانيين فى القاهرة . وهكذا نرى أن مستيوارت الذى كان مترددا فى هذا الموضوع يصبح المنادى بتنفيذ هذه السياسة ، مثله فى هذا مثل نوبار ، وسيؤيد السير ايفلين بارنج جوردون فى هذا المشروع كل التأييد وسيؤسف من الاسف على رفض الحكومة البريطانية له . . . »

وفى موضع آخر يقول : « . . ووجدت الحكومة البريطانية نفسها فى موقف حرج ، وخاصة ازاء الراى العام البريطانى ، واحتجاجات جمعية منع تجارة الرقيق . وكان جوردون قد بدأ باعادة تجارة الرقيق فى السودان ، وأخذ يطلب بارسال الذى كان أكبر تاجر للرقيق فى الاقاليم السودانية . ولم تكن الحكومة البريطانية مستعدة للتفكير فى هذه الامر ، وكانت ترفض كل مسئولية تنتج عن ارساله . . . »

وفى موضع آخر يقول : « . . واخيرا فإن فكرة ارسال الزبير الى الخرطوم قد رفضت نهائيا ، وكان هذا الرفض اليات سببا فى نشوب الخلاف بشكل نهائى بين حكومة لندن ومبعوثها فى الخرطوم ، فاعتقد جوردون بأن حكومته تريد فرض راىها عليه ، وأن تحرره من حرية الحركة ، وتقطع عليه خط التراجع ، واعتقد

أن رفضها الموافقة على إرسال الزبير لاخلاء الحاميات من السودان يعرض عليها مسئولية إنفاذه هو في وقت قريب . وإذا كان على الحكومة البريطانية أن تحدد مسئولياتها ومسئوليته هو ، فلم يكن عليها إلا أن تقبل استقائته من هذه المهمة ولكن شيئا من هذا لم يقع ، وقد جوردون سيطرته على أعصابه ، ولكنه بقي في الخرطوم مدعيا أن شرعه الشخصي يحرم عليه التخلي عن عهد بهم إليه (١١٨) .

حتى السير ايفيلين بارنج بعد مضي عدة أعوام يرى أن استخدام الزبير كان أمرا واجبا ، ولو لم تضع الحكومة البريطانية العراقيل التي تمنع استخدام الزبير وقت إرسال برقية جوردون الأولى في ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م لتغير سير الحوادث ، ولو أيد مستورات جوردون مرة واحدة لاضطر بارنج للاستسلام للاحاق جوردون في طلب إرسال الزبير ، وهو الطلب الذي كره الموافقة عليه في الابتداء ، ولأمكن سفر الزبير في نهاية فبراير أو أوائل مارس ، ومن الجائز أن أعلن سفره كان سوف يمنع القبائل المتأرجحة في موقفها حول الخرطوم من الانضمام للمهدي . ولكن الفرصة المواتية أفلتت سريعا ويقضح ما حدث بعد بحث للمسألة امتد الى أسبوعين وهو أكثر من المدة الضرورية لبحثها ، وحتى لو خضعت الحكومة البريطانية وقت انتهاء المراسلات في منتصف مارس لما أمكن عمل شيء مفيد بعد غوات الفرصة ، وقد كتب لورد نورثبروك لبارنج يبلغه بأنه يعتقد بأنه لو أرسل الزبير الزبير لكان إرساله رمية من رميات مقلر ، وأن جميع الاحتمالات كانت توحى بانقلاب على جوردون ، وأن من شأن توطيد سلطته أن يكون خطره على مصر أكثر من الخطر الذي تتعرض له الآن ، والرأي الذي انتهى إليه لورد نورثبروك كان ضد الزبير ، ولو أن

بارنج كان يرى أن الفسائدة من تعيين الزبير تتأرجح على تلك
المجازفات عند الموازنة مع عدم تعيينه (١١٩) .

وفي ٢١ مارس سنة ١٨٨٥ م أرسل جرانفيل الى بارج
خطابا يبلغه فيه بأنه كان هناك تشكك كبير في الآراء حول استحقاق
الزبير لإرساله الى السودان ، ولم يكن شيء من هذا القبيل بالنسبة
للتصويت في مجلس العموم . فقد حدث أن ثلاثة من الأعضاء
المؤيدين للزبير لم يذهبوا عليه ويوافقوا على اقتراح لوم الحكومة
المقدم فقط بل طلبوا برفض اقتراح إرسال الزبير في الحال .
لما جلاستون فقد قال في مجلس العموم في يوم ٢٢ فبراير سنة
١٨٨٥ م ، أنه لو وافقت الحكومة البريطانية على إرسال الزبير
عندما طلب منها ذلك ، لكان أي خطاب يرسله هذا المجلس
الى الناج كلفيا لشغل حركة الوزارة قبل مضي ٤٨ ساعة ،
وبرغم أن قرار الرفض كان نتيجة لرأي الوزارة وحكم أعضائها ،
فانه حكم البرلمان وحكم الناس أيضا على المسألة . ولا شك
أن أكثر هذا الدفاع صحيح لولا وجود الاختلاف البين بين الحكومة
من جانب والبرلمان والجمهور في الجانب الآخر فالأولى كانت على
علم بالحقائق ، والجانب الآخر يجهلها الى حد كبير ولو تم تعيين
الزبير لكان من المحتمل أماكن تهاوى وتوقع كارثة بالخرطوم ، فإذا
كان بارج على رايه هذا فالمسئولية الرئيسية واقعة بالطبيعة
على الحكومة التي يرأسها جلاستون وكانت العدالة تقضى
بتسوية هذه المسئولية بين البرلمان الاتجليزي والشعب
وخصوصا جمعية محاربة تجارة الرقيق ، وبالرغم من ذلك وحتى
مع افتراض عدم الخطأ في تقدير الحقائق يجب التسليم بأن أي
حكم غير صائب في مسألة بالغة الصعوبة كهذه المسألة يستحق
الفحص عليها على الأقل (١٢٠) .

ويمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى عدم استخدام الزبير فيما يلي :

أولاً : الموقف المتعنت الذي اتخذته جمعية مقاومة تجساسة الرقيق تجاه الزبير ، وإثارته للرأي العام البريطاني من طريق الصحف ، وكذلك الحكومة البريطانية ممثلة في جلادستون وجرانفيل .

ثانياً : سياسة المراوغة التي مارسها الحكومة الإنجليزية تحت رئاسة جلادستون وجرانفيل في الإجابة على المقترحات والطول التي كان يقترحها جوردون ، ويبلغها إلى المسؤولين في الحكومة الإنجليزية من طريق السير اينيلين بارنج في القاهرة ومماثلة الحكومة في اتخاذ رأي حازم وصريح في أي منها .

ثالثاً : الضغط الذي مارسه الحكومة الإنجليزية على الحكومة المصرية لكي تمنعها من أن تتخذ أي قرار من جانبها تراه ضرورياً لانتقاد الموقف في السودان ، وعلى الأخص الأخذ بمقترح استخدام الزبير الذي لم يكن هناك حل بديل له لانتقاد الموقف .

رابعاً : عدم ثقة الحكومة الإنجليزية في المقترحات والآراء التي اقترحها جوردون حلاً للموقف الشائك في السودان ، مما جعلها تستغرق مدة أكثر من اللازم للتأكد من صحة مقترحاته هذه ، مما جعل الموقف في السودان يسير من سيئ إلى أسوأ حتى أفضت زمام حل الموقف من يديها في النهاية .

خامساً : السرية التي فرضتها الحكومة الإنجليزية وساستها على البرقيات والمكاتبات المتداولة بينها وبين بارنج من ناحية وبين بارنج وجوردون من ناحية أخرى حول اقتراح استخدام الزبير في السودان أو تعيينه حاكماً عليها ، مما جعل الرأي العام البريطاني والصحافة البريطانية تجهل حقائق الموقف ، وحقيقة

شخصية الزبير المؤيدة لتعيينه في منصب الحاكم العام ، والتي لو عرفها الشعب والصحافة لكان بالامكان ان يتغير الموقف لصالح الزبير ولصالح كل من الحكومة المصرية والبريطانية والسودان ذاته ، وفي نفس الوقت انتفاذ جوردون من الموقف المتخرج الذي اوقعه فيه سياسة حكومته المتقوية .

سائسا : كثرة ما اقترحه جوردون من خطط وافكار الواحدة تلو الاخرى دون التمسك باحد هذه الحلول ولو لمدة وجيزة حتى يتم البت فيها ، مما جعل المسؤولين من الانجليز يتشككون في ايها يصلح للخروج من هذه الازمة ، كما اتهم كانوا ضد فكرة ارسال حملة لانقاذ جوردون وتعيين الزبير . وعلى كل فقد ايد كل من السير ايلين بارنج وستيوارت ونوبار باشا والحكومة المصرية الاقتراح الخاص بتعيين الزبير حاكما على السودان لانقاذ الحاميات المصرية اولا ولانشاء حكومة مستقلة في البلاد بعد رحيل جوردون عنها ، وذلك عن اقتناع بمنطق الحقائق والواقع الحي للمشكلة دون ائني تحيز ، ولكن كان لكل طرف من هذه الاطراف بعض التحفظات التي اشترطها لاستخدام الزبير او اى حل آخر لانقاذ الموقف في السودان .

نفي الزبير باشا الى جبل طارق سنة ١٨٨٥ م :

انتهينا الى ان اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم قد نجحوا في مساعدتهم من اجل العمل على انهيار اقتراح جوردون باستخدام الزبير في السودان بعد ان وضعوا املهم ما شاموا من المراكيل في طريق هذا الحل ، واغلقوا جميع المنافذ دون ان يطرحوا حلا بديلا لاقتراح استخدام الزبير . او ابداء اسباب رفضهم لهذا الاقتراح ، او الاخذ باحد الحلول التي اقترحتها جوردون وستيوارت .

للخروج من الموقف المأزوم ، بل رفضوها جبيها وتركوا جوردون ومساعدته سقيورات وحيدتين يصارعان المهدي وجيوشه بما لديهم من امكانيات لا تذكر ، الى ان انتهى الامر بمصرع سقيورات اثناء توجهه الى مصر لاستعجال حملة الانتفاذ ، ومقتل جوردون في النهاية بعد تمكن المهديين من دخول العاصمة الخرطوم ، وفي اثناء وجود ولسلي وحملته في دنقلة تم ضبط اربع خطابات قيل انها من الزبير باشا ارسلها لاحد المشايخ في اسوان لتسليمها للمهدي ، فبعث ولسلي ببرقية الى بارنج في القاهرة بهذا المعنى لكي يأمره بالقبض على الزبير باشا ، وعند عرض هذا الموضوع على الخديو ونوبار باشا لم يوافقا على ما جاء ببرقية ولسلي (١٢١) .

وقد ترتب على ذلك ان اشاع المفرضون من اعداء الزبير ان الهدف الاساسي من المكاتبات التي تم ضبطها والمرسلة من الزبير للمهدي ، هو التهديد لهروب الزبير الى السودان لكي يشارك المهدي في ثورته وقيادتها ، ثم العمل بعد ذلك معا للزحف على مصر ، وهكذا افلح الواشيسون في وشايتهم وتم القبض على الزبير (١٢٢) .

لم تلبث الاوامر ان صدرت الى ثوات البوليس في مساء ٢١ من يناير سنة ١٨٨٥ م بمحاصرة قصر الزبير بالقلي (١٢٣) ومهاجمته لتفتيشه ، والبحث عما يثبت لهم اتصاله بالمهديين ، فلم يعثروا بعد عملية تفتيش دقيقة على شيء يؤيد دعواهم هذه ، فعادوا وان كانوا لم يكونوا بعد ذلك عن تحين الفرصة المناسبة للقبض عليه وابعداه عن القاهرة . الى ان كان صيف نفس العام عندما دعاه الشيخ عمر السنوسي احد العلماء المغاربة ، وكان يقطن بالاسكندرية ، لقضاء اشهر الصيف هناك ، فقبل الزبير الدعوة فمسافر الى الاسكندرية ونزل شيفاً عليه . وفي صباح احد

أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٥ م طلب مقابلة الزبير أحد الضباط
الانجليز ، وبعد مقابلته أبلغه في رقة ولطف أن قائد السفينة
انديا - India - وكان قد تعرف عليه الزبير من قبل في
دار محافظة الاسكندرية أثناء زيارته له - يدعو ل تناول قدح من
الشاي على ظهر السفينة في الساعة الرابعة من بعد الظهر
فقبل الزبير الدعوة شاكرا ، ومضى الى هذا الميعاد دون أن يدرك
ما الذي تخبئه له الأقدار من وراء هذا الكرم المفاجيء من القائد
الانجليزى ، وهذه الدعوة غير المنتظرة ، وبعد أن فرغ الاثنان من
تناول أقداح الشاي وتبادل الأحاديث ، تاهب الزبير لمضادة
السفينة ، عندئذ تلاحظ للزبير أن السفينة قد بدأت ترفع مراسيها ،
وتضى بهم متجهة نحو عرض البحر . أدرك الزبير المفزى من وراء
هذه الدعوة ، ثم تلفت الى القائد الانجليزى كأنما يسأله تفسيراً
لهذا الاتلاع المفاجيء ، عندئذ تقدم قائد السفينة نحوه وأبلغه في
رقة انه قد أصبح أسيره منذ تلك اللحظة ، وأن الأوامر قد صدرت
إليه بنقله الى جبل طارق (١٢٤) .

وكان السير ايفلين بارنج - بعد أن رفض كل من الخديو
ونوبار باشا فكرة القاء القبض على الزبير - قد أمر المصاكر
الانجليزية بالقبض عليه في منزل الشيخ السنوسى بالاسكندرية
كما تم القبض على ولديه ، وأرسل الجميع الى جبل طارق (١٢٥) .

بعد أن وصلت السفينة الى جبل طارق نزل الزبير ومن معه
بمصر الملكة فكتوريا بالجزيرة ، وتضى الزبير في هذا المنفى ما
يقرب من العامين ، ولم يسمح له بالعودة الى القاهرة الا في سنة
١٨٨٧ م (١٢٦) .

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الزبير باشا قد أمضى
في الأسر فترة ثلاثين شهراً ، وفي مقال كتبه أحد الضباط

الانجليز الذين كانوا على اتصال بالزبير باشا أثناء فترة أسره بجبل طارق « ١٨٨٥ م — ١٨٨٦ م » أن الزبير قد أقام في مقر محافظ جبل طارق الصيفي (١٢٧) .

وفي خلال الأسهر الثلاثة التي قضاهما الحارس مع الزبير رأى الكثير ، فكتب عن الزبير أنه أمثاد أن يقص عليه كيفية سير المظاهرات التي قام بها في أوليات حياته في بحر الخوالا ، وعندما توطدت العلاقة بين الاثنين أخذ يحدثه عن المسودان والجنرال جوردون والمهدى وتجارة الرقيق وباشاوات القاهرة ونظام العوائد والضرائب وطريقة الحكم في وطنه بطريقة ملؤها الحماسة . وقد كانت هذه الأحاديث تتميز بنوع من الجدية والحقيقة ، وكان ينقلها بترجمة خبيثة رجل يدعى حامد (١٢٨) . وقد كانت اقامة الزبير بجبل طارق طوال فترة أسره تكلفه مبلغا يصل الى مائة جنيه في الشهر ، ورغم ذلك كان يعاني من نقص الأموال ، وقد كانت مسألة ترك الزبير بهذا الوضع السيء دون ابداء الأسباب لذلك غير مرضية ، فهو لم يقدم للمحاكمة لجريمة أو جنائية ارتكبها ، كما أنه لم يتم الامراج عنه . وقد كان هذا هو السؤال الذي رفعه العديد من مواطني جبل طارق ، الذين كانوا يسائلون أنفسهم في هذا الوقت لماذا لم تطبق وسائل العدالة على الزبير ؟ وكان من الصعب الا تصدق أن السبب كان معروفا في حالة عرابي ، ولكن كان الأمر مجرد شك وحكم على أشياء سابقة يمكن التماحها بالزبير (١٢٩) .

وفي أثناء اقامة الزبير بجبل طارق زاره في أحد الأيام السير جوى آدمي ، وطلب منه أن يكون مستعدا لحضور اجتماع مهم يستدعي في قاعة الاجتماعات بالتقصر في اليوم التالي . وفي الموعد المحدد اجتمع المؤتمر بحضور الحاكم ، وياور خاص لجلالة الملكة ، وبعض

الضباط الانجليز والمترجمين ، وبدأ الحديث بسؤال الزبير في مسألة قبول الحكم في السودان مستقلا عن حكومة مصر . وقد كان اقتراحا غريبا بالنسبة للزبير لم يسمعه الا أن يرفضه رفضا باتا ، فلم يكن على حد قوله : « . . تاريخ أسسرتنا منذ عام ١٨٢١ م — أى منذ بدء اتصال ولائها بأسرة الحكم في مصر — لا يقبل هذه الخيانة أو عرضا لحكم السودان عن طريق الانجليز » . وكان من الواضح أن الانجليز يريدون أن يجيب الزبير بالاجاب ، ويجعلوا منه أجيرا لمصلحتهم ، فلما اشتد الجدل حول هذا الأمر غادر الزبير الاجتماع غاضبا ، وأبى أن يخوض في شئون بلاده مع هؤلاء الانجليز (١٣) .

وكتب جاكسون عن الزبير عندما كان يتناقش معه في الدور الذي لعبته بريطانيا من أجل إرساله الى جبل طارق بقوله له : « . . أنت انجليزى غير متفهم أو مدرك ولكك سطحي بسيط . بالضبط » وقد كان الزبير دائما يرجع فضل اطلاق سراحه من جبل طارق الى السير وينجت . وفى إحدى المناسبات أعطى جاكسون تعبيرا طموحا يدل على اعترافه بالجهد تجاه السير وينجت (١٤) .

ويصف المستر سدنى لو الزبير عندما تعرف عليه حديثا بقوله انه ذكى وبشوش وشفيق وجنتلمان ، فقد تجاذب معه الحديث بعد تناول طعام الغداء في أحد الأيام في مقر الحاكم . ويضيف المستر سدنى لو في وصف الزبير بأنه كان رجلا يبدو عليه سمات العظمة ، فارغ الطول نحيل الجسم ، وكان دائما يلبس الطربوش وأحيانا العمامة ، وفى بعض الأوقات كان يرتدى قميصا من السلك ، كما كان ينسم بالصراخ والوضوح ، ولكنه نادرا ما كان يرتدى الزى العربى ، وفى بعض الأحيان كان يرتدى زيا أزرق اللون ينتمى الى عصر الامبراطورية الثانية ، ولكنه فى

العادة كان رداؤه أسمر اللون أو بلون الخردل ونى بعض الأحيان يرتدى جاكيتا ضيقا أسود اللون وسروالا مخططا وساريا . من الجلد . وهذا شرتقيا بالونما ، وكان فى ردايه هذا أشبه بالأوروبي الذى لم تكتمل مدنيته ، وكانت يداه مرسومتين بدقة حساسة ذات أصابع طويلة جدا وقديماه نحيفتان طويلتان أيضا . أما بلامجه فكانت سوداء جدا وغريبة حقا على ذلك اللون الأسمر ، وكانت جبهته بارزة تشبه الجمجمة يبدو الجلد منها مشدودا والعينان فائرتين لا يكاد يبدو لهما بريق ، ولم يكن يتزين بأية مجوهرات باستثناء خاتم شاحب اللون غير شفاف كان قد أحضره معه من بحر الغزال ، وقد منحه للبستر مدنى لو عندما غادر جبل طارق .

وقد كان الزبير نائرا ما يخرج من مقره الى الأرض المحيطة لأنه لم يكن يشعر بالابتهاج فى هذه المنطقة التى حددت فيها أقالمه أو بالنسبة للظروف المحيطة به ، ولكن خطواته كانت تتصف بالسرعة والانسحاب والتى نسميها بحركة الحصان ، وقد كان هناك وداع حزين بين كاتب القتال والزبير أراد الزبير أن يسجله بقوله :

« لقد أضحيت رجلا عجوزا وأصبحت من الآن لترقب الموت ، ولكننى قبل أن أموت أحب أن أرى بلادى التى شهدت أيام صباى تنعم بالسكينة والسلام ، وأن أرى التجارة تزدهر مبر النيل من أقصاه الى أدناه قد لا أعود الى وطنى ، ولكن أذا ما تيسر ذلك فأتنى سأعمل على تقديم النصيحة التى أعطيها الآن لشعبى الذى سيبارك ويذكر اسمى بكل ما هو طيب لائنى لا أرغب فى أن أكون عظيما ، فسوف أنال ما أستحقه من دعوات فى قبرى بعد موتى بزمان طويل ولو أنهم استخفوني لعمل أى شىء فأتى ساكون مسرورا وسيكون ذلك شينا طيبا ، وإذا لم أعد بلا مائدة فان ذلك أيضا شىء طيب ، ولكن دعنى ومائلتى نرحل من القاهرة الى السودان فسوف أذهب الى إحدى المدن المقدسة مكة أو المدينة أو القدس . وهكذا أغضى بقية أيامى .. » (١٣٢) .

كانت هذه آخر كلمات الزبير وهو يودع صاحب هذا القتال
والحارس لآخر اقامته ، وقد رأينا كيف انها تميز من نفس صناعية
لا يلموها الحق أو الضغينة على أحد بل كانت هذه النفس فريسة
لأن ظنوا به سوءا دون أن يحبل لهم هو أى كراهية رغم ما فعلوه
معه .

وقد اعتاد الزبير أثناء فترة اسره ان يسلى نفسه بترديد
بعض القصائد من الشعر يجد فيها وحدته ، ولذا للتفريج من
نفسه ، وبعد أن أمضى هذه الفترة الطويلة فى الأسر وتأكد
المستولون من برأته ، أو على وجه الصواب زال السبب الذى
أخافهم من بقاءه فى القاهرة ، فى الوقت الذى بلغت فيه المهديّة
أوجها فى السودان ، فأخلى سبيله وسيسمحوا له بالعودة الى
القاهرة ، فبلغها فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٧ م وتشرف بمقابلة
جناب الخديو محمد توفيق الذى شمله بمعطفه وأعداه عربية فاخرة
تجرها الجياد ، وسينا أثريا نقشت عليه كلمة الحروب الصليبية
ورمع مقبضه بالذهب والماس (١٢٢) .

هوامش الفصل الرابع

- (١) د. س. جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) : جوردون باشا
من ص ٦٧ - ٦٨ .
- Churchill, W. : The River War P. 17. (٢)
- Sparrow, G. : Gordon Mandarin P. 120. (٣)
- Churchill, W. : Op. Cit., P. 17. (٤)
- Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P. 99 (٥)
- (٦) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر في أثناء القرن
الداسع عشر ج ١ ص ٩٤ .
- (٧) صاري نصوص : وفيها ألقى الجيش المثنائي تحت قيادة السردار
محمد علي باشا بالجيش الروسي تحت قيادة البرنس الكسندر ولي عهد قيصروسيا ، الذي كان قد تحصن في هذه المدينة وكان الزبير قد عهد له بقيادة إحدى
فرق الجيش المثنائي ووكّل اليها في هذه المعركة مهمة القيام بالهجوم على
الحصون التي بنيت بقصد فتح ثغرة فيها كي يستطيع منها الجيش المثنائي ان يتدفق
خلال الجيش الروسي . وكانت خطوط العدو متينة ، فحاول الزبير بفرقة ان يثاق
من هذه الحصون بالهجوم عليها بالمواجهة فلم يستطع . الا انه في فجر اليوم
التالي بوجيء الأعداء والنوم يراعب أجنالهم برجال الزبير وهم يدخلون لاجلهم
حقوقا من الخيل كان الزبير قد أمر بأن تولد صهواتها بالقش وأن تضم فيه
النار ، فلما أحست الخيل بالنار فوق ظهرها مضت تمعو وتنب ورجال الزبير من
ظلمها بوجودها نحو صفوف الأعداء ، الذين ما لبث الهرج والمرج ان وقع بينهم
من جراء هذه المفاجأة ، فانتهر الزبير هذه الفرقة وقلد الى المعركة بكل قوته
فلم يبق وقت ظلم حتى كان قد استطاع زحزحة الجيش الروسي عن مواقعه

ولفتح الثغرة المشدودة في صفوفهم ، نظم يليث الجيش العثماني أن تتلقى من خلفها واحتملت المعركة ، واستمر القتال الى ما بعد منتصف الليل وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني بفضل شجاعة ودعاء الزبير .

(٨) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان من ١١٤ - ١١٥ .

(٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ١١٩ - ١٢٢ .

Genl. R. : Seven years in the Sudan P. 305. (١٠)

(١١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق من ٩٤ .

(١٢) عبد الرحمن زكي : نفس المرجع من ٩٤ .

(١٣) السيد بك حسين : أحد مستلحق الجيش لدى جوردون وكان من

هبل يعمل نفاسا مع ابن الزبير ، وهو من قبيلة الجيملاب . ولما استقبله جوردون ولاه مديرية شكا ، ثم خرج على الحكومة ولكن تم اخضاعه وجيء به الى الخرطوم وانعم عليه جوردون بعد ذلك برتبة الميربحران الرابعة مع لقب باشا وعينه قومندانه على جنود اليانصيبوزق وجعل حسن ابراهيم وكيلاً له .

(١٤) "دريس ايفر" : كان من اتباع والد سليمان وعقب سجن جوردون له نصيحة وشافته سليمان تمكن من استئصال فصل المانيا بالخرطوم نظير ألف جنيه ، فأبرق لجوردون يخبره بان ادريس ايفر قد سجن ظلياً ، وأنه يرى ما نسب اليه . وكان فصل المانيا من اخس اصنفاء جوردون ويثق به ثقة مبياه ، فخرج من ادريس وعينه مديراً لبحر الغزال والتبس له من انجذاب العائل الرتبة الثالثة ، وأمام هذا الاجراء الذي اتخذه جوردون لم يسمح ابراهيم فوزي باشا الا أن قدم استغلقته لجوردون محتجاً باعتلال صفته ، فقبلها كما أنه رآها فرصة لأن يرشيه بمعيته حاكماً على اقليم خط الاستواء وانعم عليه برتبة الأبرالاي والوسام الجيدى الثالث .

(١٥) ابراهيم فوزي باشا : من الشخصيات العسكرية المصرية في السودان ، وقد كان له دوره في أحداث بحر الغزال وثورة سليمان ، ورافق جوردون وسلاوات باشا أثناء توجههما للخرطوم في ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ م لتطهير الاغلاذ ، وبعد ذلك هبى عليه وسجن بعد سقوط الخرطوم ، ولكن فُرج عنه بعد ذلك حين أسسنا بعد دخول الجيش المصري الإنجليزي أم درمان سنة ١٨٩٨ م .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ١٢٤ - ١٢٦ .

Genl. R. : Op. Cit., PP. 116, 181 - 182. (١٧)

(١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ١٣١ - ١٢٢ .

Jackson, H. : Op. Cit., P. 100. (١٩)

- (٢٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ١٢٤ - ١٢٥ .
 Genet, R : Op. Cit., P. 340. (٢١)
 (٢٢) محمد مهري : الإمبراطورية السودانية في القرن الخامس عشر
 من ٨٢ .
 (٢٣) شوقي عطا الله الجبل (دكتور) : تاريخ السودان وادي النيل ج ٢
 من ص ١٨٤ - ١٨٦ .
 (٢٤) شوقي عطا الله الجبل (دكتور) : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٦ .
 (٢٥) شرار صالح شرار تاريخ السودان الحديث ص ٩٢ .
 (٢٦) سواكن : وهي تقع على البحر الأحمر وهي عبارة عن جزيرة تحيطها
 بهل ونصف هول ، وهي مدينة تجارية قديمة العهد هي تربط السودان بالبحر
 والهند ومصر ، ويربطها بالسودان طريق بربر ، وقد اعتنقها السلطان مسلم
 العثماني سنة ١٥٢٦ م فظلت تابعة للدولة العلية بقولها حكام من قبل وإلى العجايز
 إلى أن تنازل الباب العالي عنها لصر سنة ١٨٦٦ م .
 (٢٧) عثمان ذقة : أصله من أفراد نهار بكر الذين حضروا إلى سواكن
 مع السلطان مسلم الفاتح، واختلطوا بالهندوه وكان منهم قبيلة الفتاوى . وقد
 ولد في سواكن ونشأ بها واشتغل بالتجارة مع السودان والعجايز بالرفيق ، ولما
 منعت الحكومة تجارة الرفيق ساءت حاله وسجن مرة أخرى في جند مع أخيه
 بسبب اتجارها بالرفيق وجندا علم بالدموة الهندية اعتقد فيها وآمن بها وبات
 عليها ، وكان يعرف اللغة العربية ولغة الهندوه والبجة وكان شهما شجاعا مهيأ
 وقد عينه المهدي أميرا على السودان الشرقي .
 (٢٨) جلال يحيى (دكتور) : مصر الأنوية والأطباع الاستعمارية في
 القرن التاسع عشر ج ٢ ص ٤٢٦ .
 (٢٩) شوقي عطا الله الجبل (دكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٧ .
 (٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ١٩١ - ١٩٢ .
 (٣١) مسيز سارثوريوس : وهي زوجة الكولونيل سارثوريوس مساعد بوكو
 بأبنا فقد حلة سواكن .
 (٣٢) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ١٩٢ .
 (٣٣) ترينكت : برقا على سواحل البحر الأحمر .
 (٣٤) جلال يحيى : (دكتور) : المرجع السابق من ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .
 (٣٥) جلال يحيى (دكتور) : نفس المرجع من ٢٠٢ .

(٣٦) انظر تفصيل ثورة بلنبا في أول الفصل .
(٣٧) د . م . جاكسون : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسبح) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣٨) محمد مبري : المرجع السابق ص ٨٥ .
(٣٩) رؤوف باشا : (١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ — ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م) خلف جورجون وصفر الأمر العالي بعمينه في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٧ هـ الموافق ٢٧ مارس ١٨٨٠م وقد باشر رؤوف باشا جميع الأعمال التي نيطت به مهمة ونشاط وأهتم على وجه الخصوص بتحديد اللغات وتعميق الأبحاث وكان آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية .

(٤٠) بكى شبكة : (مكتور) : السودان في قرن ١٨١٩ — ١٩١٩ م من ص ١٢٩ — ١٢٠ .

(٤١) زاهر رياض (مكتور) : السودان المماسر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ص ١١٩ .

(٤٢) محمد مؤاد شكري (مكتور) : مصر والسودان (تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ م) من ص ٣١٢ — ٢١٥ .

(٤٣) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٤٤) حمد شبيب : (مكتور في نصف قرن) من ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٤٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٤٦) Moorhead, Alan : The White Nile PP. 223 — 226 .

(٤٧) Crabtree, P. : The Sudan and slavery PP. 200 — 202 .

(٤٨) جلال يحيى : (مكتور) : المرجع السابق ص ٤١٨ — ٤٢٠ .

(٤٩) مزار صالح شرار : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٥٠) الشلار بوصيلي : معظم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٧٦ .

(٥١) Moorhead, Alan : Op. Cit. P. 224 .

(٥٢) الشلار بوصيلي : المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٥٣) بكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٥٤) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ص ٢ من ١٨٨ .

(٥٥) بكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٥٦) تقدم أن الحكومة المصرية لما بلغها خبر هلاك حملة هكس في شوكان قر رأيها على إخلاء السودان عليها عرض هذا القرار على وزارة إسماعيل باشا للتصديق عليه قدم الوزراء استعفاءهم من الوزارة لمشكلة وزارة أخرى برئاسة ثوبار باشا في يناير سنة ١٨٨٤ م وعرض القرار عليها بمسحته ونسب لهذه المهمة عبد القادر باشا فاعتذر لأنه كان يقيمنا الفيل بغير إيجد . عندئذ لها جورجون نحضر للقاء في ٢٥ يناير ١٨٨٤ م وتشرف في اليوم التالي بمقابلة الخديو ، فصدر له نوبتاً بتوليته حكمها فاجابا بموعدها على السودان ولما آخر يتفهم الفرض الذي نسب له وهو الإخلاء ونحوه ، أن الفرض من إرسالهم إلى السودان أرجاع الجنود والموظفين المصريين والتجار إلى مصر وذلك مع حفظ النظم في البلاد بإعادتها إلى سلالة الملوك الذين حكموا قبل الفتح المصري ولما يزيد الثقة انكم تحفظون الطريق لأنهم هذه المهمة طبقاً لرغبتنا والسلام .

(٥٧) الكولونيل ستوارت : الذي قدم تقرير عن السودان في سنة ١٨٨٣ م وهو الذي صاحب جورجون بعد ذلك إلى الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤م في مهمة إخلاء السودان ، ثم قلته النوار المخبرون عند قرية حبة في طريق عوفته مع آخرين إلى مصر بالقرب من أبي حيد في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م بعد ثباتية إيلم فقط من مخالفتهم الخرطوم .

- (٥٨) زاهر رياضي (دكتور) : المرجع السابق ص ١٢٥ .
- (٥٩) جلال يحيى (دكتور) : المرجع السابق ص ٤٢٠ - ٤٢١ .
- (٦٠) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .
- (٦١) كرومر : (تعريب عبد العزيز أحمد) : بريطانيا في السودان ص ٢٠٥ .
- (٦٢) غرايز صالح شرار : المرجع السابق ص ١٤٧ .
- Churchill, W.: Op. Cit., P. 88. (٦٣)
- (٦٤) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- Churchill, W.: Op. Cit., PP. 88 - 89. (٦٥)
- (٦٦) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- (٦٧) محمد مبري : المرجع السابق ص ١١٢ .
- (٦٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٠٥ -

١٠٦

- (٦٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : ص ١٠٦ - ١٠٧ .
- (٧٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٠٧ .

- (٧١) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
 (٧٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٠٩ .
 (٧٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١٠٩ - ١١١ .
 (٧٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
 (٧٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
 (٧٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
 (٧٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
 (٧٨) علي إبراهيم عبده (مكتور) : المفهومة الدولية في أعلى التل
 ١٨٨٠ - ١٩٠٦ م ج ١ ص ٨٩ .

- (٧٩) اللورد نورفولك : وزير البحرية البريطانية في حكومة جلادستون .
 (٨٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ص ١١٢ -

- ١١٧ .
 (٨١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١١٨ - ١٢٠ .
 (٨٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٠ - ١٢١ .
 (٨٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١٢١ - ١٢٢ .
 (٨٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
 (٨٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
 (٨٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٣ - ١٢٤ .
 (٨٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٤ .
 (٨٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٤ - ١٢٥ .
 (٨٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ص ١٢٥ - ١٢٦ .
 (٩٠) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكشفتر ج ١ ص ٢٠٠ .
 (٩١) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم () .
 (٩٢) انظر ملحق الوثائق المنشورة رقم () .
 (٩٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
 (٩٤) إبراهيم فوزي : المرجع السابق ج ١ ص ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .
 (٩٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ص ١٢٧ -

١٢٨ Moorehead, Alan : Op. Cit., P. 219.

- (٩٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ص ١٢٨ -

١٢٩ .

- (٩٨) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوفيقة رقم)
- (٩٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢٩ —
- Churchill, W. : Op. Cit., P. 43. (١٠٠) ١٢١
- (١٠١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢١ —
- Moorehead Alan : Op. Cit., P. 250. (١٠٢) ١٢٢
- (١٠٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢٢ —
- (١٠٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٣ — ١٢٣
- (١٠٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٤ — ١٢٥ . ١٢٤
- (١٠٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٤ — ١٢٥ .
- (١٠٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٤ — ١٢١ .
- (١٠٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤١ . كذلك .
- انظر ايضا ملحق الوثائق المنشورة الوفيقة رقم () .
- (١٠٩) محمد نواز شكري (مكتور) : المرجع السابق من ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .
- (١١٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٤١ — .
- ١٤٢ .
- (١١١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤٣ .
- (١١٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ من ٢٦٩ .
- (١١٣) أحمد شفيق : نفس المرجع ج ١ من ٢٧٠ .
- (١١٤) أحمد شفيق : نفس المرجع ج ١ من ٢٧١ .
- (١١٥) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق من ص ١٢٩ — ١٢١ .
- (١١٦) جلال يحيى (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٤٥ — ٤٤٨ .
- Churchill, W. : Op. Cit., PP. 44 — 45. (١١٧)
- (١١٨) جلال يحيى (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٣٢ .
- (١١٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢٤ .
- (١٢٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٢٥ —
- (١٢١) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ من ٢٧٦ . ١٤٧

- (١٢٢) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٠ .
 (١٢٣) وكان الزبير قد انتقل اليه بعد ان اهداء اياه جناب الخديو تومني
 باشا سنة ١٨٨٠ م .
 (١٢٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٠ .
 (١٢٥) احمد شوقي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٦ .
 (١٢٦) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٩ .
 Ribblesdale, Right H. : Conversation with
 (١٢٧) Zobetr Basha, at Gibraltar P. 1.

— مقر المحافظ الصيفي : وهو المستقل عن المقر الحكومي والكائن على
 المنحدر الجرداء ما بين منطقة Europa Point وخليج Calalas
 المطل على الخليج ، وكان هذا المقر في حراسة ضابط من الحامية كانت مهمته
 ادارة شئون المنزل في الحدود التي تسمح بها الاتفاقيات المتلحة للزبير باشا ،
 وكذلك المصروفات الاخرى ، ومن مهامه ايضا تسليم رسائله من افراد محددين وان
 بعد رغبته في حدود الامكان . كان هذا العمار هو صلب هذا القل ، وقد
 قلته السير جون آدري بهذه المهمة بصنة خاصة ، وكان العمارم يقيم مع الكتيبة
 الثالثة في غرفة الأسلحة منذ ديسمبر ١٨٨٥ م . وقد تعمل هذه الواجبات التي
 كلف بها الي ان تظلي عنها في العاشر من مارس ١٨٨٦ م عندما عاد الى وطنه
 في الاجازة .

(١٢٨) حديد : جاء هذا الرجل الى انجلترا كحارس شخصي لتسليم لور
 فرس بحر يزور شواطئ انجلترا ، وتعلم الانجليزية في مدرسة — Roads —
 The Borough ، وقد كان غالبا ما يتنقل في قمص الرجال المتوحشين والحيوانات
 المتوحشة في بحر النزال ودارفور . وقد عمل كترجم للزبير طوال مدة اُسره بجبل
 طارق .

- Ribblesdale, Right H. : Ibid. P. 4. (١٢٩)
 . سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٢ .
 Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 107. (١٣١)
 Ribblesdale, Right Hon : Op. Cit., P. 15. (١٣٢)
 (١٣٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .



الفصل الخامس

الزير باشا رحمة في نهاية حياته

الزبير باشا رحمة في نهاية حياته

بعد عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق بعد أن قضى به قرابة العامين أسيراً دون أن يركتب أى خطأ يبرر نفيه ، سوى ما أشاعه حوله الواشون من أنه حاول الاتصال سرا بالمهدى عن طريق المراسلات ، مما دعا المستولين فى القاهرة من الانجليز الى ابعاده ريثما تهدأ الأوضاع ، وتستقر الأمور السياسية والعسكرية فى السودان ، وتنجلي حقيقة الموقف . وما زالت هذه الأسباب التى كانت سبباً فى نفيه الى جبل طارق حتى سمحوا له بالعودة ، فكانت عودته الى القاهرة بعد هذا النفى هى بداية لنهاية حياته السياسية والعسكرية ، التى بدأت بمعاهدته مع عرب الرزيقات ، وانتهت فوق منحور جبل طارق . وعند عودته أحس أن الحوادث قد سبقته بسل خلفته وراءها ، وأن دوره السياسى قد انتهى فعلاً ، فاستكان لهذه النهاية التى أرادت لها الأقدار(١) .

وقد صارت حياة الزبير بعد ذلك خالية من المتاعب السياسية طابعها الهدوء المطلوب لرجل انتهكت الأحداث السياسية والعسكرية على مدى فترة طويلة من حياته .

عاش الزبير بعد عودته من منفاه فى قصر الجيزة بالقرب من القاهرة ، وكان يقوم بين الحين والآخر بزيارات للسير ايفلين

بارنج • وكان يطالب اللورد كرومر أثناء حديثه معه بأن يحاكم أمام محكمة على الجرائم التي ظن المسؤولون أنه ارتكبها تأكيداً لبراءته ، أو منحه قدراً كبيراً من المال كتعويض له عن الفترة التي قضاها في منفاء بجبل طارق ظلماً (٢) •

وقد كان هذا المطلب مثار خلاف بينه وبين الحكومة في مصر لم ينته إلا بعد وفاته ، ولم يكن الخلاف حول مسألة تعويضه سبباً يمكن أن ينغص حياته الهادئة التي وجدها في القاهرة ، فقد التقى به ونستون تشرشل وكان شاباً صغيراً في طريقه إلى معركة أم درمان ، في القاهرة بعد عدة سنوات ، وكان يلبس معطفاً من الفراء وحذاء لامعاً ويحيط به جو من الثراء والسلطة (٣) •

تعويض الحكومة المصرية للزبير مادياً :

امتد الخلاف في مسألة تعويض الزبير مادياً منذ جاء إلى مصر لمقابلة الخديو اسماعيل لأول مرة في سنة ١٨٧٥م حيث تقرر يومئذ حجزه في القاهرة وعدم السماح له بالعودة إلى السودان ، فقررت الحكومة في نفس الوقت صرف مبلغ مائة جنيه شهرياً له كمرتب ثابت مع صرف مرتب آخر لعائلته في السودان ، فلما صادر جورديون أمواله وتجارته في السودان عقب ثورة ابنه سليمان كما تقدم ، أصّر الزبير على أن ترد له هذه الأموال التي لم يكن لجورديون الحق في مصادرتها ، مادام لم يثبت عليه اشتراكه في هذه الثورة أو التحريض عليها ، ولكن طلبه هذا رفض ، فاضطر أن يرفع أمره للقضاء مطالباً الحكومة المصرية بأمواله المصادرة ، وبمبلغ يزيد على المليون جنيه قيمة ما أنفقه في فتوحاته بالسودان، وكتعويض له عن مقتل ابنه (٤) • وقد ترافع عنه في هذه القضية السير ماريوت لدى الحكومة الانجليزية بقصد تحصيل هذا المبلغ فلم يفلح ورفضت القضية رفضاً نهائياً (٥) •

وعندما رأت الحكومة المصرية أنه قد ان الأوان لتعويض رجلها هذا ، قرر مجلس النظار فى أول مايو سنة ١٨٨٢م ضم ما يصرف لعائلته فى السودان الى مرتبه مع منحه خمسين جنيها شهريا كتعويض ، ليبلغ جملة مرتبه مائتى جنيه شهريا على أن يكون صرف ذلك اليه مدة حياته ، ومن بعده تصصرف لأولاده وأزواجه بحسب القسمة الشرعية بحيث أنه عند وفاة أحد منهم يصير قطع ما كان مربوطا له كما هو مذكور بصورة الأذن الصادر من المالية للروز نامجة فى العشرين من مايو سنة ١٨٨٢م . وقرر مجلس النظار أيضا فى جلسته المنعقدة فى الثامن من نوفمبر سنة ١٩١١م رفع هذا الرتب الى ثلاثمائة جنيه أى بإضافة مبلغ مائة جنيه (كمنحة لمساعدته بصفة شخصية محضة علاوة على مرتبه اعتبارا من أول نوفمبر المرقوم بشرط ألا يتوارث من بعده) . ولم يكن هذا المبلغ الضئيل ليكفى لاحتياجات الزبير ومن معه ، وهو الذى اشتهر بالكرم وحب العطاء طوال حياته ومما يذكر بهذه المناسبة ما رواه بعض الكتاب « من أن أظهر صفاته الكرم والشجاعة وحب للفخر والسلطة » . وقد اشتهر كرمه منذ كان ملكا فى بحر الغزال ، فقصده الكثيرون من أهل البيوتات فى السودان الذين خانهم الدهر فآزال كربتهم وخرج ضيقهم ، وقد ذكر الزبير فى بعض مجالسه المبالغ الكبيرة التى أخذها قومه وهو فى بحر الغزال ، فبلغ مجموعها نحو العشرين ألف جنيه ولم تزل دأره الى الآن (١٩٠٠م) مقصدا عامرا لمن خاذه الدهر وغذلته الأقدار من أهل السودان المصرى والغربى . والزبير بطبعه أبى النفس ، سهل الجناب ، قوى الإرادة ، قريب الى الخير ، بعيد عن الشر ، محب للعلم وأهله ، غيور على الاسلام والمسلمين مع مصالحة الذين على غير نيته وهو لم يزل فى معيشته المنزلية من الأكل والشرب والملبس على نحو ما كان عليه فى السودان ، ولكنه اذا خرج لبس الطربوش لباس الافرنج (٦) .

حياته فى القاهرة واتصالاته برجال الحكم وكبار العلماء :

استقر الزبير بعد عودته من المنفى بقصر الجيزة (٧) على مقربة من القاهرة ، ومن ثم بدأ سريعا يندمج فى تيار الحياة العامة ، ويوالى اتصالاته بكبار رجال الدولة ومشاهيرها من العلماء والأدباء ورجال الجيش والحكم ، وكان هو بصفته محبا للمعلم وأهله ، فصار دأره مسرعا للمناقشات والندوات العلمية والسياسية من جانب المقربين إليه ، فشارك فى هذه الندوات الكثير من الشمرء الذين مدحوه فى مصر والسودان ، فأجزل لهم العطاء ومما يذكر عنه أنه شارك بقدر كبير من المال فى طبع بعض الكتب الدينية بليدين (٨) .

ولم تمض على اقامته بقصر الجيزة مدة كبيرة حتى تركه الى حلوان الذى لم يلبث أن طابت له الإقامة فيها بعد زيارته للسودان سنة ١٩٠٥م ، فابتنى لنفسه قصرا فيها ليقضى بقية عمره . وكان الزبير كثيرا ما يمضى وقته متنزها فى حديقة قصره ، أو الخروج فى عربته الفاخرة الى شاطئ النيل بحلوان ، أو الى ميدان سباق الخيل بالمدينة الذى انشاء وأجرى فيه عشرة من أجود الخيول العربية الأصيلة ، أو بين رياض الجزيرة الغناء ، أو الذهاب الى قصر عابدين حيث يستأنن فى الدخول على سمو خديو مصر عباس حلمى الثانى ، فيلقاه جنابه الكريم بالبشر والترحاب ، وقد كان الزبير أثناء اقامته بمصر كثيرا ما يقتضيه الواجب من زيارات للأصدقاء والاخوان والمشاركة فى الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، فإذا ما أقبل المساء عليه اضيئت الأنوار فى دأره ، وفتحت حجرة الاستقبال لتلقى الضيوف الأعزاء عليه أمثال عبد القادر باشا حلمى حكامدار السودان وأفلاطون باشا وعثمان غالب باشا محافظ القاهرة ، والشيخ سليم البشرى وصالح باشا صبحى وحسين باشا

لهوذي ، وحسين باشا مري ، وجودة بك ، واحمد الحسيني بك ، وغيرهم من الأصدقاء الذين أنستهم عشتوتهم أهل السودان ، فيتسامرون مما ويستزيدون من أخبار السودان التي يرويها لهم(٩)

وقد حفلت الكثير من المراجع بقدر كبير من المناقشات والندوات التي عقدت مع الزبير سواء في مصر أو السودان في آخريات حياته ، فعلى سبيل الذكر نذكر لنا جاكسون جانبا من هذه المناقشات فقد سأل ذات مرة بقوله لماذا اختارك جوردون لأن تعود معه الى السودان ؟ وقد كنت تاجر رقيق بينما جوردون كرس سنوات عديدة من حياته لكي يضع نهاية لتجارة الرقيق في السودان ؟ وهنا اجاب الزبير بقوله « ربما في الحقيقة قد فعلت مثلما فعل جوردون لكي اقضي على تجارة الرقيق ، ومن نفسي لم ارسل للقاهرة قط اى فرد سوا ' كان عبدا أو طواشيا (خصى) وعندما حرر جوردون جميع العبيد ، فانه فعل ذلك لكي يطلق سراحمهم أو يعطيهم حريتهم مع ان كثيرا منهم كانوا بعيدين عن اوطانهم كل البعد ، ولا يعرفون كيف يكتسبون معيشتهم في بلاد غريبة ، وأنا أعلم علم اليقين بأن تجار العبيد كانوا يهاجمون سكان السودان الجنوبي ، ثم يبعثون بهم الى القاهرة أو الى الشمال ، وللعلم فان مايربو على عشرة آلاف من هؤلاء العبيد قد ماتوا أثناء نقلهم عبر الطرق وذلك بسبب سوء المعاملة وسوء التغذية وكثرة ما استعمل معهم من الأساليب الوحشية . ولقد اعتاد جوردون أن يصنع أكواما من عظام هؤلاء العبيد في أماكن مختلفة خلال مروره لكي يسترشد بها ، ولكي تكون علامة على انه مر في هذا الطريق ، ويعتبر هذا استغافا بالحياة ومن يمتلك عبيدا يتطلع الى الوقت الذي يصلون فيه الى القاهرة ، وذلك لا لشئ سوى للعمل الذي لا يفتقر في منازل الباشوات والأغنياء بجانب أنني كرهت بشدة فساد وقسوة الحكومة المصرية ، وأرست ان أجمع أكبر عدد منهم ، وكان كل موظف مصري من حاكم

فأشودة الى أقل كاتب مقتنع بتجارة الرقيق ومنهمك فيها ، وعندما القيت القبض على بعض العبيد ، فبدلا من أن أقوم ببيعهم قمت بضمهم الى جيشى الخاص معطيا لهم أجورا ممتازة ، و حياة المغامرات التى يحيونها ويفضلونها ، وكثير من هؤلاء السودانيين الجنوبيين كانوا محاربين عظماء والكثير منهم انضم الى برغبته و ارادته الحرة ، ولم يكن لهم أن يفعلوا ذلك لو لم اعملهم معاملة حسنة وقد كانت جيوشى تصيب النجاح تلو الآخر لدرجة أن تجار العبيد وموظفى الحكومة أصبحوا غيورين منى ، ونتيجة لذلك ظلوا يرسلون تقارير كاذبة الى جناب الخديو يخبرونه فيها باننى انوى للقيام بثورة ضد الحكومة ، وعندما طلب منى الخديو الحضور الى القاهرة كتبت اليه قائلا باننى على اتم استعداد لذلك كما اننى كنت أرغب فى أن أتناقش معه فى أحسن الطرق لادارة الاقليم الذى غزوته بمساعدته ، وقد أخذ الزبير يسترجع فى أيامه الأخيرة بساطة طفولته الشائقة ، وكان الكولونيل برنارد (فيما بعد سير أديار) واحدا من الذين يحبون استضافة الزبير بأشأ بغرض الاكرام ، وكان دائما ما يلعب معه لعبة عادة ما كانت اثنتى عشر دورا لا يفضل حتى تسبب له سعادة غامرة ، وعندما كان الباشا يحضر لتناول الشئى يجد أريكة خاصة به غير مشغولة معدة لجلوسه ، وبمجرد جلوسه يبدأ فى لعب المواجهز المفتوحة ، وعندما بلغ الزبير الثمانين من عمره تقريبا ، وأصبح ضعيف البنية خائر القوى بحكم مرور السنين رفض أن يعتقد أنه أصبح رجلا هزما ، وفى محاولة لرفع مؤثرات الشيخوخة عن كامله كان يلجأ الى الكى بالأسياخ الحديدية المحمومة .

وكان الزبير كما وصفه جاكسون رجلا ذا عبقرية فذة فى التنظيم ، وكان عظيم الكرم الذى سبب قلقا بالغا للحكومة ، وقد أعطى معاشا كما سلف الذكر تمويضا له عن فترة أسره بجبيل

طارق ، ومع ذلك أثبت هذا الدخّل أنه غير كاف لرجل كان يعيش في بحبوحة أيام كان في جنوب السودان ، وكان العديد من الخدم يصفون إليه ، وكان هناك مجموعة من الفقهاء يجلسون خارّج حجرته يرتلون الأدعية والصلوات بدون انقطاع ، والحراس المسلّحون والأسود المقيدة بالأغلال تحرس منزله من التطفل ، ولم يحزن الزبير لحظه العاثر لهذا المعاش القليل ، وظلّ يجزل العطاء الى زواره في أم درمان (الجايلي) كما كان سخيّا مع الآخرين في الأيام الخوالي ، ولم يكن من المدهش أنه عندما انتقل الى رحمة الله ترك خلفه الكثير من الديون التي كان على الحكومة أن تدفعها ، وربما كانت مميزات شخصيته هي التي جعلته في الغالب عزيز القدر للذين يعرفونه جيّدا ، ويعرفون ثقته العالية في النظم الانجليزية ، التي خدمها بأخلاص وتفان حتى وفاته ، وبالرغم من الأحداث التي كان يجب أن تستفز أي رجل وتزلزل من أيمانه أو اعتقاده ، قابله سليمان قد أعدم بأوامر من جوردون ، وهو نفسه سجن في جبل طارق ولكنه رغم ذلك لم يحمل لبريطانيا أي حقد أو ضغينة بسبب ما ناله من قصاص غير مستحسن على يد الانجليز ، معتقد أنه عوقب لسوء فهم الانجليز وانخداع السلطات المصرية ، وكان دائما يشير الى فضل السير ونجت في اطلاق سراحه من جبل طارق . وقد حدث في سنة ١٨٩٩م أن قامت بعض الفرق السودانية بالتمرد بتحريض من المصريين ، ولكن الجنرال ونجت الذي كان كان قد عين لقوه حاكما عاما للسودان ، وسرداراً للجيش المصري نجح في حفظ الأمن والعمل على استتباب الأمور ، ولم يلبث ونجت بعد القضاء على المتمردين أن استلم الكثير من خطابات التهديد ، ولكن لم تلبث الأوضاع أن هدأت ، وحضر كثير من الناس ومعهم الزبير باشا الى محطة السكة الحديد لتوديع السير ونجت وحرمة عند سفرهم الى الاسكندرية ومنها الى ميناء تريستا ، وعند وصول

السير ونجت الى المكان الذى بجوار الرصيف الذى ترسو عليه السفن دهش لرؤية الزبير باشا يخف نازلا من العربية التالية لهبرته وكان هناك فى هذا اليوم حشد وازدحام غير عادى ، فطلب السير ونجت من الزبير باشا أن يسير معه ، وكان ونجت متصيرا جدا لوجود صديقه القديم على الدوام يتوسط بشخصه بينه وبين هذا الزحام ، وعند وصول السفينة شكر ونجت الزبير على مجيئه من القاهرة الى الاسكندرية لتوديعه مرة أخرى . وهنا أجاب الزبير بقوله « قد وصل مسامعى أنه كانت هناك محاولة تدبر لاغتيالك فى الاسكندرية ، ولكن اسألك الاعتذار لتوسطى بينك وبين حشود مستقبلك ومودعك ، ولكنى كنت عازما على ألا تصلك أى رصاصه قاتلة عدا التى تخترق جسمى » (١٠) .

كانت هذه احدى المناقشات التى دارت بين الزبير وجاكسون فى أخريات أيامه ، وقد تبينا من خلال هذا الحديث مدى الاقتناع القوي للكاتب بشخصية الزبير ، واكتاره من المديح والامراء له وعرض الصفات الطيبة التى كان يتحلى بها وما كان فى ماضيه السياسى والعسكرى فى السودان من مغامرات وصعوبات مع الحكومتين المصرية والانجليزية ، كما نستشف من هذا الحديث مدى اعزازه وحببه للسير ونجت الذى كان له فضل الامراج عنه عندما كان فى جبل طارق ويشير هذا الحديث ايضا الى مدى اخلاص الزبير للحكومة المصرية ووفائه لها عندما عرض عليه الانجليز فى جبل طارق تولي الحكم فى السودان ، كما أشار هذا الحديث الى مدى اخلاص الزبير للانجليز رغم ما فعلوه معه .

اتصال الفرنسيين بالزبير فى مصر :

حدث اثناء اقامة الزبير فى القاهرة وبالتحديد فى سنة ١٨٩٦م ان زاره سرا فى أحد الأيام بعض كبار الفرنسيين من أهسهاب

النفوذ في بلادهم ، وجلسوا معه الى ما بعد منتصف الليل بساعتين يحاولون اقناعه بالتوسط بينهم وبين رابع لعقد اتفاق لوقف الحرب الدائرة بينه وبينهم بسبب (برنو) التي كانوا يريدون الاستيلاء عليها ، أو يطلب منه الزبير الانسحاب منها بمقتضى الاتفاق الذي يتم عقده معهم ، وقد عرضوا على الزبير نظير ذلك مبالغ طائلة من المال ، كما أبدوا له استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه منهم دون أدنى اعتراض ، غير أن الزبير رفض قبول عروضهم هذه أو للتوسط بينهم وبين رابع . وذلك لأن الزبير كان قد نفى يديه من أمور الحرب والقتال ، وما يجرى في السودان منذ مصرع ابنه سليمان . وكان لذكر اسم رابع وأنباء الحرب والغزو رد فعل في نفسية الزبير جعلته يحس بریح حزينة تهب في صدره ، وتسود له موابك الماضي وذكريات أعوام طويلة قضاها بين رائحة البارود وحلاوة النصر من معركة الى أخرى . وقد كان آخر ما اتصلل بأخبار رابع بعد أن رفض التسليم لرومو لوجسى مع سليمان ابن الزبير ، أن مضى نحو الغرب ومعه ألف من الرجال المسلحين الى أن وصل برنو ، ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوه جنوبى بحيرة تشاد الى أن دخلت برنو هذه في نطساق النفوذ الفرنسى ، فجردوا عليه جيوشهم ، ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لواء الزبير من نصر الى نصر ، فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة دامية . ولهذا السبب التجأ الفرنسيون الى الزبير للتوسط بينه وبينهم ولكن الزبير خيب آمالهم (١١) .

وتذكر المصادر التاريخية أن رابع كان قد قضى على بعثة للفرنسيين فى سنة ١٨٩١ يقودها كرامبل J. Crampel وفى نفس العام قضى على بعثة فرنسية أخرى يقودها الملازم البحرى بريقوتن Bretonnet عند توجوبا Togoba بعدها اتخذ الفرنسيون فى سبيل التغلب عليه خطوات فعالة ومؤثرة حتى

قتل على يد قوة فرنسية بقيادة جنرال Gentil حاكم امارة
الشارى بالقرب من بحيرة تشاد(١٢) .

وقد كان الموقف الذى اتخذه الزبير من عرض الفرنسيين موقفا
سليما لا يمكن الطعن فى صحته ، فقد آبت عليه كرامته ووطنيته
واخلاصه كقائد عسكري ، وزميل كفاح قديم لرابع أن يذنس يديه
بهذه الأموال ، أو أن يقبل عقد اتفاق لا يعلم هل يرتضيه رابع أو
لا ؟ . كما أنه ليس من المستبعد أن يكون هؤلاء الفرنسيون مدفوعين
دفعاً من قبل اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم لاختبار مدى حياد
الزبير من جهة ما يدور فى السودان ، وخاصة بعد عودته من
الأسر ، أو العمل على ايقاعه فى شرك الموافقة تمت تأثير الأموال
لكى يمكن اتخاذ موافقته هذه ذريعة تثبت عليه امكانية معاودته
الاتصال بقواده القدامى للتدخل فيما يحدث فى السودان بساى
صورة من الصور ، وفى هذه الحالة يتيح لاعدائه الفرصة لأن
يفعلوا به ما يشاءون ، ولكنه كان الرجل الذى لا يابن أمام اغراء
المادة ، فأوصد بذلك الأبواب جميعها أمام من أرادوا له المكيدة
وأبت عليه وطنيته وشرفه العسكري خيانة زميل كفاح قديم .

السماح للزبير بالسفر الى السودان :

لم تملك السلطات الانجليزية والمصرية فى القاهرة بعد مضى
ثلاثة عشر عاماً على عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق ،
واجتيازه فترة الاختبار هذه بنجاح تام ، وتأكد اولى الأمر من
حياده وانصرافه كلية عن الاهتمام بالشئون السياسية والعسكرية ،
وما آلت اليه أحداث السودان من تطورات سريعة الا أن تعمل على
توفير جو من الثقة والأمان لهذا الرجل ، وترد اليه ثقته فيه ، ومن

ثم أعاد إليه كرومر في سنة ١٩٠٠م ماصودر من أملاكه في عهد
جوردون (١٣) .

كانت هذه الخطوة التي اتخذتها الحكومة في سبيل تصفية
جو الخلاف وعدم الثقة الذي كان قائما بينه وبينها ذات اثر طيب
في نفسية الزبير وتبع هذه الخطوة من جانب الحكومة خطوات
أخرى بعد سنوات قليلة تأكيداً لاعادة ثقتهما فيه ، وهي السماح
له بالسفر الى السودان ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٠٣م ، وكان
الزبير في هذه الأونة قد بلغ من الكبر مبلغاً ، فقد قارب عمره في
هذه السنة على الثانية والسبعين ، وأصبح الطريق ما بينه وبين
النهاية المرتقبة قريباً جداً ، وقد طالت به أيام الفراق والبعد عن
الأهل والوطن ، وأخذ حنينه وشوقه يزداد بعد غياب للمودة الى
بلاده لكي تكتمل عيانه برؤية الأرض التي ولد فيها والربوع التي
عاش عليها ، وقضى فيها معظم مراحل حياته تاجراً وقائداً وفاتحاً
مظفراً ينتقل من نصر الى نصر ، ولم يكن قرار الحكومة الخاص
بالسماح للزبير بالسفر الى السودان قراراً عشوائياً أو ينطوي على
نوع من الشفقة أو العطف عليه ، بل جاء نتيجة الأسباب التي أشرنا
اليها بالاضافة الى استقرار الأوضاع في السودان السياسية
والمسكينة ، بعد أن تم استرداده والقضاء المبرم على النفوذ الفعلي
للمهديين واستئصال شأفتهم وذلك بمقتل خليفتهم عبد الله التعايشي
في موقعة أم درمان .

وصل الزبير الى الخرطوم في أواخر سنة ١٩٠٣م وأمضى
فيها عامين زار فيهما أهله وعشيرته ، ودبر أمر أملاكه التي ردت
اليه وإدارة شئونهما ، وأبنتى له دارين في أم درمان (الجسالي)
وقضى بين أهله هناك فترة استعاد فيها الكثير من ذكريات الأعوام
الماضية (١٤) .

وقد بادر أحمد المندى سيف النصر لدى وصول الزبير رحمة الى الخرطوم باستضافته في منزله الخاص في أم درمان ، فسر الزبير باشا سرورا عظيما لهذا الاكرام ، وكان حمدي أفندي وقتذاك مأمورا لمدينة أم درمان وله النفوذ والسلطان ، وكان أهل السودان في ذلك الحين أشبه ما يكونون بالريض الذي نجا من الخطر وبدأ يسترد عافيته رويدا رويدا ، وذلك بعد ما نزل بهم من محن على يد حكومة عبد الله التعايشي خليفة المهدي ، فقدم حمدي أفندي الممكن والمستحيل من الخدمات لحفظ مكانة الزبير باشا في أعين قومه مما حبه الى قلوب السودانيين وجعل الألسنة تلهج بالشكر والثناء عليه حتى ان الزبير باشا نفسه خاطبه ذات مرة بـ «جل سوداني أخذ القوم هناك يرددونه في مناسبات شتى» (١٥) .

وقد حدث في اثناء وجوده بالسودان في يناير سنة ١٩٠٥م ان بلغه خبر زيارة صديقه الشيخ محمد عبده لرُبوع السودان ، فتاقت نفسه لرؤيته والتشرف بدعوته لزيارته في مزارعه بالسقاي ، وهي تقع شمالي الخرطوم وتبعد عن الجايلي بمقدار عشرة كيلو مترات وكان قد لبثت له فيها قصرا من طابقين ، غير انه كان يعاني في هذه الأيام من وعكة ألزمته الفراش فرأى ان يوجه الى الشيخ محمد عبده كتابا يدعوه فيه لزيارته فكتب اليه يقول :

من الزبير رحمة باشا العباسي بالسقاي ، الى رئيس العلماء الكرام وزين الأكرمين للفخام ، عزيز الأصل ، وشريف النسب والنسب ، جناب حضرة محمد عبده مفتي الديار المصرية والأقاليم السودانية ، دام معززا مكرما آمين . بعد تقديم السلام المشتغل على الأيادي والاقدام ، بشاية كل أدب وخضوع وزيادة احترام ، مع سؤالي القلبي عن صحتكم وعما أنتم فيه وعليه من الأمور الخيرية ، التي نرجو دوامها عليكم بكرة وعشسية ، انه على ما يشاء قددير ،

وبالاجابة جدير ، ثم احيط شريف علمكم وهو أنه قد بلغ مسامعى حلول اقدامكم الشريفة بعاصمة بلادى السودانية بالخرطوم ولما بينى وبينكم من المحبة والمودة الخالصة والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن أنت ضيفا لى خاصة دون اشراف السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من مصر فرحا مسرورا بقدومكم وتشريف بلادى بها عصتعدا لتشريفى بمقابله ذاتكم مع اول كسرام الناس المستعدين لمقابلتكم ، ولكن يا أسفا ويا أسفا قد منعتى ما منع قبل ابره العيشى عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفى بمقابلتكم بسبب ما حدث لى من اللطف الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش ، انتظر العفو من الله عز وجل ، وأرجو من كرمكم المشهور قبول ما تضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصى مع أسفى وعدم مرادى ، كما أن الأمور كلها تجرى بحسب مقادير الله تعالى ، وليست تجرى على حسب خواطر العباد .

واهنىكم واثم اهنىكم واهنى اشراف بلادى كلها من علمائها الكرم والشراف قبائلها بقدوم اقدامكم السعيدة ووصولها بعاصمتها بالخرطوم ، واهنى نفسى غاية ونهاية ملحوقا بهم ، اعادكم الله تعالى الى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين ، فرحين مسرورين ، من علمائنا جميعا ، واهالينا آمين .

وفى الختام اقبلوا فائق الاحترام .

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥م

الوزير رحمة باشا العباسى بالسقاي

كاتبه

وقد اعتذر الامام عن عدم الزيارة اعتذارا رقيقا لضيق وقته . وقد زاره بعد ذلك فى حلوان بعد عودته الى مصر فتذاكر معه فى شئون السودان (١٦) .

لم تستمر زيارة الزبير للسودان سوى عامين حتى عاد إلى مصر حيث أقام في حلوان التي بنى له فيها قصرا وكان يقيم قبل ذلك في قصر أحمد حشمت (١٧) .

وقد أقام الزبير في قصره بحلوان خلوة لتعليم الصغار القراءة والكتابة والدين ، وقد اختار لهذه الخلوة الشيخ سيثي وكان هذا الشيخ يدعو الزبير باشا عند قراءة فاتحة الكتاب ، وكان من ضمن التلاميذ ابنه سعد الدين الزبير وقد حفظ القرآن على يده .
ومما يذكر عن الزبير في أخريات حياته أنه كان يجلس عقب صلاة الجمعة بين أهله في مكان ما في حديقة منزله الواسعة ، ثم يأمر بوضع هدف على بعد مناسب ، ثم يتبارى الإبناء في محاولة إصابة هذا الهدف ومن ينجح في أصابته يفل جائزة مالية من الزبير (١٨) .

الشعر في حياة الزبير :

وحديثنا في هذه النقطة ينقسم إلى قسمين :

أولا : كيف استطاع الزبير أن ينشئ شعرا ؟ وما هو هذا الشعر ؟

ثانيا : ما قاله الشعراء من شعر في مدح الزبير وإشادة به وببطولاته في حياته وبعد مماته .

أولا : ما أنشده الزبير من شعر في حياته :

ولابد لنا أن نقف قليلا لنرى كيف أن الزبير التاجر المعروف والقائد المخفر قد دخل في حياته الشعر ، برغم ما حفلت به من المشاغل والأحداث الجسام المتتابعة التي لم تعطه الفرصة المناسبة لكي ينشئ شعرا بالفهوم الأدبي المعروف لدى الشعراء ، كما أنه لم يكن لديه حويزة قرض الشعر ، علاوة على أنه لم يدرس أصول

قرض الشعر • ولكن الشيء الذى يمكن ان نعزو إليه قيام الزبير
بانشاء الشعر هو ان البيئة التى ولد فيها قد ساعدته الى حد كبير
على ذلك ، يضاف الى ذلك المواقف المصيبة التى تعرض لها
واقعته فريسة للكثير من الضغوط النفسية فكان يلجأ الى قرض
الشعر تفريجا عن نفسه الحزينة •

ونصل الى القول بأن ما انشأه الزبير يشبه الشعر الى حد
بعيد ولكن فى صورة أرجال انتظمت فى عدد قليل من القصائد
القصيرة التى لا تحكمها قواعد لغوية معينة ، وقد قالها وهو فى
ظروف نفسية صعبة اضطرته لانشائها لكى يفرج بها عن نفسه
ويسلئ بها وحدته ، فحين كان أسسيرا بجبل طارق كان كثيرا
ما يفتأ بنفسه ، وتهيج أعماقه بنوازح الغربة ، ويشد حنينه الى
دياره وأمله وما كان فيه من عز وسؤدد ، فكان ينشئ القصائد
التى ييئس بها وما يجيش به صدره على الطريقة التى ينشئ بها
بها الشعراء السودانيون قصائدهم ومن هذه القصائد قصيدته التى
انشأها وهو فى جبل طارق يقول فيها :

بعد الأهل والونسه	وبعد العز والحرسه
بعد انتظام العساكر المؤسسه	وبعد فرسان تفشى المقصه
أنقلب الدهر وانعكس	بعيس الزبير فى اللندسه
يارب ياخالق الكون يا مؤسسه	عجل بالفرج قبل النقسه
نرجع ونشوف عزا مؤسسا	من فضلك ياكريم لاينقصا (١٩)

ومما قاله أيضا وهو فى جبل طارق تلك الأبيات :

يأليل مائى هين ولأنى هوين فى الكفر والإسلام أسمى بين
وفى قومي هناك بيتى بين للمسافر والمقيم قصى لين
ولجارى والعشير جاتبى لين للآقارب والأرحام يعطى بهين
توفيقا من المولى الكريم المهين وكل شى منه والأمر بين (٢٠)

وقد سألته حمدى أفندى سيف النصر ذات مرة عما كان ينتابه
من هموم وهو أسير فى جبل طارق فأجابه « كنت أدوى » أى أغنى
بغناء السودان وأخاطب أعضاء جسمى لأن الحراس لا يقهمن
لغتى ، وأنا أجهل لغتهم أيضا فكنت أقول :

كم يا الساق أخلفناك فوق بشاريه
وكم اليد جلدنا بك جنى الوحشية

وكم يا الفم اطعمناك مرارة وشييه
سنتين تموم أهل العمر عارية (٢١)

وكما كان الزبير ينشئ شعرا لنفسه كان أيضا يردد بعض
الأبيات التى كان يحفظها ويرتاح بترديدها فى منفاه بجبل
طارق منها :

سلوا أم عمر كيف بات أسيرها
فك الأسرى دونه وهو موثق

فما هو مقتول ففى القتل راحة
ولا هو ممنون عليه فيطلق (٢٢)

لقد امتدح الزبير حمدى أفندى سيف النصر ذات مرة نظير
الخدمات التى قدمها للزبير حين هودته للسودان ، واستضافته له
فى منزله ، هذه الأبيات :

انت يا حمدي رفيقي وتمام كيقي
ونرجة عصاي وبلاي وسيقي
مطمورة فلای مونة خريفي وصيفي
ستار عيوي عن نساي وجاري وصيفي

وقد أخذ القوم يرددون هذه الأبيات في شتى المناسبات (٢٣) .

ثانيا : ما قاله الشعراء في مدح الزبير والاشادة به وببطولاته
في حياته وبعد مماته .

ويتلخص حديثنا في هذه النقطة في أن كثير من الشعراء
المصريين والسودانيين قد امتدحوا الزبير رحمة مشيدين ببطلانيته
وأمجاده وشجاعته وشخصيته المحبوبة في حياته وبعد مماته . وكان
على رأس هؤلاء الشعراء شاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم ، وكذلك
شاعر السودان المشهور أبو شوره وهو في نفس الوقت شاعر بلاط
للزبير الخاص ، وكذلك الشاعرة السودانية المشهورة بنت مسيس ،
وفي الأسطر القادمة سوف نرى ما قاله هؤلاء في مدح الزبير .

ويروى لنا صاحب كتاب الغروسية في الشعر الشعبي
السوداني أن شاعر الجعليين أبو شوره كان على الاخص شاعر
البلاط للزبير ، ويصف أبو شوره قتال الزبير وقوانده ضد حملية
البلاي سنة ١٨٦٩م بقوله :

ذقنك ذقن الرجال	ماها البقية ام طوطة
في اليوم ابا حريب	مسلك نغر مبسوطية
يوارق عنقرة وحامد	البسي وتلك مغروطيه
سكيت البلاي	لمن وقع في البوطيه

وتصف الشاعر بنت مسيس فروسية الزبير فتقول :

سموك الزبير فارساً تشد الحيل
وسموك الزبير فارساً لصد الخيل

وسموك الزبير صالحاً تقيم الليل
وسموك الزبير بتغير هوية الليل

قاهر

والعاصي باقى تكبير

قاهر

والعاصي باقى تكبير

وهناك قصة فذكرها عن الزبير وهو أنه قد بلغه أن الخارجين على النظام من عرب الرزيقات قد قتلوا أخا لهم وبعض التجار السالكين بطريق القوافل ما بين بحر الغزال وشكا . وكانت رؤياه منامية وقد عرف بصنقها ، فأصبح الزبير متجهم الوجه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه أو يفتحه فى أمر . فأمر الزبير بسرج فرسه فظم الجميع أن هناك غزوة جديدة ، ولخصيتهم من سؤال الزبير عن الجهة المتوجهين إليها ، اتفقوا جميعا أى قواد الزبير على أن يجعلوا للشاعر أبى شورة نصيبا من المال والمبيد ان هو تمكن بلباقته التى عهدوها فيه والنكاه الحاد من معرفة الجهة التى ينوى الزبير غزوها ، وقطعوا على انفسهم عهدا بذلك أى بدفع ما اتفقوا عليه لأبى شوره ، فهيا الشاعر نفسه لذلك الموقف وبعد اسراج الخيول ، وأمتطى كل واحد صهوة جواده ، أسرع الشاعر أبى شوره الى فرس الزبير ، وأمسك بعنائه ، فما وضع الزبير قدميه على الركاب حتى أنشد الشاعر أبى شوره ووجهه فى اتجاه مغاير عن الزبير قائلا :

أمر منى الصك بخلسع
تعزل في القلوب بهم قبلع
الرجل تزرع وانت بقلع
غاطس يا ادرا تيش مقلع

فرد الزبير بحزم قائلا « شابل قلا » ، وهى اسم بلد ، فاسترسل
أبى شورة بعد ما عرف المكان الذى سوف يتوجهون اليه للغزو .

ويذكر المؤلف أن غزوات الزبير تذكره بذلك الفارس الشاعر
العربى نريد بن الصمة الذى قيل عنه انه غزا مائة غزوة فى بلاد
العرب ، كما خلد أبو الطيب المتنبى سيف الدولة بن حمدان وغزواته
لاستتاب ملكه فى بلاد العرب والروم . وعطى كل قليست هناك
فروسية دون أن يكون لها فرسان مخاضون يتمايزون فى صفاتهم
واقترامهم لمواطن الاقدام ، لكى تعرف دروب الفروسية ومقاييسها
بينهم ، ولولا الحياة الفانية ولقاء الموت فى الميادين لربما اختفت
الفروسية وتلك الفضائل والمميزات يصورها الشاعر أبو الطيب
المتنبى فيقول : -

ولا فخل فيها للشجاعة والندى
وهبى الفقى لولا لقاء شعوب

ويقول الكاتب ان الأبطال لم يعدموا هذا التمييز لتاريخهم
ومآثرهم الحية ، لذا كان جريا أن يتغنى للشعب السودانى ببطولة
الزبير ود رحمة ، وأن تنال مولقته وأعماله ورسالته التى أداها
كثيرا من تمجيد البطولة والكرم والنبل ، ولولاه لفقن السودان
مساحات ومديريات شاسعة أضيفت رقعتها الى الجمهورية

السودانية ، ولولا بعض العقبات لكانت هناك قطار أخرى ضمن نطاق السودان (٢٤) .

وعندما انتصر الزبير باشا على عرب الرزيقات أخذ انصاره ينشدون له أنشودتهم المشهورة وهي :

« حد باى فرط بوارقه حاقتل عربيا رابطة المدرب جاى نخاس
زمانه ياناس حد باى » ومعنى هذه العبارة أن الزبير باشا الشجاع
جاء بخيله ورجاله واقتصر من الأعراب قطاع الطرق وحد باى .
لقب من القاب الفرسان عندهم (٢٥) .

وقد مدحته الشاعرة المشهورة بنت مسيس مرة أخرى بقصيدة نظمها له بعد نزوله الى مصر منها قولها :

فى الخرطوم نزل ادنى بالباجور
وفى بربر رسا بالقهوة غفره يدور

جأبوا له الجمال أتوجه العتمور
خلق الريف نزل قسال لمصر دستور

فى بلد النصارى كم سحت بالباجور
كل صبيح جديد راكب على البحتور

من قمت الجهل انت المنقيد مامور
ادوك الامان خديفين عليك الجور

فى السودان قبيل ما يشبهوك الناس
ويا جبل الذهب الصافي الشاك نحاس

بارود النصارى عن قمزة الكباس
خليت الجوس الين من القرطاس

عدى عصره زين في ديار بلاد الناس
وفى دار الغروب نقيت للرجال اساس
كم قتل السلاطين خلى الديار يباس
ود رحمة الزبير قام الرجال خلاص (٢٦)

وهذا الشعر الذى انشدته الشاعرة بنت ميسس غريب فى
الفاظه غامض المعنى وليس من السهل فهم معانيه بسهولة لأنه
يميل إلى العامية أكثر من ميله إلى اللغة الفصحى ، وكانت هذه
عادة شعراء السودان أن ينشئوا شعرهم بالعامية ليسهل ترديده
بين العامة .

وأخيرا فقد رثاء شاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم عندما
بلغه نيا وفاته ، وكان عندئذ فى طريقه إلى السودان ليستشفى من
مرض أصابه فتمرت حينئذ أشجانه وهو يهل على السودان بعد أن
غاب عنه أسده ، واقفرت رباه من صورته فكتب يقول :

يا روضة النيلين جئت مسلما
فعليك من لدن الله سلام

لى فى ربوعك من رجالك معشر
شم ، إذا جاز الزمان كسرام

أين الزبير ؟ أبو الفوارس والندى
قد غيبته عن حماك رجاءم

قد كان فاضرا للبلاد وتكره
بفاق بها ماكرت الأعوام

كفاه سودناه كفة حاتم
جودا ، وكفة عنتر وحسام

واسى فأودع كل قلب حشرة
ويكى عليه العسرب والأعجام
فحباه رب الكائنات نعيمه
وسقى شرابه من السماء غمام (٢٧)

ومكذا حفلت حياة الزبير بالشعر الذى منح به الكثير من
شعراء مصر والسودان كذلك ما قاله وإنشاء من شعر كان يريده
دائما عندما يضيق صدره أثناء فترة أسره بجبل طارق وهى الفترة
التي شهدت كثرة ترديده لهذا الشعر .

رحلة الزبير الأخيرة الى السودان :

بعد طول اقامة الزبير فى مصر امتدت لسنوات عديدة بدأت
منذ وصوله اليها فى العاشر من يونيو سنة ١٨٧٥م حتى تاريخ
رحلته الأخيرة الى السودان فى العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م.
لم يتعد فيها الزبير عن مصر الا مرات معدودة ، بدأت بسفوره فى
الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٧م ضمن الحملة التى ارسلتها
مصر لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، ثم عودته
منها فى السنة التالية ، والمرة الثانية التى ترك فيها مصر عند نفيه
الى جبل طارق فى يوليو سنة ١٨٨٥م ، ثم عودته من النفسى فى
أغسطس سنة ١٨٨٧م . والمرة الثالثة هى زيارته الاولى للسودان
فى اواخر سنة ١٩٠٣م ، وعودته منها فى اوائل سنة ١٩٠٥م .
وبحسبة بسيطة نجد ان الفترة التى قضاها خارج مصر فى اسفاره
هذه لم تزيد على خمس سنوات بينما امتدت اقامته فى مصر الى
السبعة والثلاثين عاما ، وبذلك يمكن القول بأن مصر أصبحت
بالنسبة للزبير بمثابة الوطن الثانى ، ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه
قد أصبح مواطنا مصرية ، لانه بالرغم من طول مدة اقامته فى مصر ،

وبالرغم من اسفاره الكثيرة خارجها والأحداث والظروف التي مر بها، والشخصيات التي احتك بها وعرفها ، وبالرغم من المظاهر الحضارية التي لمسها في مصر وخارجها ، فإن كل ذلك لم يجعله يفرط في التمسك بسودانيته ، وكل ما يتصل بها من عادات وتقاليد انعكست صورتها في شخصيته وسلوكه اللذين حببا اليه الكثيرين ممن عرفوه واتصلوا به ، وإن كان قد تأثر بزواج أخرى تعتبر أساما من الفواحى المظهرية التي لا تمس الجوهر في شيء وهو جانب السرى فكان كثيرا ما يرتدى البدلة والطربوش وهما على غير لباس أهل السودان . إلا أنه رغم ذلك عاد الى وطنه السودان وهو متمسك بكل ما هو سودانى فحق لوادى النيل أن يفخر به ويضعه بين عظمائه .

تأقت نفس الزبير للعودة الى الوطن بعد ما هزم جسمه ، واعتلت صحته ، وبلغ من الكبر مبلغا ، وأصبح الطريق بينه وبين لقاء ربه قريبا ، فرأى أن يقضى ما بقى له من عمره بين أهله وذويه ، وكان قد تمنى على الله يوما أنه اذ ما أدركته المنية أن يوارى جسمانه في تربة وطنه لتحتضن ذلك القلب الذى شرب من ماء النيل ، فكان لا يكف لحظة واحدة عن أن يحقق من أجله . فما قبلت أمسية العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م حتى كانت محطة القاهرة للسكك الحديدية قد بدأت تموج بحشود المودعين من كبار رجال الدولة والجاليات الأجنبية ، وقد أحاطت بقطار خاص أعنته الحكومة ليقل الزبير رحمة والثلاثمائة من رجاله المخلصين ، وهى الحاشية التي عاشت في كنفه راضية سعيدة ، الى السودان . بينما كان في الجانب الآخر عربية صغيرة تفتقر شوارع القاهرة تحمل ابنه سعد الدين من المدرسة الحربية متجهة الى المحطة لكي يشارك في وداع أبيه ولكي يتزود منه بالعنان الذى يفخر به الوالد ابنه ، وكذلك لكي يتزود بالنصح والارشاد اللازمين لابن صغير ، فعرفه

والده من ملابسه الرسمية ونادى عليه ثم عانقه ، وفى هذه اللحظة انهمرت دموع الفراق على وجنتى الأب والابن ، ولم يستطع كل منهما أن يمنع نفسه بما تفيض بهما كانت تكلمه من شجن ، فكان منظرا مؤثرا حقا ، ولكن سرعان ما استعاد الزبير رباطة جأشه وأخذ يوصى ابنه بالنصائح اللازمة وبالسمعة الحسنة والمسلك الطيب والجد والثابرة ، ثم حاول أن يطمئنه فمضى يحدثه بأنه قد أوصى المسئولين فى القاهرة بأن يكون الحاقه بعد تخرجه هو انتهاء دراسته بالقوة المصرية بالسودان حتى يكون الى جواره ، ولكنه كان اللقاء الأخير بين الأب وابنه ثم تحرك القطار والزبير يدعو لابنه بقوله « هداك الله وأبلفك هناك » وسافر الزبير الى السودان وترك مصر فكانت رحلة بلا عودة (٢٨) .

وفاة الزبير باشا وهو بالسودان :

توفى الزبير فى صباح السادس من يناير سنة ١٩١٣م بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما ، التقى فيها بالموت فى ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ، فكان يلقاه فى كل مرة أسدا مصورا يصول ويجول ويزوغ منه دائما وينتصر عليه ، وقد بلغ نبأ وفاته الى ابنه سعد الدين فى مصر حيث استدعاه قائد المدرسة الحربية وأنهى إليه نبأ وفاة والده . وعرض عليه باسم الحكومة المصرية اعانة مالية ، مع رغبته أن يكون سفره للسودان فى الحال هو ومن يرغب من أفراد أسرته على نفقتها .
وقد سافر الابن سعد الدين الى السودان بينما كانت الأمور تجري على نحو آخر فيها فقد نكست أعلام الأمة بأكملها حدادا على وفاة الزبير ، وعطلت المصالح والمتاجر ليشارك الجميع فى مراسم ذلك الاحتفال العسكى المهيبة الذى أعدته الحكومة لتشجيع به جثمان الفقيد الراحل الى حفره الأخير فى النجاشي . ومضى النعش على

عربية مدفع تحف بها الأورطة الثالثة عشرة السودانية بموسيقاها ، ومن خلفه مضي كبار رجاله الحكم في السودان وأعيانه ، وكبار أفراد الجاليات الأجنبية هناك ، الذين حضروا في قطار خاص تام بهم من الخرطوم الى الجابلي للاشتراك في تشييع الجنازة ، وكان على الجانبين يقف الأهليون ومعهم الرجال الذين ذاقوا حلاوة النصر في ميدان القتال تحت أعلام القائد الرلحل ، وقفوا يتظلمون الى المشهد الباكى العزين ، وفي عيونهم دموع الحزن وفي قلوبهم حزن أعمق .

وقد بلغ ابنه سعد السن الزبير السودان بعد أن تم كل شيء متعلق بمراسم الجنازة وانتظر يتقبل مع الأسرة ما فاضت به قلوب الجميع من عزاء ومواساة ، ولم يكن والده في هذه اللحظة هو الذى حات بل كان الذى مات هو رجل مصسر والسودان قبل كل شيء وفى يوم الاثنين الموافق ٦ يناير سنة ١٩١٣ م كتبت جريدة الاهرام جعدها (٢٩) ١٥٩٣ تحت عنوان الزبير باشا تنعى رجل السودان للشرق والغرب كله وتقول « وصل إلينا والاهرام تطبع نبأ وفاة المرحوم الزبير باشا رحمة السودانى المشهور ، وقد توفى رحمه الله فى أم درمان بين أهله وذويه ولا متسع اليوم لبسط شيء من تاريخه وشهرته فى مصر والسودان يكاد يغنى عن تعريفه تفجده الله بطيب رحمته ورضوانه وأهله وذويه الصبر الجميل » . وهكذا ترفى الزبير باشا والأمة السودانية كلها حزينة على فراقه كذلك كل من فى مصر بل فى العالم العربى بأجمعه . وذلك لأنه فقد بطلا من أبطاله الذين صنعوا للسودان تاريخا حافلا بالانتصارات ، ولايفوتنا أن نذكر فى نهاية الحديث عن الزبير رحمة أن السيف الأثرى ذا اللقبى المرصع الذى كتبت عليه عبارة الحروب الصليبية ، الذى كان قد أهداه الخديو اليه عقب عودته من منفاه بجبل طارق ، يرقد

الآن في المتحف البريطاني بلندن وهو أمر لا ينبغي السكوت عليه
بل يجب المطالبة به من جانب الحكومة السودانية .

هكذا كانت نهاية الزبير باشا التاجر الناجح ، والفاتح
المتنصر ، والقائد المظفر بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما
حفلت على طولها بالكثير مما لا يستطيع حصره من ألوان الكفاح
والنجاح في ميادين الحرب والفخامة . لذلك فإنه لايعوزنا في هذا
المقام أن نعيد ذكر ما حفلت به حياة هذا الرجل العظيم من أمجاد
وانتصارات أو سرد ما تعلی به من صفات طيبة ، فقد كفانا ما سبق
ذكره في صلب الرسالة نقلا عن معاصريه من المؤرخين ورجال
السياسة والحكم وكبار العسكريين ، الذين كان منهم أحسداؤه
وأعداؤه ، لايسعنا الا أن نختم حديثنا عن الزبير باشا بالقول بأنه
كان شخصية لها من القوة والمظية ما يجعلنا نضعها في مصاف
عظماء وأعلام التاريخ ، وقد كانت حقا جنيرة بالدراسة والبحث
ويذل المزيد من الجهد في سبيل الوصول الى حقيقة ما حفلت به
حياته وما اكتنفها من غموض . رحم الله الزبير باشا وهو يكافح في
سبيل وطنه ودينه .

ملامح الفصل الخامس

- (١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٢٠٧ .
- (٢) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P 100.
- (٣) Moorehead, Alan : The White Nile P. 182.
- (٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٦ .
- (٥) نعيم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٨٧ .
- (٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٣١٦ - ٣١٧ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (٧) قصر الجيزة : وهو خاص بالخديو اسماعيل ولد به الامير احمد فؤاد وكان يكون جزءا من حديقة الحيوان ، وقد نزل به الزبير بعد فصر العباسية الذي كان يقع بجوار شريط السكة الحديد أمام جامعة عين شمس وكان يزوره بقصر الجيزة الامير حسن باشا الابن الثالث للخديو اسماعيل .
- (٨) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٥ .
- (٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٩ ، ٢٠٩ - ٢١٠ .
- (١٠) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 106 — 108.
- (١١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (١٢) Collins, O. Robert : The Southern Sudan 1883 — 1898 P. 189.
- (١٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ .

- (١٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٦ .
- (١٥) محمد أحمد الجبري : في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويها
أمله ص ١١٧ - ١١٨ .
- (١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ - ١٤٩ .
- (١٧) قصر أحمد حشمت : وهو مدرسة محمد علي الابتدائية الملاصقة
حاليا لقسم السيدة زينب وهو أول شارب طور سيناء بحى السيدة ، وأمام
هذا القصر كان يقيم خدمه وحشمه من العبيد أمام حارة نرب للشمس ، وقد
حدث بالقصر حريق أتى على جميع ما به من النفائس والوثائق والتحف
فدمرها .
- (١٨) من حديث مع ابنه الاستاذ محمد جميل الزبير رحمه الذي يقطن
حاليا بمنطقة أمبابة على النيل في أحد العوامات أمام مبنى وزارة الثقافة .
وهو من أصغر أبنائه ويبلغ من العمر السبعين عاما وله ولدان ، وقد اعتاد
التربد على السودان سنويا لياشرة أعماله ومصالحه هناك وقد استطعت
مقابلاته أكثر من مرة للحصول على ما يمكن الحصول عليه من معلومات أو
وثائق وأخيرا أرفقني الى بعض النواحي المهمة في حياة والده والتي ساعدتني
في هذه الرسالة .
- (١٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٤ .
- (٢٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٢١) محمد أحمد الجابري : المرجع السابق ص ١١٨ .
- (٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .
- (٢٣) محمد أحمد الجابري : المرجع السابق ص ١١٧ .
- (٢٤) سليمان خالد عبد الحمود : الفروسية في الشعر الشعبي
السوداني ص ٣٦ - ٤٠ .
- (٢٥) محمود القباني : السودان المصري الانجليزي ص ٣١٦ .
- (٢٦) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٨٨ .
- (٢٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢١٣ .
- (٢٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢٠٨ - ٢١١ - ٢١٢ .
- (٢٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢١٤ - ٢١٥ ، ٢١٨ .



الخاصة

ونائج البحث

الخاتمة

وتسائج البحث

بعد أن استعرضنا في سطور الفصول الخمسة السابقة للرسالة الأصول الأولى لأسرة الزبير باشا رحمة منذ هجرتها من العراق فرارا من بطش المغول الى بلاد الشام ثم انتقالها الى مصر ، وما واجهته خلال هذه المراحل من مصاعب اتسمت بالقسوة والمرارة وخاصة في مصر عندما لم تجد ما كانت تعتمد عليه الآمال ، فكان من نتيجتها وفاة الجد الأكبر الشيخ جموع بن غانم ، وورث الابن ويدهى جميع تركة أبيه المثقلة بالاهوال ، الذي لم ينظر متربيا تطور الاحداث بل حول على أن ينحصر مع أهله وعشيرته ومن أثر الانضمام اليه مع النيل نحو الجنوب والاستقرار على جانبي النيل الأبيض .

وقد تلا ذلك استعراض مفصل لحياة الزبير باشا منذ مولده بجزيرة وأوى الهادئة الخضراء في السابع عشر من محرم سنة ١٢٤٦هـ الموافق الثامن من يولييه سنة ١٨٣١م ، ثم نشأته وتعلمه واشتغاله بالتجارة ، ثم سفره مع ابن عمه الى الجنوب ، والتحاقه بقافلة أبى عمورى ، ثم استقلاله بنفسه ، وما أعقب ذلك من قيامه بسلسلة رحلاته الى بلاد قولو سنة ١٨٥٨م ، وبلاد النيام نيام في سنة ١٨٥٩م ، ١٨٦٣م ، وبلاد الملك كريم سنة ١٨٦٢م ، ثم بلاد الملك

دوية سنة ١٨٦٤م وأخيرا بلاد عدوه شكرو وأبنيه سيعا سنة ١٨٦٥م وحرويه مع الملك تكمه وعدوه شكرو ، ونجاحه فى تكوين مملكة واسعة الاطراف مع جيش قوى فى تلك المناطق لحماية ملكه وتجارته فكانت البداية لتاريخ حافل بالاحداث فى حياته .

وقد امتد الحديث عن قصة صراع الزبير فى منطقة بحر الغزال وشكا ودوره فيها الى مسألة اتهام الحكومة له بتهمة الاتجار فى الرقيق ، واتخاذها ذريعة للقضاء على نفوذه وسلطانه بتلك المناطق بتوجيه حملة تحت قيادة شخص يدعى محمد البلالى ، الذى لم يكن مرغوبا فيه من قبل اهالى تلك المناطق أو الزبير نفسه لادعاءاته الكاذبة بملكية بعض الأرض فى منطقة حفرة النحاس ، وخروجه عن الأهداف المحددة للحملة من قبيل الحكومة ، والتي كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير وممثل الحكومة التى انتهت بمصرع محمد البلالى وتبرئة الزبير من تهمة عصيان الحكومة ، ثم قيامه بتقديم فروض الولاء والطاعة لها .

ولا يتوقف تاريخ الزبير عند مصرع البلالى بل يسوقنا للحديث عن مرحلة أخرى من مراحل صراعه وهو صراعه مع عرب الرزيقات ، بسبب نقضهم لاتفاقهم معه بخصوص طريق التجارة ثم اندلاع الحرب بين جيش الزبير وجيوش عرب الرزيقات ، ورغم حرج موقف الزبير فى هذه الحرب بسبب استئصال الرزيقات للمخيل فى قتالهم ، فانه استطاع هزيمتهم قرب شواطئ بحر الغزال والاستيلاء على عاصمتهم ، ورغم رفض السلطان ابراهيم تقديم أى نوع من المساعدة له اثناء الحرب ، أو قيامه بتأديبهم ثم هرب مشايخهم منزل وعليان الى السلطان ، وقيامهم ببث بذور الفتنة والعداوة بينه وبين الزبير ، ثم قرار الحكومة الخديوية بتعيين الزبير حاكما على مديرية بحر الغزال وشكا بعد أن رأت فيه الرجل القوى التى يمكنها الاعتماد عليه فى تنفيذ مخططاتها .

وتتوالى الاحداث ويتطور الصراع بين السلطان ابراهيم
والزبير بسبب الرزاقات وينتقل من ميدان النصح والارشاد في صورة
الخطابات الى ميدان القتال ، وتراها الحكومة فرصة ثمينة لفزو
سلطنة دارفور وادخالها ضمن ممتلكاتها ونفوذها في السودان ،
فتأخذ جانب تأييد الزبير في هذا الصراع وتمد له يد العون
والمساعدة ، بل انها ترى فيه الرجل الذى يمكن أن يحقق لها ما لم
تستطع تحقيقه في مرحلة من مراحل التاريخ من أهداف ، فيصدر
الخديو أوامره للحكمدار السودان بتشكيل حملة عسكرية للزحف
على دارفور من جهة الشرق يتولى هو قيادتها ، بينما يترك
للزبير مهمة الزحف عليها من جهة الجنوب ، ويسوق الزبير جيوشه
يفجر الموقف ، فتثور ثورة السلطان لهذه التحركات العسكرية .
فيحاول علاج الموقف عن طريق تقديم الهدايا والأموال لشريف مكة
وحكومة الباب العالي ليتوسطا لدى الخديو لوقف نزيف هذه الحرب
ولكن سفراءه يتعون أسرى في أيدي رجال الحكومة ، فيبدأ من
مواجهة قدره بشجاعة ويعد للموقف عدته ، فيرسل الجيش تلو
الأخر لجهة الجنوب لمقاومة الزبير وكسر شوكته فيلقاه الزبير في
كل مرة بشجاعة لم يعهدها السلطان فينتصر عليه وينتهى الأمر
بمصرع القائد أو انسحابه ، ويسجل التاريخ انتصارات الزبير على
عدوه . يحزم السلطان رأيه على الخروج بنفسه لمقاومة هذا القائد
الذى لا يعرف الهزيمة ، ولكن الأقدار كانت تكن له نفع مصير من
سبقوه ، فيلقى الهزيمة الساحقة عند بلدة منواشى على يد جيش
الزبير وتنتهى المعركة بمصرعه في الخامس والعشرين من أكتوبر
سنة ١٨٧٤م .

ويواصل جيش الزبير المنظر تقدمه نحو العاصمة الفاشر
فيدخلها في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤م متصرا ، ويلحق به

جيش الحكمدار الى الفاشر فدخلها في الحادى عشر من نوفمبر من
خمس العام ، ولا وجه للمقارنة بين الدور الذى قام به جيش الزبير
والدور الذى قامت به حملة الشرق بقيادة الحكمدار لان الفرق بين
الاثنين شاسع . وبذلك انطوت من التاريخ صفحة سلطنة دارفور
وصارت من ممتلكات الحكومة الخديوية فى السودان .

ولا يتوقف دور الزبير التاريخى فى تشكيل احداث دارفور .
فيرى فيه الحكمدار اليد الطولى للبطولة بمن ثار من اقارب السلطان
ضد الحكومة لينجح الزبير فى هذا الاختبار ويسوق هؤلاء الثائرين
اسرى . ويطمع الحكمدار فى بسط سلطان الحكومة على القبائل
جديدة فيعهد للزبير بحمة غزو يرقى وولدهاى ، ولكن الخديو يأمره
برفع يده فيفعل . والزبير فى كل هذا هو دائما القائد المظهر المنتصر
القائب النظر والمنفذ لأوامر الحكومة الخديوية التى لم يتوان لحظة
عن التفادى فى خذلها .

يرى الخديو تهمة للحكمدار والزبير على هذا الانتصار مع
الانعام عليه بالرتب والنياشين وترى الحكومة فى وجود الزبير
بعد ان ادى الدور المطلوب منه خطرا عليها ، فيحدث التمسك
والاختلاف بينه وبين الحكمدار حول مكانه فى ادارة الخديوية الجديدة
واسلوب تنظيمها فيضاف الى القاهرة بعض حقيقة التمسك على
الخديو . ويرى الخديو افضلية بقائه فى مصر فيمنع لذلك الزبير
ولكنه يكتم ذلك ويحاول ان يتلادم مع طبيعة الحياة الجديدة فى
القاهرة بعد ان تنكرت الحكومة له .

ويرى الزبير بشخصيته وشجاعته كقائد عسكري يهدد وراه
التصحر اينما ذهب عندما عهد له بقيادة الفرق المصرية المتحركة فى
الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ م ، فيستقبله السلطان العثمانى

ويهنئه على شجاعته • ويقضى فترة نقاهة فى العاصمة التركية من
عناء الحرب ويعود الى القاهرة مرفوع الرأس •

ويحيط به الواشون ويتلقى اتهاماً بـبث الفتنة ضد الخديو
لدى السلطان العثماني ، وتثبت الاحداث براءته من هذا الاتهام •
ولكن الأقدار ارادت له أن يتلقى نبأ مصرع ابنه على يد رومولوجيسى
بايعاز من جورديون والتفكير بذويه وأهله ومصادرة أمواله ، بل
يطلب جورديون من الخديو محاكمة الزبير ومصادرة أمواله فى مصر
عقاباً لما اقترفه ابنه ، ويجب الخديو بأنه لا ينبغي أن يؤخذ الأب
بجناية الابن •

وفجأة تشب ثورة المهدي فى السودان ، وتهب نارها فى
كل مكان ، وتضع كل هيئة وسلطة للحكومة ، وتضمس نفوذها
تسريعا عن مناطق كثيرة نتيجة ضغط جيوش المهدي وهزائم قواتها
المنكورة ، وتشعر الحكومة بـ حاجتها ليد قوة تستعين بها لكبح
جماح المهدي واتباعه فى البداية ترسل حملة تحشد لها إمكانات
ضخمة ، وتعهد بقيادتها للجنرال هيكس باشا فتلقى الهزيمة المنكرة ،
بكرديفان ، ويحتاج الأمر لواقفة أخرى لوضع النقاط فوق الحروف ،
فتخرج الحكومة فى انقلاب سنواكن وتأمين الطريق ما بينها وبين بريل
والقضاء على عثمان بـقوة ضرورة • فتُرسل حملة بقيادة مسير
جيمويل بيكر ، وتعهد للزبير بقيادة الفرق السودانية المشتركة فى
الحملة ، ولكنه عندما علم بأنه سوف يتلقى أوامره من بيكر رفض
الاشتراك فيها فكان مضميرها الهزيمة الكاملة •

ويستدعى الخديو صديقه جورديون لإنقاذ الموقف فى السودان
ويؤخذ سياسة الاخلاء بعد أن اجبرت الحكومة الانجليزية الحكومة
المصرية على ذلك • ويأتى جورديون الى القاهرة بعد أن تلقى

تعليماته من حكومته ، ويستقبله الخديو ويعتذر له عما بدر منه تجاهه ويزوده الخديو بالتعليمات والأوامر اللازمة بمهمته ، ويطلب جوردون اصطحاب الزبير باشا الى السودان لكي يضمن نجاح مهمته ويتعجب السير ليفلين بارنج لهذا الطلب فيوافق في بداية الأمر ويلتقى الرجلان مع عدد من ممثلى الحكومتين وتشتعل حدة المناقشة بين المجتمعين فالزبير لا ينسى أن جوردون هو الذى أمر بقتل ابنه سليمان ، ويخرج السير ليفلين بارنج بنتيجة مؤداها استحالة الجمع بين الرجلين فى مكان واحد لأن فى ذلك خطرا على حياة جوردون وفى نفس الوقت يصر جوردون على مطلبه بخصوص الزبير .

ويسافر جوردون مع مساعده مستيوارت الى السودان ، وهو فى كل بلد يمر به يرسل البرقية تلو الأخرى لبارنج فى القاهرة يعيد فيها اقتراحه بارسال الزبير لأنه الشخص الوحيد الذى يمكن أن يواجه بشخصيته وقوة نفوذه سطوة المهدي وسيطرته وأسباب أخرى ، وتتبادل كل من القاهرة والخرطوم ولندن البرقيات حول هذا الاقتراح وهى تحمل فى ظاهرها طابع المناقشة لهذا الاقتراح وفى مضمونها الرفض ويسوء الموقف فى الخرطوم والحكومة الانجليزية مصرة على رفض الاقتراح ، وفى نفس الوقت ترفض حلولا أخرى يعرضها جوردون أو مستيوارت أو الحكومة المصرية ، وينتهى الأمر باجتماع المهديين للخرطوم ومصر جوردون ومستيوارت ، وقبل ذلك تفق لندن من ثباتها وترسل حملة بقيادة ولسلى لانقاذ جوردون ولكنه يصل بعد فوات الأوان وتلفد مصر السودان بأكمله وسط اعتراضات جرانفيل وجلاستون وبارنج وسياسة حكومة لندن المتتوية .

وتخشى حكومة لندن قيام اتصالات من أى نوع بين الزبير والمهديين فى السودان ، فيلقى عليه القبض وهو فى الاسكندرية

ويحمل أسيرا الى جبل طارق • ويظل حبيسا في منفاه الى أن تبدأ الأوضاح في السودان • وتستعيد القوات الانجليزية والمصرية السودان • فيسمح للزبير بالعودة الى القاهرة بعد أن أسر ظلما في هذه الفترة •

ويعود الزبير باشا لممارسة حياته العادية في القاهرة وتصرف له الحكومة المصرية ولأهله معاشا تعريضا له عما فقده وعن خدماته السابقة ويلقى في منزله كبار رجال الدولة من الحكام والعلماء والشعراء وتعمد مجالس العلم • ويشتد حنين الزبير لرؤية بلاده • فيسمح له بالسفر اليها • فيطمئن على أهله ومصالحه هناك ويقفل عائدا الى القاهرة ويحاول الفرنسيون الاتصال بالزبير وهو في القاهرة لعقد اتفاق معه لاجبار رابع على التسليم أو وقف حربه ضد الفرنسيين نظير أموال يدفعونها له • ولكن الزبير رفض خيانة رفيق كفاح قديم وينتهي أمل الفرنسيين بالفشل •

ويعود الزبير الى حياته العادية مرة أخرى • فيسافر الى السودان مرة أخرى وكان بلغ من الكبر مبلغا • وتودعه القاهرة كلها على محطة السكك الحديدية تكريما لشخصه الكريم وتعبرا عن تقدير الجماهير له • ولكنها كانت الرحلة الأخيرة التي لم يعد منها •

وفي صباح السادس من يناير سنة ١٩١٣م يطير الى القاهرة نبا وفاة الزعيم السوداني الزبير باشا فيخرج لوداعه اعداؤه قبل أصدقائه ، وتودع الخرطوم بل العالم العربي الزبير باشا الى مثواه الأخير في الخرطوم • بعد حياة حافلة امتدت الى أكثر من اثنين وثمانين عاما • التقى فيها بالموت في ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ولكنه يموت في نهاية الأمر وهو على

فراشه • وهكذا انطلوت صفحة جديدة لأول شخصية سودانية فرضت نفسها على الأحداث وصنعت لبلادها الكثير من الأمجاد التي لن تنسى أبدا بل سيذكرها الشعب السوداني وشقيقه شعب مصر على السواء •

وقد رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم كما نعاها الأهرام في عدده الصادر بتاريخ يوم الاثنين ٦ يناير سنة ١٩١٢ بكلمات رثاء عبرت عن اعتزاز الشعب المصري له •

وقد يتصور للبعض أن الحديث عن شخصية تاريخية مثل الزبير باشا أو غيره بامكانية الاكتفاء بالرجوع الى ما كتب عنها بين صفحات المراجع التاريخية العربية والأجنبية ولكن أصول البحث العلمي والتاريخي تذهب الى ما هو أبعد من ذلك فيما يتصل بهذه الموضوعات وتفرض ضرورة الرجوع الى ما هو أهم من ذلك وهى المصادر الأصلية المتصلة بموضوع البحث من وثائق وخلافه ان وجدت • وطبقا لذلك كانت الوثائق التاريخية هي المصدر الأول في هذا البحث بهدف التحقق من صحة أو كذب ما ذكرته المصادر التاريخية المختلفة من حقائق أو وقائع تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد • وكذلك اثبات العديد من الحقائق والوقائع التي لم تثبت هذه المصادر وصولا بالموضوع الى طريقه الصحيح الذي لا يقبل الشك •

ويعد هذا الجهد المتواضع من الدراسة التاريخية الوثائقية لتاريخ حياة الزبير باشا رحمة والدور الذي لعبه في تاريخ السودان • فانه يمكن القول بان هذا الرجل قد تعرض في خلال مراحل حياته وكفاحه للعديد من الاتهامات التي ألصقت به من قبل الكثير من خصومه من السياسيين والعسكريين ظلما ، ولم يحاول

المؤرخون بغم وضوح الرؤية تفنيد هذه المزاعم أو هذه الاتهامات. سوى القليل منهم • لذلك جاءت هذه الدراسة لتفنيد هذه المزاعم والاتهامات ووضع الأمور في نصابها وبيان حقيقة ذلك من عدمه انصافا للحق وأهله وسوف نعرض في ايجاز لنتائج هذه الدراسة :

أولا : نفى ما اتهم به الزبير من جانب الكثير من تهمة الاتجار في الرقيق • والدليل أن الزبير بدأ حياته تاجرا عاديا في السلسع المشروعة ، وعندما توجه الى الجنوب كان دافعه الي ذلك هو خوفه على ابن عمه ، وعندما اضطرته ظروفه الي أن يلتحق بالعمل لدى ابي عموري التاجر لم يكن هناك مفر من أن يرسم لميائه خطا جديدا يتلاءم مع الظروف التي احاطت به ، فعمل في تجارة العاج وريش النعام وغير ذلك من موارد الجنوب • ولكن عندما بدأ يستقل بنفسه شعر وقتها بأنه يجب أن يضمن لنفسه وتجارته الحماية الكافية من مخاطر تلك المناطق لأن من ينظر الى الجنوب بقبائله واحراشه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفردا خشية الوقوع ضحية الاخطار التي تكن في كل خطوة ، لذلك لصطبب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديدة من الاتباع السود الذين استأجروهم أو اشتروهم بفرض الحماية لأنفسهم وتجارته من هذه المخاطر ، وكذلك ليكونوا عوناً في نقل ما يحملونه من بضائع وليتخذوا منهم مرشدين وإدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق • ولم يكن قصد معظم التجار استرقاقهم • وهذا الذي فعله الزبير كغيره من التجار عندما قصد الجنوب بصحبة العديد من هؤلاء الاتباع ، كانوا له خير عون وكان لهم نعم الأخ والصديق • لأن الجنوب بخاصلاته وموارده مثل العاج وريش النعام وغيره كان محتسبا لأن يتجر فيه من توافرت لديه للشجاعة والجرأة على المغامرة دون مهابة المخاطر دون أن يعير انتباهها لسلعة أخرى كالرقيق مثلا وان وجد

فى هذه المناطق الكثير من التجار الذين تخصصوا فى تجارة الرقيق
بالبيع والشراء .

كان الزبير يمتلك الكثير من الرقيق ، ولكن لم يتخذهم يوما من
الأيام مادة لتجارته بل سلاحهم بمختلف الأسلحة وكون عنهم جيشا
خاصا استطاع بفضلله أن ينتصر به فى حروبه مع ملوك الجنوب ،
وأن يؤسس مملكة لنفسه ، وأن يهزم بهم عرب الرزيقات ، وينتصر
على محمد البلالى . كذلك استطاع بهم فى نهاية الأمر فتح دارفور .
ولولا اخلاص الزبير وحسن معاملته لهم واعتزازه بهم ، ما تقانوا
فى خدمته والانتصار له طوال هذه المعارك . وهذا ما يثبت براءة
الزبير من هذه التهمة التى اتخذتها لندن بمثابة حجة لعدم موافقتها
فيما بعد على اقتراح جوردون باستخدام الزبير فى السودان لمواجهة
نفوذ المهدي .

ثانياً : كان من بين النتائج التى انتهت إليها فى هذا البحث
عدم وجود أى دليل يثبت على الزبير خيانتة أو عصيانه للحكومة
المصرية وتزعمه لتجار الرقيق ضدها . وما يثبت ذلك أنه عندما
وصلت حملة محمد البلالى الى بحر الغزال لم يجد أمامه سوى
الزبير الذى أحسن وفادته ، ومهد له الطريق لتنفيذ المهام التى كلف
بها ، كما أمدّه بكل ما يحتاج اليه من المؤن والأموال ولكن بالرغم
من كل ذلك حاول البلالى الخروج عن الأهداف المحددة لمهمته باللجوء
الى وسائل الخداع والمكر وأخيرا مهاجمة ممتلكات الزبير وعاصمته
فكان لابد من مواجهة بين الاثنين انتهت بمصرع البلالى الذى
كان سببا فى الصاق تهمة العصيان والتمرد بالزبير ولكن وفاة الزبير
واخلاصه دفعه للاعتذار عن مصرع البلالى ، وتقديم قروض الطاعة
والولاء لها . وثاكيدا لاخلاصه هذا قدم ما فيه بديرية بحسر
الغزال وشكا هدية للحكومة لتبعت بمن يتولى أمرها ويتفرغ هو

لتجارته واعترافا من جانب الحكومة بهذا الاخلاص تم تعيينه مديرا لهذه المديرية مع الانعام عليه بالرتب والنياشين .

وكمثل آخر لاخلاصه لحكومته قام باسم الحكومة بفتح سلطنة دارفور بجيشه الخاص وأمواله دون أن يطلب مقابلا لذلك سوى الذخيرة والسلاح وتحمل في هذا السبيل عبء التصدي لجيوش السلطان ابراهيم الكثيفة المتوالية والانتصار عليها المرة تلو الأخرى وأخيرا التصدي لجيش السلطان ومصرعه في معركة منواشي .

ويختبر الحكماء اخلاصه فعهد له بمهمة القضاء على تمردات وثورات اقارب السلطان فينجح في ذلك وتم تطويق هذه التمردات . ويختلف الحكماء معه في نظام ادارة المديرية الجديدة ، وتراها الحكومة فرصة للتخلص من نفوذه ويحضر للتفاهم مع الخديو في هذا الخصوص فيطلب منه الفضلية بقاءه في القاهرة . فيكتم احزانه وينفذ أوامر الخديو .

ويقدم اخلاصه لحكومته في صورة أخرى عندما قاد إحدى الفرق المصرية المشتركة مع القوات العثمانية في حربها ضد روسيا والانتصار بهذه الفرقة على القوات الروسية مما جعل السلطان يثنى على شجاعته ويهنئه على ذلك .

وبرغم مصراع ابنه سليمان على يد جيسى بايعاز من جوردون فإنه لم يقدم على أى عمل من شأنه تلويت صفحته البيضاء مع الحكومة . وبرغم مصادرة أمواله والتفكيك بأهله وذويه في السودان فإن كل ذلك لم يزعزع اخلاصه وولاءه للحكومة .

وعندما طلب جوردون مرافقته معه الى السودان لمساعدته في تنفيذ عملية الاخلاء لم يتوان عن اجابته لطلبه ولولا معارضة

حكومة لندن لذلك لقام الزبير بانجاز الكثير وحقق ما لم يكن في قدرة غيره تحقيقه .

وعندما طلب من الزبير تحرير خطاب توصية للقائس المحاصرة للخرطوم مع رسل الحكومة لجورون للسماح له بالخروج من الخرطوم اذا اراد ذلك فقام بتلبية طلب الحكومة ولكن جورون وغض التخلي عن رجاله في محنتهم .

وقد كانت مكافاته التي تلقاها في مقابل اخلاصه هذا هو تفهيه لمنطقة جبل طارق بمعرفة اعدائه من الانجليز . وهكذا احيطت حياة الزبير وشخصيته بالكثير من الاتهامات التي لم يكن لها اساس من الصحة والتي اثبت هذا البحث عدم واقعيتها .

ثالثا : وكنتيجة لهذا البحث فان الزبير قد اثبت بتاريخه الحافل بالاجداث انه صاحب عبقرية عسكرية رغم انه لم يتلقى من العلم سوى مبادئه الاولى ، ولم يلتحق باى اكااديمية عسكرية بل كانت هذه العبقرية وراء انتصاراته المتوالية في بحر الغزال وشكا ودارفور وفي اسيا الصغرى . كما انه اثبت انه الشخصية 'السودانية' الوحيدة التي ظهرت عبر تاريخ السودان واثرت في احداثه . وقد كان في الامكان ان يمثل راسا مناهضا لزعامة المهدي لو ان حكومة لندن قد وافقت على اقتراح استخدامه في السودان ولو فعلت ذلك لتغير مجرى الاحداث ولكنها مشيئة الله . وقد كانت لبسطة الزبير وطبيعته السخية وايمانه العميق من الصفات التي جعلت منه هذه الشخصية التاريخية الفذة .

وقد حاولت في هذا البحث الالمام بجميع جوانب الموضوع قدر الامكان حتى يخرج في صورته التي يجب ان يكون عليها فقد زود البحث بصور النصوص الاصلية للوثائق غير المنشورة مع

ترجمة لهذه النصوص وكذلك زود بعدد من الصور الخاصة بالزبير
باشا والبيخصيات التي لعبت دورها على مسرح الأحداث أثناء
حياته سواء في السودان أو مصر هذا غير ملاحق قوائم المراجع
والوثائق وتقييم المراجع العربية والاجنبية .

واخيرا اضيف ان النتائج التي توضحنت ليست هي كل
ما أردت الوصول اليه إنما هي أمثلة فقط لأهم النتائج . كما أود
ان أقول ان شخصية كشخصية الزبير باشا رحمة تستحق هذا
الجهد الذي بذل من أجلها وما زال باب البحث العلمى والتاريخى
مفتوحا لأى باحث لاضافة أى جديد من المعلومات أو الحقائق
عن الزبير باشا .

وفقنا الله الى ما فيه خير العلم والنفع له .

تأريخ بالقرن الرابع الميلادية والهجرية للأحداث والوقائع المهمة

م	اليسلادي	الهجوري	المسند
١	١٢٥٢ م	(فترة خلافة المعصم بالله ١٢٥٦ م)	مغارة جاكيز خان ببلاد المنول
٢	(١٢٠٨ / ١٢٤٢ م)	(١٢٥٨ م مهاجرة هولاء لبغداد)	احتلال المنول لبلاد الحشاشيين
٣	٢ سبتمبر ١٢٦٠ م		موقعة عين جالوت
٤	٣ يوليو ١٢٥٧ م		تولى شجرة الدر الحكم في مصر
٥	١٨٢١ م		فتح محمد علي للسودان
٦	٨ يوليو ١٨٢١ م	١٧ محرم ١٢٤٦ هـ	مولد الزبير بلشا رحمة
٧	١٤ سبتمبر ١٨٥٦ م	١٤ محرم ١٢٧٢ هـ	رحلة الزبير لجنوب السودان
٨	١٨٥٦ م	١٢٧٢ هـ	وصول الزبير الى مشرع الرق
٩	١٨٥٧ م	١٢٧٤ هـ	ثورة الاهلي الاولى أبو صوري
١٠	١٥ أكتوبر ١٨٥٨ م	٧ ربيع اول ١٢٧٠ هـ	وصول الزبير في رحلته الاولى الى الخرطوم

المحدث	الهجري	البيلاوي	م
رحلة الزبير الى بلاد قنود	١٢٧٥ هـ	١٨٥٨ م	١١
عودة الزبير من بلاد حوكنو الى الفرطوم	١٧ ربيع اول ١٢٧٦ هـ	١٨٥٩ م	١٢
الزبير في بلاد النيام نيام	١٢٧٦ هـ	١٨٥٩ م	١٣
الزبير في بلاد الملك كريم	١٢٧٨ هـ	١٨٦٢ م	١٤
رجل الزبير على بلاد النيام نيام	١٧ رمضان ١٢٨٧ هـ	١٨٦٢ م	١٥
وصول الزبير الى بشارع الرق	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	١٩ يوليو ١٨٦٣ م	١٦
وصوله الى الفرطوم من بلاد الملك كريم	٢٧ ربيع الاول ١٢٨٠ هـ	١١ سبتمبر ١٨٦٣ م	١٧
وصول الزبير وصحبه الى قرية شول ببلاد النيام نيام	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	١٨
وصول الزبير الى النيام نيام نفسها	٢٠ صفر ١٢٨٢ هـ	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	١٩
وصول الزبير الى بلاد الملك حويه (تولى)	١ محرم ١٢٨٢ هـ	٢٧ مايو ١٨٦٥ م	٢٠
انقصار الزبير على محمد علي	١ ربيع الاول ١٢٨٨ هـ	١٨٧١ م	٢١

محاربة ملويوه عم تكبه للزبير

١٢٨٩ م

٢١ ١٨٧٢ م

مدة حكم عيسى الاول

٢٢ ١٨٥٢ : ١٨٤٩ م

فترة حكم سعيد باشا

٢٤ ١٨٦٣ : ١٨٥٤ م

فترة حكم اسماعيل باشا

٢٥ ١٨٦٣ : ١٨٨٩ م

تولي موسى حدى باشا حكمادية السودان

٢٦ ١٨٦٢ : ١٨٦٥ م

نورمان الوراثة الصليبية للخديوي اسماعيل

٢٧ ١٨٦٦ م

لفترة تولي احمد باشا النكلى للحكمدادية في السودان

٢٨ ١٨٤٣ : ١٨٤٥ م

لفترة تولي جعفر مظهر باشا للحكمدادية بالسودان

٢٩ ١٨٦١ : ١٨٧١ م

قرار الحكومة المصرية باحتكار تجارة اتخليم النيل العليا

٣٠ فبراير ١٨٧٢ م

فترة تولي اسماعيل باشا ايبيا للحكمدادية في السودان

٣١ ١٨٧٢ - ١٨٧٧ م

المجلد	الجزء	العدد
٢٢	٢٠ فبراير ١٨٧٧ م	٤ صفر ١٢٩٤ هـ
٢٣	٢٥ أغسطس ١٨٧٧ م	توقيع معاهدة إلغاء تجارة الرقيق
٢٤	٢١ أغسطس ١٨٦٩ م	تحرّك البلالى بمحمله لإحتلال بحر الغزال ومقتله على يد الزبير . .
٢٥	١ مارس ١٨٦٦ م	بداية اتصال الزبير بمشايخ عرب الرزيقات
٢٦	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير شكا
٢٧	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال
٢٨	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	تولي السلطان حسين ابن العفصل الحكم بدارفور
٢٩	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	تسوية العرب بين الزبير والسلطان تكية . .
٣٠	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	إعلاء فتح الطريق الى شكا . .

الم	اليوم	الهجري	المحدث
٤١	١٨٧٣ م	١٢٩٠ هـ	تصدى القوات المصرية لثلاثة من الرقيق .. قائمة من دارفور بسبب الغزو ..
٤٢	١٩ يونيو ١٨٧٤ م	٤ جمادى الاولى ١٢٩١	المركة بين الزبير والسلطان ابونا الفرمان الصلح من البلب المالى باعتبار سلطنة دارفور ضمن الاتانيم السودانية .
٤٣	١٣ فبراير ١٨٤١ م		دخول الامير حسبه الله دارا (طمة) ومول السلطان ابراهيم الى دارا وصول الحكمدار على رأس الحنة الى محل يقال له دارفور الممل ..
٤٤	٢٥ أغسطس ١٨٧٤ م	٢٤ رجب ١٢٩١ هـ	احتلال اسماعيل بلقا ايوب لبلدة أم شنتة .
٤٥	١٦ أكتوبر ١٨٧٤ م		مركة منواتى — مقتل السلطان ابراهيم ..
٤٦	٦ سبتمبر ١٨٧٤ م		
٤٧	١٨٧٤ أكتوبر م		
٤٨	٢٥ أكتوبر ١٨٧٤ م	١٤ رمضان ١٢٩١ هـ	

تعيين جوردون حاكمها عليها عليه
السودان . .

٥٨ ١٧ فبراير ١٨٧٧ م

استدعاء جوردون من السودان

٥٩ يونيو ١٨٧٩ م

تولى رافوف بلما الحكمدارية خلفه
لجوردون .

٦٠ ١٨٧٩ — ١٨٨٢ م

استقالة وزارة شريف بلما

٦١ ٧ يناير ١٨٨٢ م

تأليف وزارة نوبلر بلما

٦٢ ١٠ يناير ١٨٨٤ م

لغساء الزبير وجوردون في منزله
السير ايفلين بلرنج . .

٦٣ ٢٥ يناير ١٨٨٤ م

مسير جوردون مع سقيوات الى
الخرطوم .

٦٤ ٢٦ يناير ١٨٨٤ م

مقتل سقيوات وهو في طريقه الى
مصر

٦٥ ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ م

مستوط الخرطوم في ايدي المهينين .

٦٦ ٢٦ يناير ١٨٨٥ م

ومرور حملة الجنرال ولسلي الى
دنقلا

٦٧ ٣ نوفمبر ١٨٨٤ م

تنتيش قصر الزبير بالقطاي ..					
نفي الزبير الى جبل طارق ..					
بنى الزبير لنفسه قصرا في حلوان	٢١ يناير ١٨٨٥ م	٦٨			
المسيح للزبير بالمسافر الى	يوليو ١٨٨٥ م	٦٩			
السودان	١٩٠٥ م	٧٠			
	١٩٠٢ م	٧١			
امساك كرومر للزبير بممتلكاته في					
السودان	١٩٠٠ م	٧٢			
زيارة الشيخ محمد عبده للسودان	يناير ١٩٠٥ م	٧٣			
تاريخ وصول الزبير لصر لأول مرة	١٠ يونيو ١٨٧٥ م	٧٤			
تاريخ رحلته الاكيرة للسودان	١٠ أغسطس ١٩١٢ م	٧٥			
عودته من منفاه بجبل طارق	أغسطس ١٨٨٧ م	٧٦			
توفي الزبير بالقلا ..	٦ يناير ١٩١٣ م	٧٧			
فترة الحرب بين الزبير ومصر	١ يوليو — ٢٨ أغسطس ١٨٧٣ م	٧٨			
الزيعة					
منح الزبير لقب بك وتولى أسر	٢٧ فبراير ١٨٧٤ م	٧٩			
مخبرية بحر الشمال					
تاريخ المعركة الثانية مع الابن	٢١ أغسطس ١٨٧٤ م	٨٠			
هسب الله					
تاريخ المعركة الثالثة مع الابن	٨ سبتمبر ١٨٧٤ م	٨١			
هسب الله					

الفهرس

المصحة

٥	تقديم
٧	المقدمة
١٧	هوامش المقدمة

الفصل الأول :

٢١	(بداية ظهور الزبير رحمة في السودان)
٢٣	تمهيد
٢٨	الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير
٢٨	الزبير يستقل بنفسه
٣٠	الزبير في بلاد قولو (١٢٧٥ هـ — ١٨٥٨ م)
٣١	الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م)
٣٥	الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ — ١٨٦٢ م)
٣٩	الزبير في بلاد النيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ — ١٨٦٣ م)
٤١	الزبير في بلاد الملك دويه (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م)
٤٢	الزبير ومحنه شكو وابنه شيجا (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م)
٤٥	تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكبة
٥١	هوامش الفصل الأول

- ٥٥ . الدور الذي لعبه الزبير في بحر الغزال وشكا .
- ٥٧ موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق في السودان
- ٦٥ حملته في بحر الغزال
- ٦٧ حملة البلالي
- ٧١ أهداف حملة البلالي
- ٧٢ بداية الصراع بين الزبير والبلالي
- المعركة الفاصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالي
- ٧٨ (١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م)
- ٨٢ التحقيق في مقتل البلالي
- ٨٦ قيام الزبير بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال
- ٨٧ دور الزبير في فتح شكا وتأسيس عرب الرزيقات
- ٩١ اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات
- ٩٥ الزبير ومبدأ الله المتعالي
- ٩٦ الزبير والشيخان منزل وعليان
- تعيين الزبير حاكماً على بحر الغزال وشكا
- ١٠٠ (١٨٧٣ م - ١٢٩٠ هـ)
- ١٠٢ هوامش الفصل الثاني

- ١١١ الدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور
- ١١٣ أولاً : الأسباب التي أدت لغزو سلطنة دارفور
- ١١٧ استطلاع أحوال سلطنة دارفور الداخلية

الصفحة

ثانيا : اسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان	
ابراهيم	١١٨
١ - الدوافع السياسية والعسكرية	١١٨
٢ - الاسباب الاقتصادية	١٢٢
قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة	
فيها	١٢٣
الاتصالات بين القاهرة والخرطوم	١٢٧
شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير	
والحكماء	١٣٥
موقعة الشرتاي أحمد نمر	١٣٩
موقعة الأمير حسب الله	١٤٠
المعركة الاولى	١٤١
المعركة الثانية	١٤٢
المعركة الثالثة	١٤٣
عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الامير	
حسب الله	١٤٥
قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى داره	١٤٨
دور حملة الشرق بقيادة الحكماء	١٥٠
الاستيلاء على أم شنقة	١٥٢
اتهام اسماعيل باشا أيوب بتعمد الإبطاء في التقدم	
نحو الفاشر	١٥٤
موقعة منواشى (١٤ رمضان ١٢٩١ هـ - ٢٥ اكتوبر	
١٨٧٤ م)	١٥٦

الصفحة

١٥٩	دخول العاصمة الفاشر
	الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في
١٦٠	فتح دارفور
١٦٠	أولاً : دور جيش الزبير
١٦٠	ثانياً : حملة الشرق بقيادة الحكمدار
١٦١	غنائم الحرب
١٦٢	تمرد الأمير حسب الله
١٦٥	ثورة الأمير بوشسن
١٦٦	الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برغو - واداي)
١٦٨	ترقية الزبير والحكمدار
١٦٩	مكان الزبير في الإدارة الجديدة
١٨١	هوامش الفصل الثالث

الفصل الرابع :

١٩٣	(الزبير وجوردون)
	الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية
١٩٥	(١٨٧٧ م - ١٢٩٤ هـ)
	ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد جسي
١٩٧	(١٨٧٩ م - ١٢٩٦ هـ)
٢٠٠	الاحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير
٢٠٢	رفض الزبير باشا الاشتراك في حملة سواكن
٢٠٥	الزبير وجوردون وحوادث الاخلاء
٢١٣	اجتماع الزبير وجوردون في القاهرة
٢١٦	اقتراح جوردون باعادة استخدام الزبير في السودان

الصفحة

٢٣٢	الفصل في شأن استخدام الزبير
	تطور الأحداث والنتائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام
٢٤٠	الزبير
٢٤٤	حملة الجنرال ولسلي
٢٥٠	ما بين مؤيدي ومعارضى استخدام الزبير في السودان
٢٥٦	نفس الزبير باشا الى جبل طارق
٢٦٣	هوامش الفصل الرابع

الفصل الخامس :

٢٧١	(الزبير رحمة في نهاية حياته)
٢٧٤	تمويض الحكومة المصرية للزبير ماندا
٢٧٦	حياته في القاهرة واتصاله برجال الحكم وكبار العلماء
٢٨٠	اتصال الفرنسيين بالزبير في مصر
٢٨٢	السباح للزبير بالسفر الى السودان
٢٨٦	الشعر في حياة الزبير
٢٨٦	أولا : ما أنشأه الزبير من شعر في حياته
٢٨٩	ثانيا : ما قاله الشعراء في مدح الزبير والاشادة به
٢٩٤	رحلة الزبير الأخيرة للسودان
٢٩٦	وفاة الزبير باشا وهو في السودان
٢٩٩	هوامش الفصل الخامس
٣٠١	الختمة ونتائج البحث

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،
عليه عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمى الطيحي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية ،
د. علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية :
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - أكلوبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،
د. علي حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى في مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى :
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ٢ - اعلم
التصوف في مصر : الشعراني ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د. أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د. سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : الفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : الفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخشيديين ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الاافريقى : نظرة على الأوضاع
الراهنه ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية الغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. احمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عيو العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الاوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن
حبشى ، ١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، في إبريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر ،
د. الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن إقليم
المنوفية ،
د. حلمي أحمد شلبي في ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الفلحة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د. إبراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد إلى التأميم
(١٩٥٧ - ١٩٦٦) ،
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمى المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبد المصور : تاريخ مصر الإسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أهدا للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة
وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧) ،
د. سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

- ٦٧ - مساهمى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - أهل اللمة فى الاسلام ،
تأليف : أ. س. تروتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
إعداد : تريفور إيفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر
فى العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمانة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى ،
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل اللمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،
د. سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

- ٧٦ - دور التعليم المصري في الانفصال الوطني (زمن الاحتلال البريطاني) ،
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قنائة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي (١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د. السيد حسن جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،
د. رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥

- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في مصر الحرة الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د. أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التلوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : ييترو مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبیه بیومی عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د. مهدي اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ - مصر وأفريقيا ٠٠ الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدما للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،

د. إيمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد

٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
د.د. عبد العزيز صالح ، د.د. جمال مختار ،
أ.د. محمد إبراهيم بكر ، أ.د. إبراهيم نصحي ،
أ.د. فاروق القاضي ، أعدما للنشر : أ.د. عبد العظيم
رمضان

١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،

للواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء /
عبد الحيد كفاي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير /
جمال منصور

١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة

- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره
د . علي بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ -
١٩٨٧ .
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ج ٢
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث
تأليف دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجبال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤
سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ١
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ٢
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقي
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري)
د . اسماعيل عز الدين

رقم الايداع ١٩٩٧/٧٨٨٥

الترقيم الدولي 4 — 5299 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

هذا الكتاب يتناول دور الزبير باشا في السودان في عصر الحكم المصري، وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها المؤلف بمقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٣١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري.

وفي الفصل الأول، وهو بعنوان «بداية ظهور الزبير رحمه في السودان» تحدث عن عمله بالتجارة، وذهابه إلى بلاد النمام نيام (النمام)، ومقابلته للملك كريم، ونزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها. أما الفصل الثاني، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان. أما الفصل الثالث فقد تعرض فيه للدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور. كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار اسماعيل باشا أيوب، وموقعة منواش، ودخول العاصمة الفاشر. أما الفصل الرابع فهو بعنوان «الزبير - جوردون» فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية، ورفض الزبير الإشتراك في حملة سواكن كما تعرض لحوادث اخلاء السودان، وانتهى بنفى الزبير إلى جبل طارق سنة ١٨٨٥.

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته في نهاية حياته.

